أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم

تأليف

أحمد بن محمد طاحون

الكتاب الخامس

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية - عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

الطبعة الأولى ١٤١٤ من الهجرة
١٩٩٤ من الميلاد

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم

تأليف

أحمد بن محمد طاحون

الكتاب الخامس

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية - عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

الطبعة الأولى ١٤١٤ من الهجرة
١٩٩٤ من الميلاد

مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

تمهيد:

الحمد لله

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركا فيه.

الحمد لله ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شاء من ملكوته العظيم.

الحمد لله على ما منّ به من النعم ، ووفّق إليه من العمل الذى نرجو ثوابه تفضلا من الله وإحسانا ، والصلاة والسلام على نبى الهدى المعلم الهادى النذير البشير وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين . .

أما بعد

فإن الأمثال والنماذج البشرية فى كتاب الله عزَّ وجلَّ وفى حديث نبيه محمدٍ ﷺ منهجٌ كاملٌ لتصحيح العقيدةِ وترشيدِ الأخلاق ، وتهذيبِ الضمائر ، ولإعلاء صوتِ الحق فى النفس البشرية ، وتبصيرِ الإنسان بما هو نافعٌ ، وبما هو ضارٌّ ، لتكونَ خطواتُ الملتزمِ آدابَ الإسلام ، المنتفعِ بتوجيهاتِ القرآنِ ، المصحح لمقاصده وعمله مقتديا بخير الأنام ﷺ ـ لتكون خطواته ـ على هداية ورشاد ، فلا يَضِلُّ ولا يَزِلُّ وبقدر ما يأخذُ نفسَه بتعاليم السماءِ تكونُ طمأنينةُ قلبه ، ومنزلته فى مدارجِ الصالحين.

وإن الدراسةَ التى قدَّمَها هذا الكتابُ ـ بأجزائه الخمسة ـ كان لها طابعها الخاصُّ بها ، ومنهجُها المميَّزُ بسماتٍ تم توضيحُها فى مقدمات الأجزاء التى صدرت قبل هذا.

وما زال ينبوع هذه الدراسةِ فياضًا بالعطاء المباركِ الذى لا يَنقَطِعُ ولا يَغِيضُ

وما زال نورُ الأمثالِ والنماذجِ البشرية فى الكتاب والسنةِ يُمِدُّ كلَّ من يَقْبِسُ منه بالمعانى السامية ، والفضائلِ العالية ، والتوجيهاتِ الرشيدة ، ويُضِيءُ الطريق للقلب والعقل معا.

إن الفراغ من تأليف هذا الكتاب كان فى شهر شعبان من عام ١٤١٣ من الهجرة (يناير ١٩٩٣ من الميلاد) بتوفيق من الله وإحسانه ، وما فتئ العبدُ الضعيف يرجو ويأمل أن يمده ربُّ العالمين بعونه ليواصلَ هذه الدراسة ، ويتابع هذا البحث ، فإنه لا حركة ولا سكون إلا بمشيئته سبحانه ، ولا يقدر العبد على إنجاز أمر وهو فى الإرادة النافذة غير مقدور له ، فكلُّ ما هو كائن ، وكل ما سيكون فبقضاء وقدر ، والعبد إنما هو آلة وسبب والمسبِّب هو الواحد الأحد الفرد الصمد خالق الأسباب والمسبَّبات.

أسأله عفوه ورضاه وتوفيقه وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.

أحمد بن محمد طاحون

في ظلال سورة نوح عليه السلام

٢٢٨-أ-آدمُ الثانى وعِبرٌ من قصته مع قومِه

وَرَد ذِكْرُ رسولِ اللهِ نوحٍ عليه السلامُ فى القرآن العظيمِ ثلاثًا وأربعين مرةً ، فى ثمانٍ وعشرين سورةً ، وذُكِرَت قصتُه مُفَصَّلَةً فى ستِّ سورٍ هى: الأعرافُ ، هودٌ ، المؤمنون ، الشعراءُ ، العنكبوتُ ، وسورةُ نوح وقد عُرضت مُختلفةَ اللفظِ بحَسبِ ما تكونُ العنايةُ مُوجَّهَةً نحوَه من البيان ، وهذا من إعجاز القرآن ، الذى به تَمَّ التَّحدى والعربُ فى أَوْجِ فصاحتِهم ، وَذِرْوَةِ سَنام بلاغتِهم ، ولكنهم عَجزوا عن الإتيان بشىءٍ من مثله.

وفى زمَن نوحٍ عليه السلامُ شاع الكفرُ ، وفشَت عبادةُ الأصنام واشتد العصيانُ فى البشر ، وأكثروا من الظلم والبغْى والفسادِ ، فكان من خبرهم مع نبيِّهم ما قصَّه اللهُ علينا فى فاتحة سورةِ نوحٍ وفى غيرها من سور القرآن.

وُلِدَ نوحٌ عليه السلام بعد موتِ آدمَ عليه السلام بنحو قَرنٍ وربْعِ قَرنٍ من الزمان ، وقد عُمِّرَ آدمُ نحوَ ثلاثين سنةً وتسعمَائةِ عام ، وقد بُعِث نوحٌ فى نحو الأربعين من عُمره فى روايةِ ابنِ عباس ، ولَبِث فى قومه خمسين عامًا وتسعَمائةِ سنةٍ ، فيكونُ عمرُه نحو ألفِ عامٍ إلا عشرةَ أعوامٍ ، وقد عاش بعد الطوفان نحو ستين سنةً ، حتى كثُر الناسُ وَفشَوا. وقد وصَل تقديرُ المفسِّرين والمؤرِّخين فى عُمر نوحٍ عليه السلام

إلى نحو ألفِ سنةٍ وستمائة سنةٍ وخمسين سنةً ، وقيل: إنَّ مَلَكَ الموتِ حين جاءه قال له: كيف وجدْتَ الدنيا؟ قال نوح: مِثْلَ دارٍ لها بابان دخلتُ من هذا ، وخرجتُ من هذا.

لقد أُوذى عليه السلام فصبَر ، وكانت العاقبةُ لأهل التقوى.

وجاءت قصتُه فى القرآن تسليةً للنبى محمدﷺ ، ومثَلا ونموذجًا يُقاس عليه نظائرُه بمقتضى التشابهِ بين أفرادِ النوع ، وثباتِ سُنن الله المستنِدَة إلى حكمته ، وعِلْمِه ، وعدْلِه ، عظةً لذوى البصائر ، وهدايةً لأولى النهى كما قال سبحانه من سورة النور عن قصص الماضين:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الآية: ٣٤]

و ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ أى: وقصةً عجيبةً من قَصص السابقين للتدبر ، والانتفاعِ ، ليتحفَّظَ ذوو العقولِ الراجحةِ مِمَّا وقَع فيه المعاندون والمتكبرون والمفسدون.

وسورةُ نوح مكية ، وآياتُها ثمانٍ وعشرون ، وفى تفسير ابن عباس سبعٌ وعشرون ، وكلماتُها مائتان وأربعٌ وعشرون ، وحروفُها تسعُمائةٍ وتسعٌ وعشرون ، نزلت بعد «**النَّحل**» ، وترتيبُها فى المصحف بعد «المعارج» وفى مَطلعها الإخبارُ بإرساله إلى قومه لإنذارهم ، وتخويفِهم عقوبةَ الله إذا لم يُقلعوا عن الشرك والشرِّ والفساد ، وبيانٌ للأركان التى بُنيت عليها دعوتُه ، وهى: توحيدُ الله وعبادتُه وحده ، وتركُ عبادة الأصنام التى كانت تُعبد من دون الله. والركن الثانى: تقوى الله ، واجتنابُ المعاصى والفواحشِ التى تُفسِد عليهم أخلاقهم وآدابَهم وصحتَهم. والثالثُ: إطاعةُ ولىِّ الأمر فيهم ، وهو نوحٌ عليه السلام نفسه ، ولنتدبر:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ١: ٣]

ففى قوله: ﴿اعْبُدُوا اللهَ﴾ الدعامةُ الأولى أى الإيمانُ الصحيحُ وتَرْكُ الشِّرك ، وفى ﴿واتَّقُوه﴾ الأمرُ بالتقوى والاحترازُ من معاصى الله ، وفى ﴿وأَطِيعُونِ﴾ الطاعةُ لولىِّ الأمرِ القائمِ بالدعوة إلى الدين الحقِّ ، والآمرِ بما ليس فيه معصيةٌ لله عزَّ وجلَّ.

وبالإيمان ينتظمُ أمرُ عقائدِ الأمةِ فتَسْلمُ من الأوهام والأباطيل ، وبالتقوى ينتظمُ أمرُ أخلاقِها وآدابِها فتسْلَم من الفساد ، ومن السقوط فى مهاوى الشرِّ والرذيلة ، وبالطاعة ينتظمُ أمرُ اتحادِ كلمةِ الأمةِ وعلوِّ شأنها، فتسلَمُ من التفكك والانحلال والضياع.

قال ابن عباس فى تفسيره: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ وحّدوا الله ﴿وَاتَّقُوه﴾ واخشَوه وتوبوا من الكفر والشرك ، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ اتبعوا أمرى ودينى ووصيتى ، واقبلوا نصيحتى.

وقال قتادة فى هذه الآية ـ كما فى الدر المنثور للسيوطى ـ : بها أرسل الله المرسَلين: أن يعبدوا الله وحده ، وأن تُتَّقَى محارمُه ، وأن يُطاع أمرُه.

وفى قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ قوةٌ وتأكيدٌ عن طريق إنَّ الناسخةِ المؤكِّدة ، وتكرارِ إسنادِ الفعل إلى ضمير العظمة أى باعتبار هذا الضمير اسمًا لإنَّ ، وجملةُ أرسلنا خبرٌ ، وباعتباره فاعلا لأرسل ، وفى هذه التقْويةِ ما لا يخفى من الاعتناء بأمر إرساله عليه السلام ﴿إِلَى قَوْمِه﴾ ليخوفهم من السخط والعذاب إنْ هم أصرُّوا على الشرك والفساد ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُم عَذَابٌ أَلِيم﴾ و: «أنْ» هنا تفسيريةٌ

بمعنى أَىْ حَرْف لا موضعَ له من الإعراب ، والمعنى: إنا بعثنا نوحا إلى قومه: أَىْ أَنْذِرْهم ، وذلك لِمَا فى الإرسال من معنى القولِ دون حُروفه أو تكون أن مصدرية تُؤوَّل مع ما فى حيِّزها بمصدرٍ مجرورٍ بحرف مُقَدَّر والمعنى: بأن أنذرْ قومَك ، أى: بإنذارهم ، أو لإنذارهم.

وقد بَذل نوحٌ عليه السلام منتهى وُسعه وغايةَ اجتهاده وسعَى بقدر إمكانه ليتَّبِعَه قومُه فى الإيمان بالله تعالى ، وأن يُقلعوا عن عبادة الأصنام وطال الزمن ، وهو يُغاديهم بالنصح ويُراوِحُهم بالعظة سرًّا وعلانية وهم لا يزدادون إلا إعراضًا عن الخير ، ونأيًا عن طريق الهدى ، وقد ألحَّ عليهم حِرصًا على إنقاذهم من الضلالة ، ولـمَّا كانت النفوسُ تَميل إلَى التَّـنَعُّم ، وتحصيلِ مايلذُّ النفوسَ فقد بيَّن لهم المسراتِ المترتبةَ على الإيمان والنِّعمَ التى تنتظرهم فى عاجل حياتِهم من إرسال المطرِ لسُقياهم وسُقيا أرضِهم ومواشيهم ، وما يترتبُ مِن عظَم الخيراتِ والبركاتِ ووفرةِ الأموال وكثرةِ الذرية.

وكان عليه السلامُ يَضرِب لهم الأمثالَ ويوجِّه نظرَهم إلى صنع الله تعالى بخلْقهم أطوارًا مختلفة ، وعنايته سبحانه بهم فى أدوار حياتهم الجنينية وحياتهم فى الدنيا ، وفى خلْقه السمواتِ والأرضَ ، وأن مَن بَدأهم قادرٌ على إعادتهم ، ذلك: أن مَن خلَق لهم الأرض ، ومتَّعهم بما خلَق فيها قادرٌ على إعادتهم ومجازاتهم.

وكان القوم يتبرمون بهﷺ ، ويُوصون أولادَهم بعدم اتباعه والاستماعِ إليه ، وينالونه بالأذى ، فعصَوه واتبعوا بعضَ كبرائهم الذين لا يَزيدونهم إلا خسارًا ، ومكروا فيما بينهم مكرًا عظيمًا إلى أن نفدَتْ حيلتُه ، ويئس من صلاحهم ، وقد بيَّتوا فيما بينهم ألا يذَروا عبادةَ: وَدٌّ ، وسُواعٍ ، ويغوثَ

ويعوقَ ، ونَسْرٍ ، وقالوا فى كبرياءٍ وضيقٍ بالحق ودلائله: إنك - يانوح - قد أكثرتَ جِدالنا ، وأكدوا أنهم لن يتركوا ما هم عليه من ضلالٍ وفسادٍ بحال ، وطلبوا تعجيلَ العذابِ الذى توعَّدهم به إن هم أصرُّوا على الشرك والشرِّ ، فردَّ عليهم بأنَّ أَمْرَ عذابِهم بيد اللهِ وحده الذى أرسله نذيرًا ومعلمًا لا بيده عليه السلام.

وإن ما كان من نوح وقومه جاء بيانُه فى هذه السورة الكريمة ، فى حِوار بديعٍ يملكُ القلوب ، مع تتابُعِ الصورِ المعبِّرة ، ورسْمِ المواقف ، وإبراز النوايا مُجسَّمةً للعيان بالألفاظ المعبِّرة ، والكناياتِ الموضِّحة ، والخطوط البارزة للحركة والصوت ، مع الروعة والإعجاز ، وفى قوله:

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ إيجازُ قِصَرٍ ، فقد تضمنت العبارةُ خيرى الدنيا والآخرة ، وكلَّ مافيه صلاحُ النفس والعقلِ والبدَن: من العقيدة الصحيحةِ وهى التوحيدُ وعبادةُ الخالق وحده ، ومن الأعمال بفعل المأموراتِ وتجنُّبِ المنهيات ليَقِىَ الإنسانُ نفسَه من عذاب اللهِ وسُخطِه ، كما تضمنت الطاعةَ لولى الأمر فيما يُرضى اللهَ ولا يُسخِطُه وما فى ذلك كلِّه من طمأنينةِ النفس ، وسكينةِ الروح ، والاحتماءِ من المهلكات البدنيةِ والنفسية ، والأمنِ والاستقرار ، ثم ما يترتبُ على هذا من خيرٍ عميمٍ ونعيمٍ مقيمٍ فى الدار والآخرة ، ومن البركة فى الأعمار فى الدنيا ، وقد بيَّنه رسولُ الله نوح: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤]

فإذا آمن القومُ غفَرَ اللهُ لهم ما كان من الشرك والمعاصى ، ورفع عنهم سبحانه ما يكون مقدَّرًا من العقوبة على ما هم عليه من إلحادٍ وشركٍ وعصيان ، فإن هم بادروا إلى التوبة والدخولِ فى دين اللهِ كان خيرًا لهم

وبركةً فى الدنيا والآخرة ، لأن الموت إذا حان أوانُه لا يُؤخَّر ، ولا يردُّه رادٌّ.

قال مجاهد: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: ما قد خُطَّ من الأجَل ، فإذا جاء أجلُ الله لم يُؤَخَّر.

وكأنَّ نوحًا كان يَعْهَدُ من قومه الريْبَ والشكَّ فى أنَّ لهم أعمارًا محتومة ، وآجالا معلومةً يموتون عندها ، لطول غفلتهم ، وقلةِ تدبُّرهم ، ومن ثَمَّ أَتْبَعَ قولَه ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بقوله:

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى الأجل المسمَّى والمقدَّر لكل حىٍّ من بَنى آدمَ إذا جاء وقتُه وَحِينُه «**لا يؤخَّر**» عنه بل يُنفَّذ طبقًا للمشيئة الإلٰهية.

ثم تمنَّى أن لو استعملُوا عقولَهم وتدبَّروا فى الأمر لِيَهتدوا فقال: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وفى هذا التعبيرِ من التعيير والتقريع ما فيه.

ثم وَصف السياق نفورَهم ، وصوَّر إعراضَهم تصويرًا بديعًا مؤثِّرًا.

وللكلام بقية...

❄ ❄ ❄

٢٢٩- ب- وأصـرُّوا واستكْبَروا

دعا نوحٌ عليه السلامُ قومَه إلى عبادة اللهِ وتوحيدِه ، ووعظَهم وخوَّفهم بأسَه وعذابَه أن يَحلَّ بهم إذا هم لم يؤمنوا ، وظلَّ ماضيًا فى طريقه صابرًا محتسبًا مرغِّبًا فى الإيمان ويُمْنه وبركاته ، منفِّرًا من الشرك والإلحادِ وشُؤمه وسوءِ عاقبته ، وكان يخاطب العقلَ والنفسَ ، وينبِّهُ الفكرَ ، ويوقظُ الشعورَ ويُلِحُّ عليهم رحمةً بهم ، وإشفاقًا ، فآمن القليلُ ، وأصرَّ على الكفر الجَمُّ الغفيرُ ، وبعد أن لبِث فيهم خمسين سنةً وتسْعَمائة سنة يدعوهم إلى الخير ، وينهاهم عن الشرِّ ، ولا يألوهم نُصحًا أوحى إليه ربُّه ما قصَّه الله بقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [سورة هود: ٣٦]

وكان نوحٌ قد شكا إلى ربِّه عنادَهم ، وتماديَهُم فى تكذيبهم وجحودِهم ، وشدةَ تَعنُّتهم ، وصُدودَهم بإصرارٍ عن الدليل والبرهان ، وقد صوَّر السياقُ من سورة نوحٍ هذه الشكايةَ وأسبابَها ، ولنتدبر:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۞ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٥-٧]

وفى قوله عليه السلام ﴿إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ دلالاتٌ كثيرةٌ على عِظَم الجُهد الذى بَذله ، وقد استغرقت دعوتُه أعمارًا وأجيالا على مدى ألفِ سنةٍ إلا خمسين عامًا ، وهو يَدأبُ ، ويسهُر ، ويتابعُ المسيرة مع الصبرِ والمثابرة ، دون كللٍ ولا ملل.

ومع ذلك قابَل المعاندون الإشفاقَ عليهم ، بشدة النفور والإعراض: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلا فِرَارًا﴾ وهى صورة قويةٌ معبرةٌ فيها صوتُ الناصحِ المُشفقِ الأمين ، وحركةُ الفرارِ التى تُوحِى بِطُغيان النفس ، وضعف العقل ، وسوءِ التدبُّر ، وكأنَّ فيهم قِيل المثل: أجسامُ البغالِ وأحلامُ العصافير.

ثم تأمل الطباقَ الضمنىَّ المفهومَ من الآية فدعاؤُه قومَه يدلُّ على إقباله عليهم والجِدِّ فى متابعتهم ، وضدُّه الفرارُ أى فرارُهم ، وإعراضُهم لفرْط جهلهم ، وكأنهم حمرٌ مستنفرةٌ ، فَرَّت من قَسورة ، وقد جَسَّم السياقُ هذا النفورَ ، وتزايُدَ إعراضهم يومًا بعد يومٍ فى صورة بديعة قال عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾.

وفى جَعْل الأصابعِ فى الآذان مجازٌ من إطلاق الكُلِّ على الجزء ، وهو الأنملةُ وفيه كنايةٌ عن الصدود وعدمِ قبول النصح ، كما فى استغشاءِ الثيابِ فهم لا يريدون أن يَسْمعوا صوتَ الناصحِ الأمين ، كما أنهم لا يرغبون فى النظر والتدبرِ ، ولا يمنعُ ذلك من الحمْل على الحقيقة بأن يُدْخلُوا أصابعَهم فى ثُقْب آذانهم قصدًا إلى عدم الاستماع وبأن يُغَطُّوا عيونَهم بثيابهم ، لأن المقصد هو لازمُ ذلك أى الإعراضُ وكراهةُ السماعِ والرؤية ، وفى الكناية قد يجتمعُ اللازمُ والملزومُ ، أى المعنى الكنائىُّ والحقيقىُّ مثل: فلانٌ طاهرُ الذَّيلِ كنايةً عن العِفَّة. وقد يكون طاهرَ الثيابِ بالفعل أيضًا ، وتأكيدًا لِمَا عُبِّر عنه بالفرار وسدِّ الآذان ، وتغطيةِ الوجوه جاء قوله ﴿وأصرُّوا﴾ فهو عليه السلام حين دعا على قومه كان الأمرُ فى العناد قد بلَغ أقصاه وغايتَه ، إذْ قد عقدوا العزمَ على الكفر

عقْدًا لايرغبون فى حَلِّه والفِكَاكِ منه ، ولم ينفع معهم نُصحٌ ولا برهانٌ ولم يُرْجَ منهم بادرةُ خيرٍ بحال ، وفى الإصرار هنا: معنى الإكبابِ على الكفر والمعاصى والانهماكِ والجِدِّ فيها ، وأكثرُ ما يُستعملُ الإصرارُ فى الثبات على الشرور والتزامِ سيئاتِ الأعمالِ ، وهو منقولٌ من المعنى الحسِّىِّ وهو الشدُّ والربطُ ونُقل إلى النيات والمقاصدِ على سبيل الاستعارةِ أمَّا هذا الإصرارُ فسببُه التعاظمُ والترفُّعُ والتكبُّرُ الذى هو سببُ كلِّ فسادٍ وشرٍّ ، وقد أشار نوحٌ عليه السلام إلى ذلك مؤكِّدًا الفعلَ بمصدره ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا﴾ ، وفى المفعول المطلَقِ هنا نوعُ تفخيمٍ وتعظيمٍ لهذا الاستكبارِ الذى بلَغ منتهاه.

إنه نموذجٌ سيِّئٌ غايةَ السوءِ من النفوس البشريةِ ، وقد جاء تصويرُ حالِهم فى المثَل القرآنى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

وإن اختلَف الزمانُ ، وتغيَّرَ المكانُ ولكن الحقيقةَ واحدةٌ ، والمقياسَ لا يَتخلَّفُ أبدًا ، لأنه مقياسُ الحقِّ والعدلِ.

إن نوحًا عليه السلام دعا على قومه فهلكوا ، وكانوا أهلا لذلك ، فقد بَذَل أقصى جهدٍ فى دعوتهم إلى الخير برفقٍ ولينٍ وما كان يعوقُه ظلامُ الليل ، ولا شواغلُ النهارِ عن السعى إليهم وإقامةِ البرهان ، ومخاطبةِ القلوب ، وإظهارِ الشَّفقة ، وبيانِ الثمراتِ الطيبةِ للإيمان ، كما كان يسلكُ كلَّ سبيل لينفُذَ بالدعوة إلى نفوسهم ، وانظُر إلى هذا التقسيم:

﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعلنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرتُ لَهُمْ إِسرارًا﴾

هذا بعد أن قال: ﴿رَبِّ إِنِّى دعوتُ قَوْمِى لَيلًا ونهارًا﴾.

فهو يسعى إليهم بالخير فُرادى وجماعاتٍ يَرفَعُ صوتَه فى مجامعهم بالنصيحة حين يرى ذلك مؤديًا للغاية ، ويسعى إليهم فُرادى وفى بيوتهم يدعوهم إلى الله سرًّا عسى أن تتفتحَ القلوبُ للخير ، وتكونَ بمنأى عن الشر ، ولكنهم عامَلُوه بالأمور الأربعة وهى: صَمُّ الآذان ، والتَّغطِّى والإصرارُ والاستكبارُ ، ولـمَّا لم ينجح الإسرارُ فى أول الأمرِ مع هذه النفوس العصيةِ المستعصيةِ سلَك نوحٌ طريقَ المصارحة والتبليغِ جِهارًا دون تكتُّم فلمَّا لم يُؤثِّر جَمَعَ بين الإعلانِ والإسرار ، وكأنَّ نوحًا عليه السلام يقول: إننى لم أدَّخِر وُسعًا ، ولم أُبْقِ جُهْدًا إلا بذلتُه ، ولم أترك طريقًا يوصِّلُ إلى الغاية إلا سلكتُه ، وكنتُ أُغريهم بالخير ، وأُبَشِّرُهم بالنماء والبركة والرخاء فقلتُ لهم: ﴿**اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾

لقد أتاهم من طريق القلبِ وتحريكِ العواطف ، يقول قتادةُ: عَلِم نبىُّ اللهﷺ أنهم أهلُ حِرصٍ على الدنيا فقال: هلمُّوا إلى طاعة الله ، فإن فى طاعة الله دَرْكَ الدنيا والآخرة.

لقد بشَّرهم بقبول التوبةِ إن هم استغفروا ربَّهم ورجعوا إليه نادمين ، إنه سبحانه «**كَانَ غَفَّارًا**» أى عظيمَ المغفرةِ يُقِيلُ العبدَ من ذنوبه إذا أقبلَ بالتوبة على ربِّه من الكفر والمعاصى قبل فواتِ الأوان ، والاستغفارُ مِمْحاةُ الذنوب بفضل اللهِ ورحمته ، ومن بركات الإيمانِ والاستغفارِ نماءُ الحياة ، وطيبُ العيش ، ونزولُ الغيثِ على قَدْرِ الحاجة ﴿**يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا**﴾ ومِدْرار: صيغةُ مبالغةٍ يَستوى فى الوصف به المذكَّرُ والمؤنَّثُ والمقصودُ بالسماء المطرُ أو من بابِ حَذْفِ المضافِ أى: ماءَ السماء.

لقد وَعدَهم بالعوائد العاجلة التى هى أوقعُ فى قلوبهم وأحبُّ إلى نفوسهم إذ النفسُ حريصةٌ على حُبِّ العاجل ، لذلك جُعلَت المنفعةُ العاجلةُ جوابَ الأمر ﴿يُرسِلِ السماءَ﴾ دون المغفرة ، ليرغبوا فى التوبة والاستغفارِ رجاءَ بركته ، ذلك أن الاشتغال بطاعة الربِّ سببٌ لانفتاح أبوابِ الخير ، كما أن المعصيةَ سببٌ للهلاك والخرابِ بظهور أسبابِ القهرِ الإلهى ، وهذه حقيقةٌ يشهد لها الواقع.

وإننا إذا أدرنا عينَ الفكْر فيما يُصيب الناسَ من القحط والجفاف ، أو الفيضانِ والسيولِ الجارفة ، أو ما يقعُ من فتَنٍ ومعاركَ داميةٍ تُدمِّر الأخضرَ واليابس ، وتُزهِقُ ألوفَ الأرواح ، وتُسبِّبُ الشقاءَ والمجاعاتِ والتشريدَ وخرابَ الديار ، لوجدنا السببَ فى ذلكَ هوَ نسيانُ الناسِ حقوقَ الله عليهم ، وإعراضُهم عن طاعته ، وانغماسُهم فى الشبهات والشهوات والحقُّ تبارك وتعالى يُنبه عبادَه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]

وقوله من سورة المائدة:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [٦٥، ٦٦]

وكما قال هود لقومه:

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]

وفى التحذير من تعاطى الأسبابِ المفضيةِ إلى غضب اللهِ عز وجل وانتقامه من المتجبرين العصاة يقول سبحانه:

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]

وفى هذا نذيرٌ للناس يوقِظ العقلاءَ من الغفلة ، ويبعثُهم على الاستقامة والإخلاصِ طلبا لمرضاة الربِّ ، ورغبةً فيما عنده من الرحمة بالعباد.

ومن مظاهرِ هذه الرحمةِ ما جاء على لسان نوحٍ فيما بشَّر به التائبين المقبلين على الله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَآءَ عليكُم مِّدراراً ﴿ وَيُمددْكم بأموال وَبَنِينَ ويَجعل لَّكُم جنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُم أَنْهَاراً﴾ أى إن تستغفروا ربَّكم وتتوبوا إليه بالإخلاص تكونوا أهلا لهذه البركات ، بنزول المطر ، ونماءِ الزروع ، والبركةِ فى الأهل والأولاد.

إن الأفعالَ: يرسلْ ، ويُمددْ ، ويجعلْ ، كلها مجزومة فى جواب شرطٍ مُقدَّر مفهوم من الأمر فى قوله «استَغْفِروا».

أى: إن تستغفروا يرسلْ ويجعلْ.

ثم أخذ نوحٌ فى لَفْتهم إلى عظمة اللهِ عزَّ وجل وقدرتِه على إنزال النَّكالِ بالمعاندين ، وإلى آيات قدرتِه فى النفس والكون.

والكلام متصل. . .

❊ ❊ ❊

٢٣٠-ج- مالكم لا ترجون لله وقارًا

أطْمَعَ نوحٌ قومَه إنْ هُم آمنُوا وتابوا وأطاعوا ربَّهم ونبيَّهم فى الحصول على بركات السماء ، وخزائنِ الأرض ، وعلى رغَدِ العيش ، وسكينةِ النفس ، لأن كلَّ ذلك بيدِ اللهِ وحده ، وبتوفيقِه العبادَ إلى الأخذ بالأسباب الصحيحة .

وبعد أن رغَّبهم فى الإيمان بما يعود عليهم من ثمراته الطيبةِ عاد فهزَّ نفوسَهم وعطَّفها نحوه بأسلوبٍ آخرَ من أساليب البيان ، عن طريق الحِجَاجِ العقلىِّ ، وتنبيه الوجْدانِ والفكرِ للتأمُّل والتدبر ، قال لهم عليه السلام: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لله وَقَارًا*وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤]

والعُمْدةُ فى هذا الأسلوبِ مخاطبةُ العقل ، وحَفْزُه للاستدلال على وحدانية الله تعالى من طريق النظرِ والتفكُّرِ فى خلْق أنفسهم ، ثم فى خَلْق الكائنات العُلْوية والسُّفلية: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا*وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦]

أمَّا أسلوبُ الآياتِ السابقة عليها فإن العمدةَ فيه مخاطبةُ القلب وتحريكُ العواطفِ نحوَ شُكرِ المنعمِ ، إذ فى شكره والإيمانِ به سبحانه الاستزادةُ من النعم ، ونيْلُ ما عند الله من الخير والبركة .

لقد خاطَب نوحٌ عليه السلامُ النفسَ والعقلَ ، وأحاط الخصْمَ بالدليل الخطَابىِّ ، والبرْهانِ العقلىِّ ، ولم يَدَعْ وسيلةً للإقناع والإمتاع إلا سلَكها ليدفعَ الفِكْرَ إلى النظر والتأمُّل ، ويستميلَ القلبَ والعاطفةَ وعن طريقهما

ينفذُ إلى العقل فَيُنيرُ له الطريق ، وهذا لفرْط شفقته عليهم ، ورحمته بهم ، لقد صبَر وثابَر عليه السلام ، وألحَّ على قومه إلحاحًا عظيمًا فى رِفْقٍ ولينٍ ، ولكنَّ المتعنتين كانوا يُراوغون ويلجئُون إلى غير معاذيرَ كقولهم استكبارًا وعتُوًّا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾.

مع أنه عليه السلام كان يتودَّدُ إليهم ويناصحُهم بالأساليب التى تُلينُ القلبَ ، وتحركُ الوِجدانَ ، وتوقظُ الفكرَ مثل قوله من سورة الشعراء: ﴿أَلا تَتَّقُونَ﴾ وفى هذا ما فيه من غاية الإشفاق والحِرْصِ على سلامتهم ، ثم أَكَّد لهم المحبةَ والرغبةَ فى الخير لهم بمثل قوله: ﴿إِنِّى لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أمَّا مضمونُ رسالته وجوهرُها وحقيقتُها فقد بَيَّنه بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ، ثم بيَّن لهم أنه لا مطمعَ له فى مالٍ أو جاه ، وإنما يرجو رحمةَ الله وحده بدعوتهم إلى التوحيدِ وطاعةِ الله ورسوله ولنتدبر قولَه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١١٠]

وفى قوله عليه السلام ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا﴾ حكمةٌ بالغةٌ وتنبيهٌ زاجرٌ ، وعظةٌ رادعةٌ ، وإنك ـ يا ذا اللب ـ إذا رأيتَ جماعةً منكبَّةً على معصيةٍ غافلةً عن ربها ، لاهيةً بدنياها وشرورِها ، فقلتَ لهم: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا﴾ فقد أصبتَ ، ونَبَّهتَ ، ووعظْتَ وأنكرتَ إنكارًا شديدًا ، وكأنك قلتَ: كيف لا تَستحضرون عظمةَ الله وسلطانَه وانتقامَه من العصاة فى نفوسكم لترتدِعُوا وتنزجروا عمَّا أنتم فيه وهو معكم يسمعُ ويرى سبحانه.

جاء فى الدرِّ المنثور للسيوطى: أن النبىَّ ﷺ رأى أناسًا يغتسلون عُراةً

ليس عليهم أُزرٌ ، فوقَف فنادى بأعلى صوته: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا﴾ أخرجه عبد الرزاق فى المصنف عن على بن أبى طالب ، فقد صارت هذه العبارةُ الموجزةُ المحكمَةُ الغنيةُ بدلالاتها مَثَلا سائرًا ، يُضْرَبُ فى المواقف التى تَستْدعِى الزجْر والتنبيهَ تمثيلا للحال الحاضرةِ بما كان عليه حالُ قومِ نوحٍ وحاجتُهم إلى الردْع.

والرجاءُ معناه الأمل كما جاء فى قول كعب: أرجو وآملُ أن تدنُوَ مودتُها ، وتستخدمُه العربُ فى معنى الخَوف إذا صَحِبَه جَحْدٌ كما فى قول أبى ذؤيب: إذا لسعَتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها ، أى إن مشتارَ العَسَلِ لا يخاف لسْعَ النحلِ إذا هى لسعته لاعتياده ذلك منها.

ويُستخْدَمُ الرجاءُ فى لُغة هُذيل ومُضَر وغيرِهما بمعنى: المبالاةِ ، تقول فلانٌ لا يرجو كذا أى: لا يُبالى.

والوقار فى جانب الله عز وجل معناه: العظمةُ أى التوقيرُ والتعظيم فالمعنى: ما لكم أيها القومُ لا تخافون لله عظمةً أو لا تُبالون عظمةَ اللهِ فتؤمنوا به ، ولا ترهبون له جانبًا فَتَدَعُوا وتتركوا عبادةَ غيره ، وأنتم إذا نظرتم متدبرين فى أنفسكم وفى الآفاق رأيتُم من غريب صُنعِه ، وعجيبِ إبداعِه ، ما يستدعى منكم تلك المخافةَ والرهبة.

وفسَّره ابن عباس: ما لكم لا ترجون لله ثوابًا، ولا تخافون له عقابًا، أى فسره بمعنى الطمعِ والأملِ والخوفِ ، ونقَل العَوْفىُّ عنه معنًى يتصلُ بالعِلْم فقال: ما لكم لا تعلَمُون لله عظمةً.

وفسَّرها بعضُهم باليأس من رحمةِ اللهِ بعد الاستقامة والصلاحِ فقال ابن كيسانَ: ما لكم لا ترجُون فى عبادة اللهِ وطاعته أن يُثيبكم على توقيركم خيرًا، وقال الحسن: ما لكم لا تعرِفُون لله حقًّا ، ولا تشكرون له

نِعمه، ولعل هذا تفسيرٌ باللازم لأنه يلزمُ من الخوف معرفةُ حقوقِ الله وشكرُ نعمته، وفى هذا الاتجاهِ قيل معناه: ما لكم لا توحِّدون الله، لأن من عَظَّمه فقد وحَّده، وقيل: إنَّ الوقارَ هو الثباتُ لله عز وجل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]

ومعناه: ما لكم لا تُثْبِتُون وحدانيةَ الله تعالى وأنه إلهكُم لا إلهَ لكم سِواه، قال ابنُ بحْر: ثم دلَّهم على ذلك فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أى جعل لكم فى أنفسكم آيةً تدلُّ على توحيده.

والطَّوْرُ فى اللغة: الـمَرَّةُ أى مرةً نُطفة، ثم عَلَقة، ثم مُضْغَة، طورًا بعد طورٍ إلى تمام الخلْق، أى مَن فعل هذا وقدَر عليه فهو أحقُّ أن تُعظِّموه، وقيل ﴿أطوارًا﴾ أى: صِبيانًا، ثم شَبَابًا، ثم شيوخًا وضُعفاءَ، ثم أقوياءَ، وقيل: أنواعًا: صحيحًا، وسقيمًا، وبصيرًا وضريرًا، وغنيًّا، وفقيرًا، وقيل الأطوار: الاختلافُ فى الأخلاق والمشاربِ والأفعالِ، إذ إن ما عليه البشرُ فى أفرادهم وجماعاتِهم من حالاتِ الصلاحِ والفساد، والسعادةِ والشقاوةِ، والخيرِ والشرِّ، والفضيلةِ والرذيلةِ: أى تصنيفُ الناسِ إلى هذه الأصناف، وتخصيصُ كلِّ فريقٍ منهم بحالة دون حالة، وشأنٍ دون شأنٍ، دليلٌ على وجود إلهٍ حكيمٍ مدبِّرٍ مريدٍ يخصُّ مَن شاء بما يشاء.

وأكثرُ المفسِّرين على أن المرادَ بالأطوار هنا حالاتُ التخليقِ غيرُ المستقرةِ التى يَتدرَّجُ فيها الإنسانُ من حالةٍ إلى حالة، وينتقلُ من طَورٍ إلى طور: طورًا نطفة، وطورًا عَلَقة، وطورا مُضغة، ثم عَظْما قَسيًّا قد كُسِى لحمًا طريًّا، ثم بشرًا سويًّا، ورُوحًا عبقريًّا، فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين.

فهل من متدبِّرٍ مُعتَبِرٍ بنفسه وبما حوله يهتفُ من صميم قلبِه: لا إلـهَ إلا اللهُ

ولا نَعْبدُ إلا إيَّاه ، ولا طريقَ لنا سوى طريق أنبيائه ورسله.. سبحانه... سبحانه.

لقد نَبَّه نوحٌ قومَه إلى النظر فى أنفسهم أولا ، لأن نفسَ الإنسانِ أقربُ شىءٍ إليه ، والاستدلالُ بها أيسرُ عليه ، ثم دعاهم إلى إجالة عينِ الفكر فى آفاق السموات والأرضِ قائلًا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا﴾ وهو استفهامٌ يُرادُ به التقريرُ ، ولَفْتُهم إلى مشاهَدةِ عجائبِ الصُّنعِ الدالِّ على كمال القدرةِ والعلْمِ ، وفيه تعجيبٌ لهم من أمرهم فى تأخُّرِ صدورِ الإيمانِ منهم مع أنهم سبَق لهم أن رأوا السمٰوات وَوَقَفُوا على شىء من عجيب صُنعها ، وتسوية طباقها ، أو أن المرادَ بالاستفهام تنزيلُهم منزلةَ العميانِ الذين لم يَروْا لغلَبَةِ الجهْلِ والذهولِ عليهم ، كما تقول لإنسانٍ مشى على غيرِ هُدًى فكاد أن يَعْطَبَ ، قِفْ: أأنت أعمى؟ على سبيل التمثيلِ والردْعِ عن عدَم التروِّى والتبصُّر.

هذا وإن الرؤيةَ المُسْتَفْهَمَ عنها فى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوا﴾ إنما هى الرؤيةُ العلْميةُ التى تكون بالاستدلال والاكتساب وإعمالِ القياسِ والحساب وليست هى الرؤيةَ البصريةَ التى تكونُ بمجرَّد العَينِ دون إعمالِ فكْرٍ فى الاستدلال بالمصنوع على وجودِ الصانع ، وبعظمةِ الكونِ واتِّساقه على وحدانية الخالقِ وكمالِ قُدرته وتدبيره ، وفيما تقع عليه العينُ فى السمٰوات والأرضِ من العجائب دلائلُ مدهشةٌ على كمال القدرةِ وكمالِ الحكمةِ وكمال الرحمةِ كما فى نورِ القمر وضياء الشمس وما لهما من التأثير فى نطاق السَّنَنِ الكونىِّ المقدَّرِ بقدرة خالقه ومدبِّره وعلى نحوٍ لا يتخلَّفُ حتى يأذَن اللهُ بزوال الدنيا وإقبالِ الآخرةِ ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ والسراجُ: آلةُ الاستصباحِ المعروفة ، وهذا من باب التشبيهِ البليغ ، أى كالسراج ، يُزيلُ ظلمةَ الليل.

ثم رجَع نوحٌ فأمال أعناقَ قومه عن السماء إلى الأرض ، وحضَّهم على التفكُّر فى عجائبِ ما فيها من الشؤون والأطوار ، فمن ذلك خَلْقُ المخاطَبين أنفسِهم ، وكيف سُلُّوا من ترابِ الأرضِ كما يُسَلُّ النبات ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ أى: إنباتًا عَجيبًا ، وأنشأكم منها إنشاءً غريبًا؛ بواسطة إنشاءِ أبيكم آدمَ منها ، أو أنشأ الكلَّ منها من حيث أنه سبحانه: خلقهم من النُّطَف المتولِّدة من النبات ، المتولِّد من الأرض ، استُعير الإنباتُ للإنشاء لكونه أدلَّ على الحدوث ، لأنهم إذا كانوا نباتًا كانوا مُحْدَثين لا محالةَ حدوثَ النبات ، ومِن وُجوه الشَّبَه بين الإنسانِ والنباتِ النموُّ فالإنسانُ يصيرُ كبيرًا بعد الصِّغَرِ ، وتطُولُ قامتُه بعد القِصَرِ.

إن الإنسانَ فى حياته الحيوانيةِ يَتَّكِلُ على عناصرِ الأرضِ كاتِّكال النباتِ فى حياته النباتيةِ عليها.

وإن اللهَ عزَّ وجل الذى نطقَتْ مخلوقاتُه بوجوده ووحدانيته هو الذى أنبت الإنسانَ هذا الإنباتَ ، ويَسَّر له من عناصرِ الأرضِ الأرزاقَ والأقوات وخَصَّه بمواهبِ النفسِ والعقلِ والتفكُّرِ وسائرِ الحواسِّ الظاهرةِ والباطنة فوجب على الإنسان شُكرُه ، وتوحيدُه ، والإذعان لأمره.

وإن الذى قدر على خَلْقك أيها الإنسانُ وسوَّاك وعدَلَك ويسَّرَ لك ما يَجِلُّ عن الحصْر من النِّعم لقادرٌ على إرجاع الحياةِ إليك بعد سلْب الروح وإعادتك إلى الأرض لتصيرَ من دفائنها ، فإن الجزاءَ آتٍ لا ريبَ فيه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ فالقدرةُ واحدةٌ ، والحكمةُ واحدة ، والسلطانُ واحد ، والمهيمنُ واحد ، لا شريكَ له ولا ندَّ ولا ولدَ.

وكأن نوحًا يقول: إنكم إذا تأملتُم يا ذوى العقولِ فى إنباتكم وإخراجِكم من الأرض للمرة الأولى سَهُل عليكم تَعقُّلُ إخراجِكم من

الأرض بعد الممات ، وإنباتكم منها بحسب الناموسِ الذى يَضعُهُ اللهُ إذا شاء لهذا الإنبات﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]

ثم لفتَهم نوحٌ بعد ذلك إلى بعض آياتِ قدرةِ اللهِ ورحمتِه فقال:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠]

أى: جعلها كالبساط المعروف ، وهذا من فضل اللهِ ورحمتِه أن جعل الأرضَ مُمهَّدةً تحت مواطىءِ أقدامِ الناسِ لأجل أن يسلكوا منها سبلا فجاجًا وطرقا تساعدُهم على الوصول إلى أغراضهم ، وعلى قضاء مصالحِهم ، والسبلُ: جمعُ سبيل ، وهو الطريق ، والفِجاجُ: جَمْعُ فجٍّ وهو الطريقُ الواسعُ ، وفى ذلك من آيات القدرةِ وبراهينِ الرحمةِ ما يستدعى الإذعانَ ، وشُكْرَ الرحمن.

إن السورةَ الكريمةَ تُرينا نموذجًا رائعًا فى أسلوب الدعوةِ إلى الإيمان بالله ، وكيف سلك نوحٌ كلَّ سبيل لعلَّه ينفذُ إلى نفوس قومِه ، تارةً بالترغيب ، وأخرى بالترهيب ، والتذكيرِ بالنعم ، وإقامةِ البرهان ، وتقديمِ الدليل ، مع الصبر والإلحاح وبذْلِ الجُهدِ المتواصل ، وتَحمُّلِ الأذى وسعةِ الصدرِ.

ولقد وصف عليه السلامُ فى حال شكواه إلى ربِّه كيف قُوبل من المُتجبِّرين: بالصدِّ والردِّ وصَمِّ الآذانِ وتغطيةِ العيون ، ثم بَيّن فى شكواه ما كان منهم من عصيانٍ وغرورٍ واتباعٍ للأشقياء المرَدة.

❊ ❊ ❊

٢٣١- د- رَبِّ إنهم عَصَوْنى

﴿رَبِّ إِنَّهُم عَصَوْنِى﴾ هذا من شكوى نوحٍ عليه السلامُ حالَ قومِه إلى ربِّه سبحانه وتعالى ، وقد توجَّه بها وفى نفسه من الألم والرثاءِ لحالهم ما فيه ، إِذ كيف يُعْصَى الناصحُ العادلُ الأمينُ الشفيق ، وقد توجَّه بالشكوى بعد أن طَفح كيلُ شرورِهم ، ويَئس عليه السلام من إِيمانهم وقد أخبره ربُّه بحقيقة ما فى نفوسهم من تعنُّت وجمودٍ وإِصرارٍ على العقائد الباطلة ، ولنتدبر: ﴿وأُوحِىَ إِلَى نُوحٍ أَنَّه لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلا مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُون﴾ [هود: ٣٦]

أى: فلا تَحزن بما كانوا يفعلون فى هذه المدةِ الطويلةِ من التكذيب ، والاستهزاءِ ، والإِيذاءِ ، فقد حان وقتُ عقابِهم.

إِن خاتمةَ قصةِ نوحٍ عليه السلام مع قومِه مع ما سبَقها من مقدماتٍ طويلة ، ومراحلَ كثيرةٍ ، وحوادثَ متتابعة ، وبأبعادها الزمانيةِ التى امتدَّت ألفَ سنةٍ إِلا خمسين عامًا ، والنبىُّ الصالحُ يتابعُ السعْى لإِصلاح النفوس ، ويدعو القومَ ليلا ونهارًا ، ويَحثُّهم على قبول الإيمانِ سِرًّا وإِعلانًا ، ويتصلُ بهم أفرادًا وجماعات: مُلحًّا عليهم بالخير ، دالًّا لهم على طريقه ، وقد بَشَّر وخَوَّف ، ورغَّب ورهَّب ، وصبر وثابَر ، إِنَّ هذه الخاتمةَ بمقدماتها الطويلةِ جاء بيانُها فى سورة العنكبُوت فى عبارات موجَزةٍ وألفاظٍ قليلةٍ كثيرةِ الدلالاتِ ، عظيمةِ الإيحاء ، غنيةٍ بالمعانى والعبر قويةِ التأثير ، مع الإعجازِ وروعةِ البيان ، وهيَّا نتدبر:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ۞ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٤، ١٥]

تأمَّل القصةَ من بدايتها ومراحلها وخاتمتها مُعَبِّرًا عنها بأفعال قليلة فى: **أَرْسَلْنَا نُوحًا ، فَلَبِثَ فِيهِمْ ، فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ، فَأَنْجَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَاهَا آيَةً**. فالبدايةُ: إرسالُه إلى قومه أى: إلى مَن يَعرِفون سيرتَه فيهم ، وطهارتَه ، وتمامَ عقله ، وكمالَ خُلقه وأدبه ، وهو أشفقُ الناسِ عليهم ، وإنَّ البُعْدَ الزمانىَّ للقصة عُبِّرَ عنه بسبْع كلمات هى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلا خَمْسِينَ عَامًا﴾ تنطوى على حوادثَ جَمَّةٍ ، وحركةٍ دائبةٍ وحالاتٍ نفسيةٍ وشعوريةٍ متفاوتة ، وعلى صبرٍ ومجاهدةٍ فى جانب ، وجمودٍ وتعنُّتٍ وضيقِ أُفق فى جانبٍ آخرَ ، كلُّ هذا وغيرُه تَمَّ على مَدًى يَزيدُ على خمسةَ عشرَ جيلا بمقاييسِ أعمارِ أمتنا ، ونوحٌ عليه السلام يسعى إليهم بالنصح ، وينيرُ لهم الطريقَ بالبرهان ، ويضربُ لهم الأمثالَ ، ويَلفتُهم إلى آفاقِ النفسِ والكون ، ويُلِحُّ فى صبرٍ وأدبٍ وحكمةٍ وسعةِ صدرٍ ليلا ونهارًا ، ويومًا بعد يوم ، وأسبوعًا بعد أسبوع ، وشهرًا يليه شهرٌ ، وسنةً بعد سنة ، وقرْنًا بعد قرن ، وهو يقول: يا قومِ ، يا قومِ يا قومِ ﴿اتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ، وهم مع ذلك: فى سكرتهم يَعمهون وفى غفلة ساهون ، آمَنَ القليلُ ، وأعرضَ الجمُّ الغفير ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ولم تنفعهم كثرتُهم ، ولا قوتُهم ، أمَّا نوحٌ ومَن آمن فقد كانوا فى حفْظِ اللهِ وسطَ الموجِ الهادر: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ . ثم لفَتت الآيةُ ذوى العقولِ إلى تأمُّلِ العبرةِ فى هذا الحادثِ العظيمِ للاستدلال على عظمةِ الخالقِ وكمالِ قدرته ، ووحدانيته ، وتدبيره شئونَ خَلْقِه

لاشريكَ له ، ولا مشيرَ ، ولا وزيرَ ، ولا ولدَ ، ولا نِدَّ: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

لقد قُدِّمت لنا القصةُ فى خمسة أفعالٍ تَحكِى حوادثَ مضَت ، وكلُّ فِعْلٍ منها غَنِىٌّ بالدلالات والأحوالِ والعبرِ التى سِيق لها مع التتابع: الإرسالُ المكثُ والدعوةُ ، ابتلاعُ الطوفانِ للجبابرة والمتكبِّرين وأتباعهم ، الإنجاءُ وصورةُ السفينةِ وهى تندفعُ بأصحابها مَحْفوفةً بالعناية ثم زُبْدةُ القصةِ فى جعلها آيةً وبرهانًا ماثلا للعِيان فى كل زمانٍ للزجْر عن الفسادِ والشرِّ.

لقد عَصَوا الناصحَ الأمين ، وخُدِعوا بمَكْر المضلِّين ، فلم يملكْ نوحٌ إلا أن يقول: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١]

أى: إنهم داموا على عصيانى ، ومخالفتى فيما أمرتُهم به ، مع ما بالغتُ فى إرشادهم بالعظة والتذكيرِ والإرشاد ، واستمروا على اتباع رؤسائهم لوجاهتهم فى قومهم وكثرةِ أموالِهم وأعوانِهم وأولادِهم ، فكان اغترارُهم سببًا فى خَسارهم وهلاكهم.

إن الدنيا فى جنْب الآخرةِ كالعدم فمن انتفع بالمال والولدِ فى الدنيا وأعرض عن طاعة ربِّه وشُكرِه خَسِر سعادةَ الآخرة ، وصار كمن أكَل لقمةً مسمومةً من الحلْوى فهلك ، فإن تلك اللقمةَ فى حقِّه هلاكٌ محْض وخَسارٌ عظيم إذ لا عبرةَ لانتفاعه بها فى جنب ما أدَّت إليه.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢]

والمكرُ: الحيلةُ الخفيَّةُ ، وقيل: هو غايةُ الحيلة ، ومعنى مكرِهم الكُبَّار: احتيالُهم فى منْع الناس عن الدين ، وتحريشُهم على أذيَّة نوح ولـمَّا كان التوحيدُ أعظمَ المراتب ، كان المنعُ منه ، والأمرُ بالشرك أعظمَ

الكبائر ، ولذا وصفَه اللهُ بكونه مكرًا كُبَّارا: أى مكرًا بلَغ الغايةَ فى العِظَم ، وهو أبلغُ من الكبير ، ومن مكرِهم الفظيعِ قولُهم للدهماء المتعلقةِ نفوسُهم بالأصنام: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]

وهذه الخمسةُ أكبرُ أصنامِهم فَخَصُّوها بالذكْر بعد قولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ فهو من عطْف الخاصِّ على العامِّ مع اندراجِها فى مجموع الآلهةِ التى عبدوها من دون الله ، وقيل: كانت هذه الخمسةُ أسماءً لرجالٍ صالحين بَيْن آدمَ ونوح ، فقال إبليسُ للناس: لو صَوَّرتُم صُورَهم فكنتم تنظرون إليهم ، ففعلوا ، فلمَّا مات أولئك ، ومع تراخِى الزمن قال اللَّعينُ لَمَن بعدهم: إنهم كانوا يعبدون هذه الصورَ ، فعبدوها ، ثم صارت سُنَّةً فى العرب فى جاهليتهم.

وإن مَن يعودُ إلى قصةِ ظهورِ الوثنيةِ ومفاسدِها لَيُدرِكُ حِكمةَ الإسلام فى تحريم: إقامةِ الصُّورِ ، ونصْبِ التماثيل ، وتشييدِ القبورِ وتجصيصِها على رِمَمِ الموتى ، وفى حديث على بنِ أبى طالب: أرسلنى رسولُ اللهﷺ وقال لى: «لا تَدَعْ صنمًا إلَّا طمستَه ، ولا قبرًا إلَّا سوَّيْتَه».

لقد سَدَّ الإسلامُ الذريعةَ إلى التوسُّل بالأصنام ، وبمواثلِ القبورِ وأصحابِها بتحريم ذلك خشيةَ أن تَسْتَرْهِبَ ضعفاءَ العقول ، وتَسْتهْوِيَهم وحتى لا ينزلقوا إلى الوثنية على شكْلٍ أو آخرَ.

فما أعظمَ الإسلامَ! وما أعْدَلَه فيما شرَع وحكَمَ! وما أوضح نَهْجَه فيما خَطَّ لنا من الهداية ورَسَمه!.

ثم أخبر نوحٌ أن هذه الأصنامَ أضلَّت خلقًا كثيرًا فقال:

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: ٢٤]

وهذا فى مَعْرِض شكواه وأسفه على حال قومه ، أو: وقد أضلَّ هؤلاء الرؤساءُ خلقًا كثيرًا ، وأصلُ الظُّلمِ وضعُ الشىءِ فى غير موضعه وأسوأُ الظلمِ وأبشعُه وأعظمُه أن يوضَعَ المخلوقُ موضعَ الخالقِ الفردِ الصمدِ فَيُعبدَ عبادتَه ، وفاعلُ ذلك الـمُصرُّ عليه حقيقٌ بأن يُدْعَى عليه بالهلاك والضياعِ ، ولذا قال فى دعائه: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ أى الظالمين بالإشراك لأن الشرك ظلمٌ عظيم ، أى :لا تَزِدْهم إلا ضياعًا وهلاكا ، ويمكن أن يقال: إن نوحًا بعد أن أُوحِىَ إليه بأنه لن يؤمنَ من قومك إلا مَن قد آمن ، يَئِس من إيمان الـمُصرِّين المتجبِّرين ، فدعا عليهم بزيادة الغَىِّ والضلال ، ليزدادوا عقوبةً بإيغالهم فى الكفر والمعاصى جزاءَ سوءِ اختيارهم ، وما قَدَّمت أيديهم ، وهذا الثباتُ على الظلم هو سببُ إحاطةِ الطوفانِ بهم فلم يَفلِتْ من الهلاك أحدٌ منهم ، وفى سورة نوح قُرِن العقابُ الدنيوىُّ والأخروىُّ بأسبابه فى إيجازٍ ودقةٍ وإعجاز: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ [نوح: ٢٥]

أى فى الدنيا ، والإغراقُ يُفَسِّرُ لنا: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ أمَّا فى الآخرة ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ وتنكيرُ النار لتعظيمها وتهويلها ، والفاءُ للترتيب والتعقيب ، وفيه إشارةٌ لعذاب القبرِ الذى وقَع عقيبَ الإغراق ، قال الضحاك: إنهم كانوا يَغْرَقُون من جانب أى بالأبدان ، ويُحْرَقون من جانبٍ أى بالأرواح ، فَجَمَعوا بين الماء والنار ، أو المرادُ: عذابُ جهنَّمَ والتعقيبُ لتنزيله منزلةَ الـمُتعقِّب لإغراقهم ولتحقُّقه لا محالة.

وجاءتهم عقوبةُ اللهِ فلم ينفعهم مالٌ ولا أنصار: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]

وفيه تعريضٌ باتخاذهم آلهةً من دون الله ، وتهكُّمٌ بهم ، وفى الآية

الكريمة إشعارٌ بإجابة دعوة نوح ، وتسليةٌ لرسول الله محمدﷺ وأصحابه وتخويفٌ للعاصى من العذاب وأسبابه ، فالخطيئةُ والإصرارُ عليها تُودِى بصاحبها ، والخطايا من أعظم الأسبابِ لما يقعُ للناس من القحط والطوفانِ ، والزلازلِ ، والفتن التى تُسبِّب الدمارَ والخراب.

وفى عصرنا الحاضرِ من العبرِ الماثلة أمَام عيوننا وحواسِّنا ما يشهدُ بإعجاز القرآنِ وصدقِ النبى محمدﷺ فيما بَلَّغ عن ربِّه ، وفى قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيٓئَاتِهِم أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]

مَثَلٌ حَىٌّ قائمٌ متجدِّدٌ ولكل قومٍ بحسب حالِهم ، وبحسب حكمةِ اللهِ عز وجلَّ وتدبيرِه لهم ، ولكنَّ العلةَ عامةٌ وهى الانغماسُ فى الخطيئة ، ورأسُ الخطيئةِ وأعظمُها الكفرُ بالله ، ونسيانُ حقوقِه ، والغفلةُ عن عظمته وانتقامِه من العصاة ، وعدمُ الخوفِ منه سبحانه ﴿مِمَّا خَطِيٓئَاتِهِم﴾ بسبب هذا يكونُ أخذُ الطوفان ، والصيحةُ ، والدمدمةُ ، والإغراقُ فى البحر ، وانشقاقُ الأرضِ وابتلاعُها مَن فَوقها ، والريحُ الصَّرْصَر ، وإنزالُ الجندِ من السماء ، كلُّ قومٍ بحسب ما اقتضته الحكمةُ والإرادةُ الإلهيةُ ، وهو سبحانه العادلُ فى حُكمه ، وإذا نزل المقدورُ دُكَّت أعناقُ المتجبِّرين ، وتخاذلت قُوى المتعنِّتين وتحيَّرَ المغرورون ، لا يَدرون ماذا يفعلون.

وفى حياتنا عبرٌ وعبرٌ ، وإن التلفازَ فى عصرنا ينقلُ للناس من النُّذر والمشاهدِ التى لا طاقةَ للبشر مهما أُوتوا من القوة والتقدمِ العقلىِّ والعسكرى على دفعها ودرء شدائدها. وما تسببُه من الخراب والدمارِ ما فيه عظةٌ لذوى البصائر والنُّهى ، هذا إلى الفتن التى عَمَّت وطَمَّت فى

كثير من جوانبِ الأرضِ مما أفقد الملايينَ الأمنَ والاستقرارَ ، وانتشر بسببه الجوعُ والمآسى التى تُذيب القلب ، ووراء كلِّ هذا: الغفلةُ عن الله والانهماكُ فى المعاصى ، والانحرافُ عن الصراط المستقيم الذى لا يَضِلُّ سالكه ، ولا يهتدى تاركُه ، صراطِ الله العزيز الحميد.

لقد أهلك الله المتعنتين والمتجبرين ، وقد أجاب اللهُ دعاءَ رسوله نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]

أى: أحدًا يدورُ فى الأرض فيذهبُ ويجىءُ ، ثم بَيَّن وجْهَ دعائه عليهم فقال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]

ودعاءُ نوحٍ كان بالأمارات والشواهدِ حيث جَرَّبهم قريبًا من ألف سنة فلم يظهر منهم ولا من أنسالهم إلا الكُفْر والجحود ، وكما جاء فى المَثَل: «لا تَلِدُ الحيةُ إلا الحية» وهذا فى الأغلب ، وفى المَثَل على الغالبِ أيضًا: إذا طاب أصلُ المرءِ طابتْ فروعُه ، ونحوه قولهم: الولدُ سِرُّ أبيه لأنه يأخذُ من أوصاف أبيه وطباعه.

واعْلَمْ أنَّه لا يجوزُ أن يُدْعَى على كافرٍ مُعيَّن ، لأنَّا لا نعلمُ خاتمتَه ويجوز الدعاءُ على الكفار والفجَّار مطلقًا.

ثم توجه نوحٌ إلى الله عز وجل بالدعاء للمؤمنين والمؤمنات: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]

أى من لدن آدمَ إلى يوم القيامة ، وقد خَصَّ أولا مَن يتصلُ به نسبًا ودينًا ، لأنهم أولى وأحقُّ بدعائه ، ثم عَمَّ المؤمنين والمؤمناتِ ، ثم ألحَّ

على الله بالدعاء على الكافرين المصرِّين: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [سورة نوح: ٢٨]
أى: إلا هلاكًا

إن لنا فى قصة نوحٍ عبرًا وعظاتٍ بالغاتٍ ، وإن أسلوبَه فى الدعوة والتبصير لَمِن خير النماذجِ التى يَحتذيها الدعاةُ والوعاظُ ، والمرشدون وأهلُ الإيمان فى كل زمانٍ ، فطوبى لمَن وُعِظ فاتَّعظ.

❄ ❄ ❄

حديث شريف:

«حُجِبَت النارُ بالشهوات ، وحُجِبَت الجنةُ بالمكاره»

[رواه أبو هريرة وأخرجه البخارى]

٢٣٢- أ- لا تثريب عليكم اليوم

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

[سورة يوسف: ٩٢]

عبارةٌ قرآنيةٌ تحملُ مبادئَ خُلقيةً عاليةً ، وتُشيرُ إلى موقفٍ إنسانيٍّ كريمٍ يَنبِضُ بالنُّبل ، والتَّسامى عن الصغائر ، وصفاءِ النفس ، وحُسنِ الخُلقِ ، وإحلالِ المحبَّةِ والمودَّةِ مَحلَّ أسبابِ التنازُعِ والخصومة ، إنه موقفٌ تاريخىٌّ بكل معانِى هذه الكلمةِ ، وتَربَوِىٌّ ، وإرشادىٌّ ، وقُل ما شئتَ من جوامعِ مكارمِ الأخلاق ، ومحاسنِ الآداب ، ومن التربية العاليةِ التى تُنبِئُ عن نفسها فى أصعبِ المواقفِ حرجًا ، وفى أشدِّ المواطنِ امتحانًا للنفوس.

وهل هناك موقفٌ أدقُّ من الفُرصة التى تُواتيكَ لتنتقمَ لنفسك وقد صِرتَ فى الموقع الذى يُمكِّنُك من هذا ، وَممَّن لم يَرْعَ فيك إلا ولا ذمَّة ولا رَحِمَكَ صَغِيرًا ، ولا أَشْفق عليك وأنت مُلقًى فى صحراءَ مُهلكةٍ وعلى حافَّةِ هاويةٍ بِجِسْمٍ نَحيلٍ ، وذِراعٍ ضعيف ، ونظراتٍ زائغةٍ لا تَدرى ماذا يَجرى؟ ولا ما المصير؟.

وقد جاءت الفرصةُ ليوسفَ عليه السلامُ تَسْعَى على قدميها وهو فى موقعٍ يَملكُ فيه الأمرَ والنهْىَ ، والقبولَ والرفْضَ ، ولكنَّه كان دومًا مع إخوته رحيمًا عطوفًا يتودَّدُ إليهم ويُكرِمُهم فى كلِّ وِفادةٍ ، وهم لا يَشعرون أنه أخوهم الذى انتزعُوه من أحضانِ الحنانِ والرحمةِ فى دارِ أُمِّه وأبيه بالحِيلة والخِداعِ ، جهلا منهم وسَفَهًا لِيُلْقُوه فى أَتونِ الصحراءِ حيث

الذئابُ والوحوشُ الضاريةُ وأسبابُ الهلاكِ والضَّياعِ ماثلةٌ ، وقد أَلْقَوه وتركُوه ، وهو لا يملكُ حيلةً ، ولا يَقْوَى على عمل يُخلِّصُه ، ولا حولَ له ولا قُدرة.

جاءت الفرصةُ يوسفَ ليقابلَ السيئةَ بالسيئة..

جاءت الفرصةُ يوسفَ ليُشيرَ بما يَراه من الجزاء العادل..

ولكنه فى هذا الموقف هزَّ الشعورَ بعبارته القويةِ الأخَّاذة التى تَحْمِلُ كلَّ معانى الخيرِ والبِرِّ والرحمةِ والإشفاق «**لاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**» أى: لا لَوْمَ ولا توبيخَ ولا مؤاخذةَ عليكم اليوم ، وأضاف بَعد العفْوِ الدعاءَ بِستْرِ عُيوبِهم والتجاوزِ عن ذنوبهم متوسِّلا إلى الله برحمته أن يغفرَ لهم ويَرْحمَهم «**يَغْفِرُ اللهُ لَكُم وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين**».

اللهُ أكبر... هذا هو الخلُقُ الكريمُ ، اللائقُ بِنبىٍّ كريم ، وهو المنحَدِرُ من أصلابٍ طاهرة ، الـمُهَيَّأُ لحَمْل رسالةٍ كريمةٍ ، لهداية الناسِ وتربيتِهم وتنقيتِهم من شوائب الشركِ والإلحادِ والحسدِ والبغضاءِ والشرِّ بجميع صُنوفِه وألوانه.

أخرجوه من بلده ومن داره بالحيلة لحاجةٍ فى نفوسٍ كانت مريضة ولحكمةٍ عاليةٍ ، لنا فيها عبرةٌ وعبرةٌ.

وفى آخرِ الزمانِ أَخْرَج أهلُ مكةَ النبىَّ محمداًﷺ من داره وبلده واضطروه للهجرة بعد صبرٍ على الأذَى والشرِّ امتدَّ على مدَى عشرِ سنواتٍ أو تَزيد ، وأُخْرِجَ عشراتٌ من المؤمنين الصالحين والمؤمناتِ الصالحاتِ من مكةَ المكرمةِ ، وقد تَركوا وراءَهم أموالَهم ، ومواطنَهم القريبةَ من قلوبهم وذكرياتِهم ، مع ما لَحِقَهم من الأذَى والتعذيبِ النفسىِّ والجسدى.

ومضت الأيامُ ، وعاد الرسولُ محمدٌﷺ إلى مكةَ المكرمةِ ، وفُتِحت

له أبوابُها ، وأظفره اللهُ بأهلها ، وطاف بالكعبة دون أن يَجرُؤَ أحدٌ منهم على إلحاق أدْنى أذًى به ، بل كان الجميعُ ينتظرُ حُكْمَه فيهم ، وقد حيزَت مكةُ إلى دولة الإسلام الناشئة ، وأصبحت منذ اليوم خاضعةً لأحكامه ، ويستطيعُ القائدُ العظيمُ العادلﷺ أن يُنفِّذَ فى أهل مكةَ القضاءَ العادلَ جزاءَ ما قدَّمت أيديهم من جرائمَ ، وفى الإسلام وجميع الشرائع القصاصُ مشروعٌ ، ولكنَّ الإسلامَ جَعل الإحسانَ مرتبةً أعلى لمن قدرَ على الانتقام لنفسه ثم عَفا ، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]

والعدلُ: أن تنتصفَ لنفسك ، والإحسانُ أن تعفوَ وتصفحَ ، وتُحْسِنَ إلى مَن أساء إليك ، وهذا من خُلُقِ رسولِ اللهﷺ ، ما انتقم وما غَضِب لنفسه قَط إلا أن تُنْتهكَ حُرمةٌ من حُرماتِ اللهِ عزَّ وجل ، وتَعالَوا بنا نراهﷺ بعد أن طاف بالكعبة يومَ الفتحِ ، ووقف فى هَالةٍ من الوقَار والسكينةِ والتواضُعِ لله عزَّ وجل شكرًا على هذه النعمةِ العظيمة.. نعمةِ الفتحِ المُبين ، لقد أخذ بعُضَادَتَى بابِ الكعبةِ وقال: «الحمدُ لله الذى صَدَق وعدَه ، ونَصر عبدَه ، وهَزَم الأحزابَ وحْدَه» ثم قال: «ما تظنُّون أنى فاعلٌ بكم يا معشرَ قريش؟ قالوا: خيرًا ، أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريم وقد قَدَرْتَ ، فقال: وأنا أقولُ كما قال أخى يوسفَ: ﴿لاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ اذهبوا فأنتم الطُّلقاءُ»

فقال عمرُ: فَفضْتُ عَرَقًا من الحياء من قولِ رسولِ اللهﷺ ، وذلك أنِّى كنتُ قد قُلْتُ لهم حين دخلتُ مكةَ: اليومَ نتقمُ منكم ونفعلُ ، فلمَّا قال رسولُ اللهﷺ ذلك استحييتُ من قولى. «قرطبى».

تَمثَّلﷺ بما جاء على لسان أخيه يوسفَ عليهما أفضلُ الصلاةِ والسلامِ مِن رَفْعِ اللَّومِ والحَرَجِ والتوبيخِ والتقريعِ عنهم ، وكان أهلُ مكةَ وعتاةُ المشركين فيها لا يَدرون ما هو صانعٌ بهم؟ وقد استعادوا إلى الذاكرة صورَ إجرامِهم معه ومع أصحابِه رضوانُ اللهِ عليهم ، ولكنَّهﷺ أصدر هذا العفوَ الكريمَ عنهم فى موقفٍ من أعظم المواقف ، وفى أقدسِ البقاع ، وفى يومٍ من الأيام المباركة ، يومِ الفتحِ المبين ، فَتْحِ مكةَ المكرمةِ فى العام الثامن من الهجرة المباركة.

إن ما جاء على لسان يوسفَ صار مثلا سائرًا يُضْرَبُ فى الأحوال المشابهة ، ويتضمنُ غايةَ التسامحِ والتجاوزِ فيما يتصلُ بالحق الشخصىِّ فمَن عفا وأَصلَح فأَجْرُه على الله عز وجل ، وقد أُمر الحبيبﷺ والمؤمنون بالتحلِّى بهذا الخلقِ العالى ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

أى: اعفُ عَمَّن ظلَمك ، وصِلْ مَن قطَعَك ، وأَعْطِ مَن حَرَمَك ، وأن تُحسن إلى مَن أساء إليك على حدِّ التوجيه القرآنىِّ من سورة فصلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [الآية: ٣٤]

ونحن نتعلَّمُ من رُسل اللهِ الكرام ، ونتربى على موائدِ أدبِهم ، ونتأسَّى بهم إذا أردنا لأنفسنا حياةً مطمئنةً مُستقرةً ، خاليةً من المنغِّصات التى تَجْلِبُها العداواتُ ، وإن العاقلَ هو مَن يبدأُ بانتزاع السخائمِ من النفوس ويسعى إلى إزالةِ الحَسَدِ من القلوب ، ولا يكون عونًا للشيطان بمشاركة ضعافِ النفوسِ فى إشعال نيرانِ العداوة ، وإن النار لا تُطفئُها النار وإنما

يُطفئُها ماءُ كَرَمِ الخُلُقِ وسخاءُ النفسِ وسماحةُ القلب.

حَقًّا: إِن يوسفَ كان أخًا كريمًا وهو أصغرُهم سِنًّا، ولكنه أعظمُهم نَفْسًا، وأوسطُهم عقلا، وأجمُّهم أدبًا وكرمًا.

وكان الرسول ﷺ أخًا كريمًا كما قال أهلُ مكة وهم يعلمونه كذلك فى أشدِّ أوقاتِهم عداوةً له، ولكنه الحسدُ والكبرُ، فكان ﷺ فى نظرته إِلى ما لَحِقَه فى نفسه وفى نفوس أصحابه مِنْ أذاهم كان أرفعَ من الضغائن، وأعلى وأسمى من الصغائرِ الإِنسانيةِ، وفى لحظةٍ واحدة أطفأَ كلَّ نيرانِ الخوفِ والتوجُّسِ والبغضاءِ بكلمةِ التسامحِ التى تحملُ كلَّ معانى النُّبلِ والكرم، وصارت مثلا يُذَكِّرُ الناسَ بهذا السموِّ وهذا الأدبِ العالى.

فما المعانى التى تضمَّنتها هذه الكلمةُ؟ وما موقعُها فى سياق قصةِ يوسفَ مع أقربِ الناسِ إليه وأعزِّهم عليه، ولكنَّ الشيطان غلَبهم فى ساعةٍ من ساعاتِ ضعفِ النفسِ الأمارةِ بالسوء؟

«لا تَثْرِيبَ» لا: نافيةٌ للجنس، و**«تثريبَ»** اسمُها مبنىٌّ على الفتْح فى مَحلِّ نَصْب، والخبرُ مُتَعلِّقُ الجارِّ والمجرور **«عَلَيْكُم»** أى: لا تثريبَ ولالومَ ولا توبيخَ واقعٌ أو كائنٌ عليكم اليوم.

والتثريبُ: أصلُه من الثَّرْب وهو شَحْمٌ رقيقٌ فى الجوْف وعلى الكَرِش والأمعاء(١)، وصيغةُ التفعيل للسَّلْب أى إزالةِ الثَّرْب واستُعير لِلَّوم والتوبيخِ، فمعنى التثريب: إِزالةُ الثَّرْبِ وهو الشحمُ الذى هو غاشيةُ

---

(١) وتقول: أثرب الكبش ونحوه: زاد شحمُه، وأثرب فلانًا وثَربه لامه وعيره بذنبه على سبيل الاستعارة كأنه يُذيب عِرضه ويذهب ببهاء وجهه.

الكَرِشِ مِثْل كلمة التجليد تَدلُّ على إزالة الجِلْد ، قال الزمخشرىُّ: لأنه إذا ذَهب ـ الشحمُ ـ كان ذلك غايةَ الهُزالِ والعَجف الذى ليس بعده ، فَضرُب مثلا للتقريع الذى يُمزِّقُ الأعراض ، ويذهبُ بماء الوجوهِ ، لأنه بإزالة الشحمِ يبدو الهزالُ وما لا يُرضِى ، كما أنه باللَّوم تظهرُ العيوبُ فالجامعُ بينهما طَرَيَانُ النقصِ بعد الكمالِ وإزالةُ ما به الكمالُ والجمالُ[1].

فإذا نُفى التثريبُ فقد نُفِى كُلُّ سببٍ للإيلام والتوبيخِ ، فهى عبارةٌ موجَزةٌ بليغةٌ قويةُ الدلالةِ فى موقعها من المواقفِ والكلامِ ، وكما قال سفيانُ الثورىُّ وغيرُه ، والمعنى: لا تَعْيِيرَ ولا توبيخَ ولا لوْمَ عليكم اليوم وفسَّره الزجَّاجُ بما يلزمُ من معناه فقال: المعنى لا إفسادَ لِمَا بينى وبينكم من الحُرمة وحقِّ الأُخوَّة ، ولكم عندى العفوُ والصفحُ ، وقال: إن التثريبَ هو الإفسادُ فى لُغَةِ أهلِ الحجاز.

ولنا عودةٌ مع يوسفَ وإخوتِه:

❄ ❄ ❄

(١) فقد سُمِّى التقريع تثريبًا تشبيهًا له بالتثريب فى اشتمال كلٍّ منهما على معنى التمزيق، فالتقريعُ يمزقُ العِرضَ الذى هو أمرٌ معنوىّ شبه بتمزيق الشحْم الذى هو أمرٌ حِسِّى.

٢٣٣-ب- آياتٌ وعِبرٌ للسائلين

قال الله تعالى من سورة يوسف:

﴿لَقَد كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّآئِلِين﴾ [الآية: ٧]

وما أعظمَها من آيات! وما أجَلَّها من براهين! حقًّا: لقد كان فى قصة يوسفَ مع إخوتِه العشرةِ علاماتٌ عظيمةُ الشأنِ، دالَّةٌ على قدرة الله القاهرة، وعلى كمال حكمته، وكمالِ تدبيرِه، هذه العِبَرُ والدلالاتُ تَظْهرُ لكل مَن تدبَّرَ هذه القصةَ، واستقصى عِبَرَها بالسؤالِ والتفهُّمِ والتأمُّلِ، وجالَ بفكْرِه فيها، وأدرك ما فيها من الحِكَم، والإرشادِ والتوجيهِ، والتربيةِ والتأديب.

لقد بدأت عجائبُ هذه القصة برُؤيا الغلامِ الصغيرِ الذى لم يكن قد اشتدَّ عودُه، ولم يَقْوَ ساعداه بعْدُ، وذهَب الغلامُ فى أدب وحياء إلى أبيه يَقصُّ عليه رؤياه، ويلتمسُ عنده تعبيرَها وتفسيرَها: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِين﴾ [يوسف: ٤]

إنى رأيتُ فى المنام هذا العددَ من الكواكب والشمسَ والقمرَ ساجدين لى سجودَ تحيَّةٍ وتكريم. وأدرك الشيخُ الوقورُ مَغْزَى الرؤيا ومرماها بما عَلَّمَه ربُّه ووهبَه من الحكمة، ولَمح فيها بدايةً لأمرٍ يقعُ فى بيت يعقوبَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريم، وقد مَنَّ اللهُ عليه بيوسفَ الكريمِ

المنحدرِ من أصلابٍ طاهرة: يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهم جميعًا أفضلُ الصلاةِ وأتمُّ التسليم ، فقال الشيخُ بفطانةِ النبيِّ ، وحنانِ الأُبوة: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]

لقد عَرَف يعقوبُ من هذه الرؤيا أنَّ يوسفَ يُبلِّغه اللهُ تعالى مبلغًا جليلا من الحكمة ، ويَصطفيه للنبوة ، ويُنعمُ عليه بشرَفِ الدارين ، كما أنعم على آبائه الأصفياء ، فقال له: لا تُخبرْ إخوتَك بهذه الرؤيا ، حتى لا يُفسدَ الحسدُ عليهم قلوبَهم ، وحتى لا ينقلبَ الأمرُ إلى معاناةِ مشاقَّ ومقاساةِ أحْزانٍ للابن الصغير الرقيقِ الحاشيةِ الذى صار ألصقَ إخوته بقلبِ أبيه ، وكلُّهم أحبَّاؤُه ، وفلذاتُ كَبِده ، إنه يَخشى عليه الكيْدَ الخفيَّ عن فَهْمه ، وما لا يَقْدرُ على مُدافعته إذا انقلب الحسدُ فى الصدْر إلى غُولٍ لا يعرفُ الرحمة ، ولا يَرعى المودَّة ، وإن إبليسَ اللعينَ يَسعى لإفساد القلوب لأنه عدوٌّ ظاهرُ العَداوةِ للإنسان ، لا يريدُ لجماعةِ التئامَ شَمْلٍ ، ولا لأُسرةٍ هَناءةً ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[يوسف: ٥]

ثم أخذ يعقوبُ يُبَيِّنُ لولده ما فَهِمه من تعبيرِ رُؤياه ، وما شامه فيه من الخير العميمِ بإذن مولاه ، فقال له؛ وهكذا: مِثْلُ اصطفائك واختيارِك من بين إخوتك لهذه الرؤيا العظيمةِ يَصطفيك ربُّك ويختارُك لِمَا هو أعظمُ منها كالنُّبوة ، وتَعليمك دلائلَ التوحيد ، وأحاديثَ الأممِ والكتبِ وتأويلَ الرُّؤيا وتفسيرَها ، ولنسمع على لسان يعقوبَ مستبشرًا:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [يوسف:٦]

وقد شَبَّهَ إتمامَ النعمة على يوسفَ بإتمامها على جَدَّيْه. وهى نعمةُ الرسالةِ والنبوةِ والعِصْمَةُ مِمَّا يَعْصِم اللهُ منه أنبياءَه ورسلَه: أى: ويتمُّ نعمتَه عليك إتمامًا كإتمامِ نعمته على أبويْك من قبلِ هذا الوقت، فقد أَتَمَّها على إبراهيمَ باتخاذه خليلا، وإنجائه من النار، ومَن ذَبْح الولد وأَتَمَّها على إسحاقَ: بإخراج الأنبياءِ من صُلبه، ولله كمالُ العلم وكمالُ الحكمة، يَعلمُ مَن يَحقُّ له الاجتباء، ولا يُتمُّ نعمتَه إلا على مَن يَستَحِقُّها، ويفعلُ كلَّ ما يفعلُ على مقتضى الحكمةِ والصواب.

إنَّ يعقوبَ عاش هذه الفترةَ بكلِّ عواطفِ الأبِ الصالحِ مع ولده الصغير جاهدًا فى ألا يأخذَ الحسَدُ طريقَه إلى القلوب الصافيةِ فَيُعكِّرها وإلى النفوس الطيبةِ فيفسدها، إنه يأخذُ بالأسباب لوقاية أبنائه من هذا الداءِ القاتل، والسمِّ الناقعِ وهو الحسدُ: هذا الداءُ الذى أهلك إبليسَ حيث حسَد آدمَ عليه السلام، وبالحسد لُعِنَ وجُعِل شيطانًا رجيمًا، وفى بيت آدمَ حَسَدَ الأخُ أخاه، حَسَد قابيلُ هابيلَ، فتولَّد الحِقْدُ فى قلبه وانفجر الحقدُ بقتْل الأخِ الصالح، وَصُبَّت لعنةُ الله على مَن سَنَّا الكُفْرَ والقَتْل بسبب الحسد، وهما إبليسُ وقابيلُ، ولنسمع ما يقوله أهلُ النار غيظًا منهما: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا ٱللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩]

قيل: هما إبليسُ وقابيلُ حَسَدا وبَدَءا الشرورَ فى الأرض، والشرورُ إلى النار وبئْسَ المصير.

إن الحسدَ يتولَّدُ منه الحقدُ، وإن الحقدَ أصلُ الشرِّ، ومن أضمرَ الشرَّ فى قلبه أنبَت له نباتًا مُرًّا مَذاقُه، نَماؤُه الغيظُ، وثمرتُه الندم.

ولا يكاد يُوجَد الحسدُ إلا لِمَن عَظُمت نعمةُ الله عليه ، فكُلَّما أَتْحفَه اللهُ بتوالِى النِّعم ، ازداد الحاسدون له بالمكروه والنِّقم.

ولهذا نَهى الإسلامُ عن الحَسد ونفَّر منه ، ومَن وجَد فى نفسه شيئًا منه فليكتُمْه ، ولا يُظهرْ شيئًا مِن آثاره على لسانه ولا فى عمله ، ولْيَتَّقِ اللهَ فى محسوده ، ولْيطرُدْ عن نفسه وساوسَ الشيطان ، قال أبو حاتم: العاقلُ إذا خَطَر بباله ضَرْبٌ من الحسد لأخيه أَبْلَغَ المجهودَ فى كِتمانه وتَرَك إبداءَ ما خطَر بباله.

وقال حُميد للحسن: يا أبا سعيد ، هل يحسدُ المؤمنُ؟ قال: ما أنساك بَنى يعقوبَ؟ لا أبالك! حيث حسَدوا يوسفَ ، ولكنْ غُمَّ الحسدَ فى صدْرك ، فإنه لا يضرُّك ، ما لم يَعْدُ لِسانَك ، وتَعْملْ به يدُك.

وعَمَّا كان من إخوة يوسفَ يقول محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ يَسار: لقد اجتمعوا على أمرٍ عظيم: مِن قطيعة الرَّحِم ، وعقوقِ الوالدِ ، وقِلَّة الرأفة بالصغير الضَّرَع[1] الذى لا ذَنْبَ له ، وبالكبير الفانى ذى الحقِّ والحُرمةِ والفضلِ ، وخطرِه عند الله ، مع حقِّ الوالدِ على ولده، ليُفرِّقُوا بينه وبين ابنه ، وحبيبِه على كِبَرِ سِنِّه ، ورِقَّةِ عَظْمه ، مع مكانه مِن الله فيمَن أَحبَّه طفلا صغيرًا - وليُفرِّقوا بينه - وبين أَبيه على ضعْف قُوته وصِغَرِ سِنِّه ، وحاجته إلى لُطف والده ، وسكونِه إليه ، يغفرُ اللهُ لهم وهو أرحمُ الراحمين ، فقد احتملوا إثمًا عظيمًا.

[من ابن كثير ، ورواه ابن أبى حاتم].

أَمَّا سِرُّ هذا الحسدِ وسببُه فقد عَبَّر عنه إخوتُه بقولهم:

---

(١) الضرع: أى الضعيف الذى لم يقترف إثمًا.

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨]

أى: والحالُ أنَّا جماعةٌ قادرون على الحَلِّ والعقْدِ ، أَحقَّاءُ بالمحبَّة ، وما معنى تقريبِ صغيرين ضعيفين واختيارِهما على العشرة الأقوياء؟ إن أبانا بهذا ذَهَب بعيدًا عن طريق العدلِ ذهابًا بَيِّنًا واضحًا:

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]

إنَّ الشيطانَ كان ينتقلُ مع مشاعرِهم خطوةً فخطوة ، ومرحلةً مرحلةً كى تَصِلَ النقمةُ إلى ذروتها ، ويُعَبِّرَ الحسدُ عن نفسه بطريقةٍ غايةٍ فى السوء والقُبح ، ولا أَقْبَحَ بعد الكفرِ من قَتْل نفسٍ مؤمنةٍ بغير حقٍّ ، وقد نطقُوا بهذه الكلمةِ الفظيعةِ بعد أن غَطَّى الحسدُ على الفِكْر والقلبِ، ولم يترك مَنفذًا لرعاية حقِّ الشيخ الكبير ، ولا للرحمة بالصغير ذى القلبِ النقىِّ نقاءً يَفوقُ السحابةَ فى سمائها ، قالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ ولذا رَجَّح العلماءُ أنَّ إخوةَ يوسفَ لم يكونوا أنبياءَ لا قَبْلَ هذه القولةِ الشنعاء ولا بَعْدَها ، إذ ارتكبوا قبل توبتِهم كبيرةَ الحسدِ ، والكذبِ ، ونَوَوْا إهلاكَ النفس الطيبة ، مع ما فى ذلك من عقوقٍ للوالد ، وقطيعةٍ للرحم فهو أخوهم لأبيهم ، وله حقُّ الرعايةِ منهم.

﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أى: صحراءَ مجهولةً مُهلكةً بعيدةً عن العمران يَلقى حتفَه فيها جوعًا أو فى فَمِ سَبُعٍ من السباع.

لقد وَهموا أنّ ذلك يُدْنِيهمْ من قلْب أبيهم ، بعد أن يَغيبَ عن ناظِرَيْه ابنُه الصغيرُ ، ولذا قالوا:

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]

أى: يُقْبِلُ عليكم أبوكم إقبالةً واحدة، لا يَلتفتُ عنكم إلى غيركم والمراد: سلامةُ وخلوصُ مَحبتِه لهم ممَّن يُشاركهم ويُنازِعُهم إيَّاها، وفى التعبير بخلوِّ الوجْهِ كنايةٌ تُصوِّرُ معنى الإقبال القلبىِّ عليهم، لأن الإنسانَ إذا أَقبل على الشئ أقبل عليه بوجْهه، وفيه من الدقة والروعةِ فى تصويرِ ما أرادوه ما فيه، فقد أرادوا أن يتوسَّلوا بوقوع نَظَرِه عليهم دون يوسفَ أن يَفرُغَ لهم من الشُّغل بيوسفَ، فيتسلَّى عنه، ويَتعلَّقَ قلبُه بهم، كما قِيل فى المَثَل الشعبىِّ المتداوَل: البعيدُ عن العَيْن بعيدٌ عن القلب، وقد يُراد بالوجْه الذاتُ مَجازٌ مرسَلٌ من إطلاق جزءِ الشئِ على كُلِّه، لأنه أنسبُ الأجزاءِ للموقف.

بعد أن أبَرز السياقُ ما اعتملَ فى نفوسهم، ودار فى قلوبهم، وما أَبْدَوه من وَهْمهم صلاحَ أمرِهم عند أبيهم بعد إخلاءِ البيتِ من يوسفَ، بحيث لا يَبقى هناك مجالٌ لأَثَرةٍ ولا تَفضيلٍ، اتَّجه المقدورُ إلى غير ما أرادوا تحقيقًا للحكمة، ولتبقَى هذه النفسُ الصالحةُ حتى تُؤتِىَ ثمارَها الطيبةَ المهيَّأةَ لها فى لَوْحِ القدَر، مهما بالغ المخلوقُ فى الكيد وقصْدِ الشرِّ والسوء، وكانت بدايةُ هذا التحوُّلِ إنطاقَ لسانِ أَعْدَلِهم بِحَلٍّ رَأَوْه وسَطًا ويمكنُ أن يحقِّقَ لهم مأربَهم: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠]

والغَيابةُ: ما يُغَيِّبُ الشئَ عن العين، وهو شِبْهُ طَاقٍ فى البئر فوقَ الماء أشبهُ بالكهْف الصغيرِ من أَثَرِ أَكْلِ الماءِ للناحية من الحَوْض أو البئرِ ويُسمَّى: اللَّجَفَ، والسيارةُ هم جماعةُ المسافرين. لقد أراد هذا الأخُ صَرْفَهم عن فِكْرة القتْلِ والإهلاكِ، مع ترجيح بَقاءِ يوسفَ حَيًّا إذا وَرَدَ

إلى البئر مَن يَطْلُب الماءَ ، فإنهم يجدُون فيه مَغنمًا: إمّا للخدمة ، أو للبيعِ والانتفاعِ بثمنه ، فانظُر إلى هذا الموقفِ البالغِ الغايةَ فى الصعوبة على النفس: عشرةٌ من الشباب من صُلْب واحدٍ أرحمُهم بأخيهم الصغيرِ وأرشدُهم يَجِدُ نفسَه فى حالٍ يَقْبلُ فيها أن يكونَ أخوه الصغيرُ الناعمُ الأظفارِ مُلقًى فى غَورِ الجُبِّ وفى مكانٍ منه يُغَيِّبُه عن عَيْن الناظر ، وفى ظلمة ووِحْدةٍ ، وبحيث لا يَقْوَى على الصُّعود بنفسه ، وإذا نَظَر إلى أسفلَ رأى هاويةً وماءً ، وهو فى عُمرِ زَهرةٍ رقيقةٍ نديَّةٍ عَطِرَةٍ جميلةٍ بقلْبٍ ليِّنٍ شفَّاف.

إن المتأمِّلَ بِفِكره وإحْساسه يرى أبعادًا نَفْسِيَّةً توُحِى بدلالاتٍ كثيرة وتؤكِّد أن النفسَ الإنسانيةَ بحاجةٍ دومًا إلى عِصمةِ الدينِ الحقِّ ، والتزامِ إرشادِه وتوجيهه ، والسيرِ فى نوره وإلا هَلَكَتْ وأهلكَتْ.

عِشنا مع مقدِّماتِ المأساة ، وما دار بين الإخوةِ فى اجتماعهم هذا وقد التقطوا من مشورة الأخِ الأوسطِ وسيلةَ احتيالِهم على أبيهم للتفريق بينه وبين ولدِه الحبيب ، فماذا قالوا؟ وماذا فَعَلوا؟.

❄ ❄ ❄

٢٣٤ - ج - إطلالةٌ من نافذةِ نفوسٍ بشريَّة "أخاك أخاك"

جاء فى الحكمة العربية:

أخاك أخاك إِنَّ مَن لا أخَا له　　كساعٍ إِلى الهَيْجا بغيرِ سِلاح

وقد نَسبوا هذا البيتَ لِمسْكين الدارمىِّ ، وفيه يُغْرِى بِلُزوم الأخِ واحترامِه ، والحفاظِ على مودَّته ، وتأكيدِ مَحبَّته ، أى: الْزَمْ أخاك واحفَظ لنفسك سلامةَ قلبِه ، وارْعَ أُخوتَّه ، وأَخلِصْ له ، وَقِف إلى جانبه متعاونًا على الخير ، متعاضِدًا معه ، مسانِدًا له ، لا يُفرِّقُ الحسدُ قلبَيْكُما ، ولا تُفسدُ الأهواءُ نفسيكْما ، فإنَّ خَسارةَ الأخِ عظيمةٌ، وفقدانَ مَحبتِه جسيمةٌ ، وإن فاقدَ الأخِ أشبهُ بِمَن يخرجُ إلى الحرب ولا سلاحَ معه ، فأخوك درعُك عند الهجْمَة ، وستْرُك عند الأزْمَة ، وأولُ مَن يَفْرَحُ لفَرحك ، ويُسَرُّ لسرورك.

وفى الإغراء بلزوم الأخِ وصدقِ المحبةِ له ، والتحذيرِ من وقوعِ الجَفاءِ والتدابرِ بينهما يقول الشاعر:

أخــاك الذى إن تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ　　يُجبْك كما تَبغِى، ويكْفِك مَن يَبْغِى

وإِن تَجفُه يومًا فليس مُـكَافِئًا　　فَيَطْمَعَ ذو التَّزويرِ والوَشْى أَن يُصغِى

فهو ينبِّه إلى مزايا الأُخوةِ الصافيةِ من المُكدِّرات ، ويقول: الزمْ أخاك الذى إِنْ تَطلُبْه عند الشدةِ يبادرْ إلى الإجابة كما تَبغِى وتُحِبّ ، ويكْفِكَ

الذى يُريد ظُلْمَك والبغْىَ عليك ، وينصرُك على مَن يُريدُ الشرَّ بك. وإنك إن جفوتَ أخاك وصرفت قلبَك عنه فلن تجدَ منه النجدةَ عند الشدة ولم يعاملْك بما تستوجبُه ، والجفاءُ يجعلُ أهلَ الزورِ والنميمةِ يطمعون فى الإفساد بينكما ، وإشعالِ نارِ الخلافِ والحقدِ فى قلبيكما بالكلام المُوَشَّى أى المُنمَّقِ المزوَّقِ كأنه السمُّ فى العسل ، فالنمامُ كالحيَّة ليِّنٌ مَسُّها قاتلٌ سمُّها ، وإنَّ جفاءَ القلوبِ يُطْمِعُ الوُشاةَ والمفسدين بين الأحبةِ فى أن يَجِدوا أُذنًا صاغيةً يَصبون فيها سمومَهم وتزويرَهم لتزيين الخلاف.

إن من مقتضيات الأخوة: المحبةَ ، والإخلاصَ ، ورِفْقَ الكبيرِ بالصغير واحترامَ الصغيرِ الكبيرَ ، والتساندَ ، ورعايةَ الحقوق ، وبَذْلَ النصيحة والتوجيهَ لصالح العملِ ، والسعْىَ لدرءِ الشرِّ ، وكفِّ الأذى ، وجلْبِ الخير ، وإصلاحِ الجماعةِ ، مع الحمايةِ والصيانةِ والتعاطُفِ والتراحُم.

إنَّ مولدَ أخٍ جديدٍ يُضيف إلى جماعة الأُسرة قوةً ، ورأيًا ، ووزيرًا أخًا يُخلِصُ النصيحة ، ويكونُ عونًا فى المُلِمَّات ، وساعدًا قويًّا فى الأزمَات ، كما فَعل هارونُ مع أخيه موسى عليهما السلامُ بعد أن اشتدَّ ساعدُه ، وقد لفَتنا القرآنُ العظيمُ إلى أنه عند اللحظة التاريخية الرائعة الحاسمة التفَتَ موسى إلى حاجته لمساندة ومؤازرة أخيه هارونَ وهو يَسْعى إلى الأخْذ بأسباب النجاحِ بإذن الله فقال:

﴿وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۞ هَارُونَ أَخِى ۞ اشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۞ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ۞ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۞ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٩-٣٦]

إنَّ الأخَ نِعمةٌ ، والأخَ الصالحَ نعمةٌ مضاعفةٌ ، وإن تعاوُنَ الإخوةِ

على الخير يَجلِبُ أعظمَ البركاتِ والمنافعِ.

تَأتى هذه المقدمةُ فى هذه الحلقةِ من قصة إخوةِ يوسفَ وموقفِهم العجيبِ منه ، وقد دلَّت أفعالُهم ومساعيهم على خُلوِّ القلوبِ من الرحمة ، وطغيانِ نيرانِ الحقْدِ عليها ، فوقفوا منه موقفَ الـمُبارزِ المتستِّرِ بالحيلة والمكرِ ، وكأنه عدوٌّ مناضل ، ومصارعٌ عنيد ، ومحاربٌ عتيدٌ لا ينكسرُ له عُود ، وهو الغلامُ الذى لم يَقْوَ عودُه ،يعيش بينهم ليِّنَ القلبِ سمْحَ النفس ، صافيًا ، نقيًّا ، طاهرًا ، وكان الجفاءُ من طرَفٍ واحد من إخوته الذين أكلَتْ الغَيْرةُ زهرةَ البرِّ من قلوبهم ، فجفَّتْ وقسَت وسَعت إلى اصطحاب يوسفَ فى رحلة ، مصيرُه فيها لا يعلمُه إلا اللهُ مستحضرين لأبيهم ألفاظًا تستميلُ قلبَه:

﴿قَالُوا يَآ أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُون﴾
[يوسف: ١١]

وكأنهم يقولون: إنك أبونا ، ونحن بَنُوك ، ويوسفُ أخونا؛ وللأُخُوَّة حقوقُها ، ونحن كبارٌ ، وهو فى صُحبتنا ، فكيف تخافُ عليه؟ والأخُ الكبيرُ فى الشفقة مثلُ الأب ، قالوا هذا تمهيدًا لسؤالهم السماحَ له بِصُحبتهم: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾
[يوسف: ١٢]

وإن كلمة: «لَنَاصِحُون» تُوحى بالإخلاص والمحبَّةِ والإشفاقِ ، وكلمة: ﴿لَحَافِظُون﴾ تُوحى بالرعاية ، والحراسة ، والصيانة ، وتوجيهِ العناية، وقد أكَّدوا الكلام بإنَّ الناسخة ، واسميَّة الجملة ، ولامِ الابتداء المؤكِّدة ، لاستمالة الأب ، وبَعْث الثقة فى نفسه.

إن يعقوبَ عليه السلامُ لا يعلمُ الغيبَ ، ولكنْ كان فى نفسه ما فيها

فأبدى لهم شعورَه بالمخاوف:

﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣]

لقد أظهروا الحُبَّ لأخيهم ، وأنهم يرجُون الخيرَ له ، بخروجه معهم ليرتَعَ ، ويلعبَ وهو فى رعايتهم ، فَتُسرُّ نفسُه ، والرتْعُ: يدلُّ على السعى والنشاطِ والاشتراكِ فى الاستباق ، كما يدلُّ على الإفادة من خيرات الوادى بالأكل من فاكهته وثمرِ شجرِه ، ولـمَّا شعروا بمخاوفِ أبيهم عليه سَعَوا إلى إزالتها من نفسه:

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤]

وهم بهذا قصَدوا التنبيهَ إلى أنهم ليسوا بعاجزين ، وفى الوقت نفسه تركوا الأمرَ على الاحتمال ، وكأنَّ لسانَ حالهم يقول: إذا وقع المكروهُ وجدوا آخرَ الأمرِ عُذْرَهم إلى أبيهم إذا ما تحقَّق له عجزُهم ، وكأنهم التقطُوا العُذْرَ من فمه ، فلـمَّا عادوا قالوا له: لقد أكله الذئبُ ونحن عنه غافلون بالاستباق.

يوسف فى رعاية الله:

لقد بعَث اللهُ عز وجل الطمأنينةَ فى قلْب الغلامِ الصغير:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]

وهذا متصلٌ بمحذوف ، أى: فَأَذن له ، وأرسلَه معهم ، فلمَّا ذهبوا به فَعلوا به من الأذى ما فَعلوا ، فقد ضربوه ، وبكَّتوه على رؤياه

وقالوا: يا صاحبَ الرؤيا الكاذبةِ ، أين الكواكبُ الذين رأيتَهم لك ساجدين حتى يُخَلِّصوك من أيدينا اليوم؟ وكان يوسفُ يَبكى ، ويُنادى ياأَبتاه ، ما أسرعَ ما نسُوا عَهْدَك ، وضَيَّعوا وصيتَك ، لو تعلمُ ما يُصْنَعُ بابنك؟.

ثم عزَم الإِخوةُ على إِلقائه فى الجُب ، ونزعوا قميصَه لمَا عَزَمُوا عليه من تلطيخه بالدم الكَذِبِ ، احتيالا لأبيه ، وكان الغلامُ يتودَّدُ إليهم ليردُّوا عليه قميصَه كى يتوارى به فى حياته ، ويكونَ كَفنَه بعد مماته فلم يفعلوا. . . قَست القلوب ، فكانت كالحجارة أو أشدَّ قسوة.

وفى الجُبِّ كان يوسفُ عظيمَ الثقةِ فى الله ، وقد استقرَّ فى يقينه أنَّ ربَّه سيجعلُ له من هذا الضيقِ فرجًا ، ومن هذه الشدة مَخرجًا حسنًا ومن هذه المَهْلكة نجاحًا وصلاحَ حالٍ ، وقد أدرك أنه سيَلْقَى إِخوتَه وهم لا يعرفونه لِعلُوِّ شأنه ، ولا يَشْعُرون أنه أخوهم يوسفُ لكبرياء سلطانه وتغيُّرِ حاله عن أوهامهم.

وفى الجُب كان سلاحُه الدعاءَ والتضرعَ: **اللهمَّ كاشفَ كلِّ كُرْبةٍ ، ويا مجيبَ كلِّ دعوةٍ ، ويا جابرَ كلِّ كَسير ، ويا مؤنسَ كلِّ وحيد ، لا إله إلا انت سبحانك ، اسألُك ان تجعلَ لى فرَجًا ومَخرجًا ، وان تقذِفَ حُبَّك فى قلبى ، وان تحفظَنى وترحمَنى ، يا أرحمَ الرَّاحمين**[1].

وألحَّ يوسفُ بالدعاء ، وكان عظيمَ الرجاءِ فى كشْف الغُمَّة ، وإزالةِ الكُربة ، وكان جبريلُ عليه السلامُ يبعثُ فى نفسه كلَّ أسبابِ الطمأنينةِ والسكينةِ بإِذن ربِّه.

---

(١) جاء فى القرطبى أن جبريل عليه السلام علَّمه هذا الدعاء ، وفيه توسُّل إلى الله عزَّ وجل بوحدانيته وتنزيهه وبرحمته ، وله وقْعٌ فى القلب والنفس.

وفى المثَل الحكيم:

وإذا العنايةُ لاحظتْك عُيونُها نَمْ فالمخاوفُ كلُّهن أمَان

وكان قلبُ يوسفَ مطمئنًّا بفضل اللهِ وإحسانه.

ولاندرى: ماذا كانت أوهامُ إخوتِه وهم قافلون إلى أبيهم؟ ماذا كان يدورُ فى قلْب كلٍّ منهم فى عَودتهم إلى رحاب البيتِ الذى ترعرعوا فيه وشاهدوا مولِدَ الغلامِ المباركِ ليُضِيفَ إلى الأسرة قوةً ، ورأيًا ، ووزيرًا يُخلِصُ النصيحة.

دموع التماسيح:

وقُرْبَ الدارِ تَقنَّعوا بقِناع الخديعةِ ، وانحدرت على الخدود الدموعُ الكاذبةُ ، دموعُ التماسيحِ كما جاء فى المثَل ، وهى كنايةٌ عن الشفقة الكاذبة ، ابتغاءَ الخديعة ﴿وَجَآءُوٓا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ واختيارُ الوصولِ إلى الأب عِشَاءً إنما هو إمعانٌ فى الخديعة ، وفى الحكمة: لا تعتذرْ بالنهار من ذنبٍ فتتلجْلَجَ فى الاعتذار ، وقد اختاروا الليلَ ليكونوا أَقْدَرَ على الاعتذار لأبيهم.

إن صاحب الدموعِ الأغزرِ قد يكون هو الأعظمَ جُرمًا، وقد صارت دموعُ بنى يعقوبَ مثَلا مُنبِّهًا فى مجالسِ القضاءِ والحُكْم.

وقد رُوى أن امرأةً خاصمتْ زوجَها إلى شُريح القاضى، فبكتْ وآلمتْ، فقال له الشعبىُّ: يا أبا أميةَ أظنُّها مظلومةً، أمَا تراها تَبكى؟ فقال شُريح: لقد جاء إخوةُ يوسفَ يبكُون وهم فى ظُلمة الليل. ثم قال شريحٌ للقضاة: ولا ينبغى للقاضى أن يَقضِىَ إلا بما أُمِر به من السُّنَّة المَرْضِيَّة أى: البيِّنةُ على المدَّعى، واليمينُ على من أَنكر، وعدمُ الانخداعِ بظواهرِ طَرَفٍ واحدٍ أو سماعٍ منه وحْده.

ثم أخذ إخوةُ يوسفَ فى تقديم دليلِ براءتِهم ، وسببِ حُزنهم وبكائهم على أخيهم فقالوا:

﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]

هذا دفاعهم بالقول ، ثم قدموا دليلا ملموسًا كدموعهم من كل وجه: ﴿وَجَآءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]

والقميصُ لم يُمزَّق بأنيابِ الذئب ، وكأنهم قَدَّموا إلى قلْب الأبِ دليلَ اتِّهامهم ، وبرهانَ جُرمِهم ، فقال لهم وقد وضَع القميصَ على وجهه وبكَى: تاللهِ ما رأيتُ كاليوم ذئبًا أحلَمَ من هذا ، أكَل ابْنى ولم يُمزِّق قميصَه.

فتأمَّل: كيف يُفسد الحسدُ القلوبَ ، ويَذْهبُ بالمروءة ، ويَقْطعُ أواصرَ الرَّحم ، ويُمزِّقُ الشملَ ، ويُدمِى القلبَ ، ويُقَسِّى النفوس ، ويُطفِىءُ نورَ المسرة ، وبهجةَ الأُلفة ، ويبعثُ الشرَّ عاتيًا عنيفًا لا يعرفُ الرحمة.

لذا حرَّم الإسلامُ الحسد ، ونبَّه إليه ، وبغَّضه إلى نفوس المؤمنين.

❄ ❄ ❄

قال أبو هريرة رضى الله عنه: سمعتُ النبىﷺ يقول:

«لم يَبْقَ من النبوَّة إلا المبشرات»

قالوا: وما المبشراتُ؟ قال: «الرؤيا الصالحةُ» [أخرجه البخارى]

أى لم يَبْقَ من آثار النبوةِ إلا الرؤيا الصالحةُ باعتبار صورتها ، أو باعتبار تأويلها

٢٣٥ - د - الْحَسُودُ لَا يَسُودُ

كان يعقوبُ عليه السلام أشفقَ الناسِ على أولاده ، وأحنَاهم عليهم ، ولـمَّا لَمح فى يوسفَ بشاراتِ النبوةِ ، وشامَ أماراتِ الاصطفاءِ للرسالة ازداد سرورُه به ، وحرصُه عليه ، وخاف أن يقعَ الحسدُ له فى نفوس إخوته ، وتَحقَّق ظنُّ الرجل ، ورأى بصادق حسِّه نيرانَ الحسدِ تندلع ألسنتُها من قلوبهم نحو أخيهم الصغير ، وزاد شعورُه بتآمرهم ، وتَبييتِ الكيدِ له حين جاءوه بقميصِ يوسفَ وقد لطَّخوه بدمٍ مكذوبٍ مُفترًى وفى عيونهم دموعُ التماسيحِ متَّهمين الذئبَ بأكْله ، فكظَم الشيخُ الوقورُ غيظَه ، وسلَّم أمرَه لربه ، وقال لهم منبهًا بشعوره نحو فَعلتهم:

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]

إن يعقوبَ لـمَّا تأمَّل القميصَ فلم يجدْ فيه تمزيقًا ولا أثرًا لنابِ الذئبِ استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم مؤنِّبًا ومنبهًا عن طريق الرمْز على ما فى نفوسهم من الحسدِ والكَيْدِ وسوءِ النوايا قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وهى عبارةٌ قويةُ الإيحاءِ عظيمةُ التأثيرِ فى مساقها ، وقد صارت مثلا سائرًا يُضرَبُ فى المواقف المشابهة ، أى: قد زيَّنت لكم أنفسُكم أمرًا غيرَ ما تَصفُون وتَذكُرون ، إذِ الذئبُ برىءٌ مما جئتُم به! كيف يأكلُ بدنَه ويَسْلَمُ قميصُه من نابه؟ ألم يترك الذئبُ عضوًا منه فتأتونى به أستأنسُ به؟ لقد ملأ الحزنُ قلبَه ، فقال توطئةً لنفسه ، ورِضًى بقضاء ربِّه: ﴿فَصبرٌ جميلٌ﴾ ليس له إلا الصبرُ يَعتصِمُ به ، أى: فشأنى

والذى أعتقدُه صبرٌ جميل ، أو كما قال قُطرب: فصبرى صبرٌ جميل وهذا على حذْف المبتدأ ، وصبرٌ: خبرٌ مرفوعٌ ، وجميلٌ صفتُه ، وقيل: المعنى: فصبرٌ جميلٌ أولى بى على أنَّ: صبرٌ مبتدأٌ وجميلٌ نَعْتُه والخبرُ محذوفٌ تقديرُه: أَوْلَى بى ، والصبرُ الجميلُ هو الصبرُ الذى لا شكوى معه ولا جزَع.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ عبارةٌ قرآنيةٌ محكَمةٌ حكيمةٌ فيها تفويضٌ وتعليمٌ وإرشاد ، وقد صارت مثَلا سائرًا يُضرَب فى المواقف التى يُثير فيها المزوِّرون والـمُفتَرون والكذَّابون الشبهاتِ ويُغَيِّرون الحقائقَ ويَدَّعون ما لا يطابق الوقائع ، فيلجأُ صاحبُ الشأنِ إلى الاعتصام بالصبر الجميلِ وتفويضِ الأمرِ إلى عالم السرِّ والنَّجْوَى ، حتى تنكشفَ الغُمَّة ، وتظهرَ الحقيقةُ ، وقد تَمثَّلت أُمُّ المؤمنين الطاهرةُ النقيةُ عائشةُ بنتُ الصدِّيق كما جاء فى البخارى على لسانها فى حادث الإفْك بهذه الآية قائلةً: «والله لا أجدُ لى ولكم مثَلا إلا أبا يُوسفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ وكأنَّ عائشةَ تقول: فسأصبرُ صبرًا جميلا على ما افتريتموه حتى يُفرِّجَ اللهُ هذا الأمرَ بعونه ولُطفه ، واللهُ المستعانُ على ما تذكُرون من الكَذِب والزور ، أو: واللهُ المستعانُ على احتمال ما تَصفون من الكذِب حتى يأتِىَ الفرَجُ بعد الكرْب ، واليُسرُ بعد الشدةِ والعُسر.

إن فى قصة هؤلاء الإخوةِ لَعبرًا تلفتُ ذوى الأفهامِ للتدبر والاتعاظِ وتُنيرُ السبيلَ أمام ذوى الألبابِ لينأَوا بأنفسهم عن مزالقِ الشرِّ ، والسوءِ إنهم عُصْبةٌ راشدون ترعرعوا فى بيتِ علمٍ وحلْمٍ ، ونورُ النبوةِ الهاديةِ يُحيط بهم ، ولـمَّا عَرفَ داءُ الحسدِ سبيلَه إلى نفوسهم أفسدها ، فنظروا

إلى الدنيا والمنازلِ فيها ، وَعقُّوا الوالدَ ، وأدخلوا الحُزنَ على قلبه وشغَلوا بالَه بولدٍ حبيبٍ إلى قلبه ، وعَرَّضوا مؤمنًا للهلاك ، وتآمَروا فى قتْله ، وكذَبوا وغشُّوا ، وكَادُوا ، وزوَّروا ، وتلك نقائصُ لا تَليقُ بذوى المروءات وأهلِ الدينِ ولكنَّه الحسَدُ آكِلُ الحسنات ، ومفرِّقُ الجماعاتِ وجالبُ الآفاتِ القلبيةِ كالغِلِّ والحقْد ، والحقدُ أصلُ الشرِّ ، ومَن أضمر الشرَّ فى قلبه أنبَتَ له نباتًا مُرًّا مَذاقُه ، نَماؤُه الغَيْظُ ، وثمرتُه النَّدمُ ، إذ الحاسدُ ينطوى قلبُه على إرادة زوالِ النعمةِ عن المحسود ، ولا تهدأُ روحُه ولا تستريحُ نفسُه إلا عند رؤيةِ زوالها عن أخيه ، فهو ساخطٌ على ربِّه غيرُ راضٍ بقضائه ، عدوٌّ لنعمائه ، وهو لذلك فى همٍّ دائم ، وحُزنٍ قاتل.

وفى الحكمة: الحسدُ من أخلاق اللئامِ ، وتَركُه من أفعال الكرام ولكلِّ حريقٍ مُطفِئٌ ، ونارُ الحسَدِ لا تُطفَأُ.

وقال ابن مسعود رضى الله عنه: لا تُعادوا نِعَمَ اللهِ ، قيل له: ومَن يُعادى نِعَمَ اللهِ؟ قال: الذين يَحسدون الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فضْله يقول الله تعالى فى بعض الكتب: «الحسودُ عدوٌّ نِعمتى ، مُتسخِّطٌ لقضائى ، غيرُ راضٍ بقسمتى».

والحسدُ لا يكاد يُوجَد إلا لَمن عَظُمت نعمةُ اللهِ عليه ، فكلَّما أَتْحَفَه اللهُ بترادِ النِّعمِ ازداد الحاسدون له بالمكروه والنِّقَم ، وليس للمحسود عند الحاسدِ من ذنب إلا النعمُ التى عنده.

ومن حكمة منصور الفقيه:

ألا قُل لَمن ظلَّ لى حاسدًا ... أتدرى على من أسأتَ الأدب

أسأتَ على اللهِ فى حُكْمِه ... إذا أنت لم ترضَ لى ما وَهَب

ولقد حَسَد أهلُ الكتاب العربَ على اصطفاء خاتَمِ الأنبياءِ منهم ، كما حسدوا النبىَّ محمدًاﷺ على النبوة ، وحسدوا أصحابَه على نعمة الإيمان به ، وكان الحسدُ أعظمَ صادٍّ عن الهُدى والخير فأهلك أهلَه ، وقد وبَّخهم القرآنُ العظيم ، وقرَّعهم على ذلك كما قال سبحانه من سورة النِّساء: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ على ما آتَاهُم اللهُ مِن فَضْلِه؟﴾ [الآية ٥٤]

يعنى بذلك: حسَدَهم النبىﷺ على ما رزقه من النبوة العظيمة ، وقد منَعهم من تصديقهم إيَّاه حسدُهم له ، لكونه من العرب وليس من بنى إسرائيل ، كما حسد المعاندون قريشًا لأن النبوة فيهم.

وقد بيَّن لنا النبىﷺ أن هذه الآفةَ تأكلُ ثوابَ أعمالِ البرِّ كما تأكلُ النارُ الحطَبَ فى الحديث الذى رواه أبو هريرة[1] ، وفى هذا التشبيه بيانٌ لحُبوط الأعمالِ وضياعِها هباءً منثورًا ، إذ النارُ تجعلُ الحطبَ رمادًا وتغيِّرُ صورتَه ومنافعَه ، وهو من تشبيه الذى يُدرَكُ بالعقل بما هو مدرَكٌ بالعين لتقبيح الحسدِ والتنفيرِ منه.

ومن تقبيح الحسدِ وذمِّه والنهْى عنه ودفعِ شرِّه عن النفس أن الله أمرنا بالاستعاذة به سبحانه من شرِّ الحاسد وما حسَد فى قوله:

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]

إن الحسدَ معناه: تَمَنِّى الشخصِ زوالَ النعمةِ عن مُستحقٍّ لها[2]، أعمُّ من أن يكونَ ذلك كراهيةً فى وجودها عنده ، أو محبةً فى انتقالها إلى

---

(١) وأخرجه أبو داود

(٢) ويخرج من هذا التعريف تمنى زوال النعمة عن ظالم استعمل النعمة فى ظلم الناس فإنه لا يسمى حسدًا، وإن تَمَنَّىٰ مثل ما لغيره من الخير دون أن تزول النعمة عنه يُعَدّ من الغِبْطَة المحمودة.

الحاسد ، وأعمُّ من أن يسعى فى ذلك أوْلا ، فإنْ سعَى كان باغيًا ، كما فعل إخوةُ يوسفَ معه إذْ سعَوا فى التفريق بينه وبين أبيه وجعلوه فى وضْعٍ قد يُؤذِنُ بهلاكه ، وإن لم يسعَ الحاسدُ فإن كان المانعَ له عَجْزُه ولولاه لفعل فهو آثمٌ ، وإن منعته تقواه وخوفُه من الله فهو أخفُّ، وعليه إذا وردتْ على قلبه هذه الخواطرُ أن يدفعَها عن قلبه ، وأن يجاهدَ نفسَه حتى تنصرفَ عَمَّا يَهْجِسُ فيها ، وعليه أن يذكرَ أن حسَدَه لن يغيِّرَ من قضاء الله شيئًا ، ولو كانت النعمةُ تزولُ بسببِ الحاسدِ لـمَا كان على وجْه الأرض مؤمنٌ؛ لأنهم المحسودون فى كل زمانٍ وفى كل مكانٍ على نعمة الإيمانِ وطمأنينةِ القلبِ وسلامته من الأحقاد ، ولو أن الحاسدَ سعى فى تحصيل المكارمِ والفضائلِ بأسبابها الصحيحةِ ونظَر دومًا إلى مَن هو دونه لسكنت نفسُه ، ولنافس فى ميادين البرِّ والمروءات والمكرُماتِ ولحمدَ الله عزَّ وجل على ما وهبه من النعم ، وعاش قانعًا راضيا محبًّا الخيرَ لجميع الناس.

قال الحسنُ البصرى: ما مِن آدميٍّ إلا وفيه الحسدُ ، فمن لم يُجاوِز ذلك إلى البغْى والظلمِ ، لم يتبعْه منه شىء.

وفى الحديث الذى رواه عبد الرزاق عن معمر بن إسماعيل بن أمية وقد رفَعه: «ثلاثٌ لا يسلمُ منها أحدٌ: الطِّيَرَةُ والظَّنُّ والحسدُ» قيل: فما المخرجُ منها يا رسولَ الله؟ قال: إذا تطيَّرْتَ فلا تَرجِعْ ، وإذا ظننتَ فلا تُحقِّقْ ، وإذا حسدتَ فَلا تَبغِ».

وقد سُئل الحسن: هل يحسدُ المؤمنُ؟ قال: ما أنساك بنى يعقوبَ لا أبالك؟ حيث حسدوا يوسفَ ، ولكنْ غُمَّ الحسدَ فى صَدْرِكَ فإنه لا يضرُّك ، ما لم يَعْدُ لسانَك ، وتعملْ به يدُك. وقال أبو حاتم ناصحًا ـ

أيضًا - العاقلُ إذا خطَر بباله ضربٌ من الحسد لأخيه أَبْلغَ المجهودَ فى كِتمانه ، وتَرْكِ إبداءِ ما خَطَر بباله.

ويقال: إن الحسدَ أولُ ذنْبٍ عُصى اللهُ به فى السماء ، وأولُ ذنبٍ عُصى به اللهُ فى الأرض ، فأمَّا فى السماء فحسدُ إبليسَ لآدمَ ، وأمّا فى الأرض فحسَدُ قابيلَ لهابيلَ ، ولذا قال بعضُ أهل التفسير فى قوله تعالى على لسان الكفار فى جهنم:

﴿ربَّنَآ أَرِنَا الَّلذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِين﴾ [فصلت :٢٩]

إنه إنما أراد بالذى من الجنِّ إبليسَ والذى من الإنس قابيل ، وذلك أن إبليسَ أولُ من سَنَّ الكفر ، وقابيلَ كان أولَ من سَنَّ القتلَ ، وإنما كان أصلُ ذلك كُلِّه الحسدَ.

ومن الأمثال الرمزية فى تصوير آثار الحسد على المحسود قولهم:

إن الغُرابَ وكـان يَمشى مشْيةً ... فيما مضى من سالفِ الأحوال
حَسَد القَطاةَ فرَام يَمشى مَشْيها ... فأصابـه ضَـرْبٌ من التَّعقَـال[١]

فانشغالُه بها ، ومحاولتُه تقليدها ، قَيَّد مِشْيَتَه فلا هو صار قطاةً ولا هو عاد إلى ما كان عليه.

وقد أَحْسنَ مَن نصحَ بعدم الانشغال بالحسودِ أو مقابلته بمثل عمله فقال:

اصْبِرْ على كيْد الحَسُو ... دِ فإن صـبْرك قاتـلُه
فالنـارُ تأكـلُ نفسَهـا ... إن لَّـم تَجِد ما تأكلُه

إذ الباغى تدورُ عليه الدوائر ، ويعود بغيُه وبالا عليه ، والقضيةُ فى

---

(١) القطاة وهى نوع من اليمام تمشى متقاربة الخطا كأنها مقيَّدة فقلدها الغراب حسدا منه لها حتى فقد القدرة على الانطلاق فى المشى فلا هو صار غرابا ولا قطاة.

البيت الأولِ فيها غرابةٌ فجاء البيتُ الثانى مؤيِّدًا لها موضِّحًا إمكانَها عن طريق التشبيه الضمنى ، وهو من تشبيه المعقولِ بالمحسوس الذى يَجْعلُ الأمرَ أكثر وضوحًا وتأثيرًا.

إن إخوة يوسف حسدوا أخاهم فظلَموا أنفسَهم بانسياقهم وراءَ الحسد؛ وتحقَّق ليوسفَ ما أراده اللهُ له من الخير الدينىِّ والدنيوى ، فعاش بقيةَ عمرِه فى نِعَمٍ سابغة ، ومات مرضيا عنه بفضل ربِّه ، وما زالت ولن تزالَ ألسنةُ المؤمنين تُصلِّى وتسلِّمُ عليه ، وفى ذلك عبرةٌ لكل ذى فهْم وتدبر.

❊ ❊ ❊

٢٣٦ - هـ - فى سيرتهم قدوةٌ

إنه يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عليهم جميعًا أفضلُ الصلاةِ والسلام ، سليلُ بيتِ النبوةِ والرسالة ، أثيرٌ إلى قلْب أبيه وقد أحاطه فى أول حياته بالرعاية والعناية ، ومنحَه اللهُ عز وجلَّ كمالَ العقلِ والفِطنة ، وعصمَه من مزالقِ الهوى والشبهات ، وتَعهَّده أبوه بالأخلاق النبويةِ الكريمةِ فنشأ يوسفُ أصلحَ نشأة ، وكان أبوه يذكِّرُه بآبائه الأخيارِ المُصْطَفَين الصالحين ، ويُمَنِّيه أن يَلْحقَ بهم ، ويسيرَ على منهجهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف: ٦]

إن يوسفَ عليه السلامُ من الصفْوة الصافيةِ طَهَّره ربُّه وحسَّن خَلْقَه وخُلُقَه ، وصارت سيرتُه وتقلبُه فى حياته بين الشدَّة واللِّين ، والعُسرِ واليُسرِ موضعَ درسٍ عميقٍ فى عِلْم النفس ، وعلْم الأخلاق ، وعلْم الاقتصاد ، فهو الصابرُ الشاكرُ المطمئنُّ لقضاء الله وقدَرِه ، الواثقُ بأن العاقبة للخير ، وأنَّ الشرَّ مهما كانت صولتُه أو جولتُه إلى زوال واضمحلال.

لقد أُخرِج يوسفُ إلى رحلةٍ لا إرادةَ له فيها ، ولا رأْىَ ، وكان مصيرُه فى بعض مراحلِها إلى عالَمٍ يجهلُه ، وطريقٍ لا يَعرِفُ أين مُنتهاه ورأى وجوهًا جديدة ، وسَمِع مُساوماتٍ على بَيْعِه كما تُباع السلَعُ:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]

ثم استقرَّ فى بيئةٍ غيرِ البيئة التى نشأ فيها ، وفيها تختلفُ المشاربُ والطباعُ والنظرةُ إلى الأمور عمَّا أَلِفَه فى بيتِ النبوة ، وهو فى كل ذلك ملتزمٌ مكارمَ الأخلاق ، مُتَحلٍّ بالرزانة ومحاسنِ الآداب ، راضٍ بقضاء الله عزّ وجل ، واثقٌ بأن العاقبةَ للمتقين ، ولسانُ حاله يقول: قدَّرَ اللهُ وما شاء فَعَل ، ويقول: احفَظِ اللهَ يَحفظْك ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْه تِجَاهَكَ لقد أُلهِمَ وهو فى بداية الطريقِ المجهولةِ غايَتُه أنه محفوظٌ بعناية ربِّه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا به وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هٰذا وَهُمْ لا يَشْعُرُون﴾ [يوسف: ١٥]

أى: ألهمناه تطمينًا له ، وسكينةً لفؤاده ، أنه ناجٍ من مكرِهم ، وأنه سيلْقاهم بعد طولِ غيابٍ ويُخبِرُهم بما كان منهم معه ، فكان يوسفُ فى كل مواقفِ حياته الجديدةِ شديدَ الثقةِ بالله عزَّ وجل ، عظيمَ الرجاءِ فى رحمته وإحسانه.

وجاء اليومُ الذى رأى فيه إخوتَه وأكرمَهم وهم لا يَعرفونه واسْتشفَّ منهم أحوالَهم وأخبارَ أبيه وأخيه ، وهم لا يَشعرون أنه يوسفُ ، وكيف يكون يوسفُ صاحبَ الكلمةِ فى مصرَ واقتصادِها وتجارتِها ، ويكون على هذا النحو من نفوذ الكلمةِ بإذنٍ من مَلِكها ورِضًى منه؟ هذا ما حال بينهم وبين التفكير فى أن يكونَ المتحدثُ معهم ، المُتحبِّبُ إليهم هو أخاهم يوسفَ وقد صار رجلا عظيمَ القدْرِ عاليَ المكانة ، ثم طَلَب إليهم أن يُحضِروا معهم أخاهم الذى تحدَّثوا عنه ليراه ويتعرَّفَ إليه كما تعرَّف إليهم ، ثم عادوا ومعهم أخوه ، واستطاع يوسفُ أن يستبقِىَ أخاه معه بحيلةٍ ، ولـمَّا عادوا إلى أبيهم ، وأخبروه بقصته ، وكيف أنه سَرَقَ إناءَ الملكِ الذى يُكال به الطعام ، واستبقاه العزيزُ عقوبةً له ، اعتصم

يعقوبُ عليه السلام بالصبر ، ورأى بنور البصيرة أن لقاءَهُ بولدَيْه صار قريبًا: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]

ثم عاد إخوةُ يوسفَ للمرة الثالثة إلى مصر ، وبدأت الأمورُ تتضحُ سبلُها أمامهم ، وسألهم يوسفُ هذه المرة: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]

وكان هذا السؤالُ مثيرًا لكوامن الشعورِ ومُنبِّها للعقل الباطن ، ففَطِنوا إليه ، ولعلَّهم كانوا يستجمعُون الصورةَ منذ الحِوَارِ الأول:

﴿قَالُوٓا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]

ثم جاء إقرارُهم بأنَّ العاقبةَ للخير فقالوا:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]

لم يقابلْ يوسفُ السيئةَ بمثْلِها فعفا وأحْسَن وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أى: لا لومَ ولا تأنيبَ عليكم اليوم. وكان عظيمًا فى عفْوه عند القُدرة ، كما كان عظيمًا فى محنته ، يأبى الدنيةَ ، وينأى بنفسه عن السوء.

وها هو ذا الفتى الغضُّ الإهاب المشتعلُ جمْرةَ الشبابِ يصونُ نفسَه خوفًا من ربه ، وقد دعتْه سيدةُ البيت الذى يعيشُ فيه ، وهى الحاكمةُ عليه فى بيئةٍ كلُّها مُغريات ، وقد ألحَّت عليه ، وأرادت قسْرَهُ على ما تَوهَّمت أنَّ فيه السعادةَ فى نظرها ، فأبى الطاهرُ المعصوم ، ونازعتْه ثوبَه فَنَبا ، استمساكًا بمبدأ العفافِ والتقوى ، فكان أمينًا عليها ، وأمينًا على البيت الذى أكرم مثواه ، وفيًّا لهذا العزيز الذى أحلَّه مَحلَّ الولد ، وهذا من أخلاق النبوةِ الهاديةِ التى تُنبئُ عن نفسٍ كريمة ، وروحٍ طاهرة وعزيمةٍ قويةٍ لا تُجيب داعِىَ الجهالةِ ، ولنتدبر قوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ وكيف اعْتَصَمَ بالله

والتَجأَ إليه فى دَفْع هذا الأمرِ عنه مستحضرًا عظمةَ اللهِ فى قلبه ، ثم لنتدبرْ وفاءَه لربِّ البيتِ: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣]

أى: إنه ربُّ النعمةِ الحاضرةِ وصاحبُ الدارِ الذى آواه وائتمنه وشَامَ فيه الخير ، وإن المعروفَ يُقابَل بالمعروف ، والأمانةَ تُصان ، تلك قيمُ أهلِ الصلاح والتقوى. أمَّا قولُه سبحانه: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّأَا۟ بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]

فالهمُّ: هو المقارَبةُ من الفعل من غير دخولٍ فيه ولا عزمٍ عليه ، ولا شكَّ أن همَّها كان عزمًا وجزمًا ، أمَّا بالنسبة ليوسفَ فَهمُّه مما يليقُ بحيائه وطهارته ، إذ هَمَّ أن يدفعَها عن نفسه بالقوة وكاد ، لولا أن أراه اللهُ أنه لو فَعَل ذلك لفعلت معه ما يُوجب هلاكَه ، فكان فى الامتناع عن دَفْعها بقوةٍ صونُ نفسه من الهلاك إذْ ربما تعلَّقت به فَتَمزَّقَ ثوبُه من قُدَّام ، وَيُقَدِّم بذلك دليلَ جنايته فَيُساءُ إليه ، ولقد كان تَمزيقُ ثوبه من الخلْف دليلَ براءته وجنايتها هى ، فكان فى نُكوصه بإلهامٍ من ربِّه عن دَفْعها بالقوة ، وفراره هاربًا ، وتمزيقها ثوبَه من الخلْف دليلُ الحُكْم بطهارة يوسفَ ، وبراءته مِمَّا ادَّعته عليه.

وقال صاحبُ البحر المحيط: إنه لم يقع منه هَمٌّ أَلبتَّةَ ، بل الهمُّ مَنفِىٌّ لوجود رؤيةِ البرهان ، أى: لولا أن رأى برهانَ ربِّه لهمَّ بها ، على أن جوابَ لولا محذوفٌ فى الآية ، أى: أنَّ الهمَّ كان يُوجَدُ لو لم يَرَ برهانَ ربِّه ، ولكنه رآه فانتفَى الهمُّ ، ولقد شَهدت له بطهارة النفس ، وانصرافها عَمَّا يَشين ، ولنتدبر: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]

فقد حَفِظه ربُّه وصانه لأنه من العباد المختارين لطاعته ولرسالته.

وكان هذا دأبَ يوسفَ يلتجئُ إلى الله فى كل شدَّة ، ويستحضرُ عظمتَه عند الابتلاء ، فلمَّا توعدتْه امرأةُ العزيز بالسجن والإذلال لجأ إلى ربِّه مستغيثًا وَجِلًا قائلا: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ أى النساءُ اللواتى جَمَعتْهُنَّ هذه المرأةُ ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]

فَفرَّج اللهُ عنه ما نَزل به ، وصرَف عنه كيْدَهُنَّ وأراد اللهُ عز وجل أن يُبْعِدَه عنهنَّ فَتَمَّ سَجْنُه وهو أهونُ الشرَّين ، تَضرَّع يوسفُ إلى الله أن يَحمِيَه من هذه الفتنة وأن يحفظَه من مكْرِهِنَّ وكيْدِهنَّ : ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣٤]

هذه صورةٌ مشرِّفَةٌ لنفسٍ مُضيئة بنورِ الإيمانِ والخشيةِ من الرحمن.

إنَّ يوسفَ صاحبُ رسالة يؤدِّيها أينما كان وكيفما كان حالُه ، وإنَّ فعْلَه كقوله فيه القدوةُ الحسنةُ ، والمنهجُ السديدُ للكمال الإنسانىِّ بجانبيه الروحى والمادى ، وفى السجن دعا إلى توحيد الله ، ونبْذ الشرك والأندادِ مهتبلا تَوَسُّمَ الناسِ فيه الخيرَ والعلْمَ وحاجتَهم إلى تعبير الرُّؤيا: ﴿يَا صَاحِبَىِ ٱلسِّجْنِ: أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۞ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠]

وإن أهلَ الدين والحكمة ينبغى لهم أن يُهيِّئوا الفرَصَ لِيَعِظُوا الناسَ وينصحوهم ويرشدُوهم إلى الدين الحقِّ ويقدِّموا لهم دلائلَ التوحيدِ وعلى إخلاص الطاعةِ لله عز وجل.

وإن الخروجَ من ضيق السجنِ إلى ساحة الحُرية أمرٌ تتطلعُ إليه نفوسُ السجناء ، خصوصًا فى مثْل حالة يوسفَ عليه السلام ، وقد سُجنَ مع أضداده لأنَّ ساحتَه بريئةٌ من كلِّ ما يَشين نفسًا وخُلقًا وعملا ، وقَلَّ أن يضُمَّ السجنُ نفسًا بريئةً طاهرةً ، وإن أضيقَ السجونِ هو السجنُ مع الأضداد ، ولـمّا حانت الفرصةُ لخروج يوسفَ من السجن ، وجاءه أمرُ الإفراجِ من المَلك مع مبعوثه ، تدبَّر يوسفُ الأمرَ ، ورأى أنه قد أُسيءَ إليه ظلمًا وعدوانًا ، ورأى أن خروجَه دون إعلانِ براءته على الملأ فيه إساءةٌ ، فسيُقال ، مجرمٌ سُرَّ الملكُ من ذكائه فى تَعبير الرؤيا للمساجين فعفا عن جريمته وأخرجه من السجن ، فلـمَّا جاءه رسولُ الملك بالإعفاء من السجن قال له ارجعْ إليه وقل له: أعِد التحقيقَ فى أمر النسوة ، لتظهرَ الحقيقةُ كاملة ، وقد كان ، وعادت النسوةُ إلى الحق ، واعترفْن بمكيدتهنَّ ، وأعْلَنَّ عن براءته وطهارته: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [٥١، ٥٢]

وما أجملَ الرجوعَ إلى الحق ، وإن الاعترافَ بالحق خيرٌ من التمادى فى الباطل.

لقد حملتْه حكمتُه على الإباء من مزايلة السجنِ إلى أن تنجلِىَ عن ساحة شرفه تلك الغمامةُ التى كانت مخيِّمةً على صفحة كبيرة من صفحات حياته فلمَّا انجلتْ خرَج من السجن ليؤدِّىَ رسالتَه فيما قُدِّر له وصار صَفِىَّ الملكِ وأقربَ الناسِ إليه ، وأوثقَ الناس ، وأحبَّ الناسِ إليهم ، واللهُ عزَّوجل يقول: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]

فطوبى لأهل الصبرِ وصدقِ اليقين. . . .

٢٣٧ - و - وجوانب من القدوة في سيرة يوسف وأخلاقه

ظهرت براءةُ يوسفَ عليه السلام للعامة والخاصة، وكان الملكُ شديدَ الحرص على لقائه بعد ما بلَغه تأويلُه لرؤياه وما وصل إليه من أنباءٍ عن حُسن خُلقه، وسماحة نفسه، ورزانته، وقد رأى الملكُ أنه فى أشدِّ الحاجة إلى حكمة يوسفَ فى تدبير الأمور، والاستعانة بجودَة نظرِه وأمانته، وتأنِّيه فى إدارة دفَّة الحُكم فى مصرَ. وقد هَزَّه عدمُ تَسرُّعه فى إجابة دعوته للخروج من السجن قبل أن تظهرَ براءتُه، وتنجلِىَ عن ساحة شرفه تلك الغمامةُ التى كانت مخيمةً على صفحة كبيرةٍ من صفحات حياته.

وكان شوقُ الملكِ إلى لقائه عظيمًا فقال:

﴿ائتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [سورة يوسف: ٥٤]

أى: أجعلْه خالصًا لى، وصفيًّا قريبًا إلى نفسى، وخاصًّا بى أُشْرِكُه فى تصريف الأمور: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى: بعد هذه المقابلَةِ، وقد رأى بعين اليقينِ ما يُطابِقُ الخبرَ عن يوسفَ، بل فوق ما تَصوَّره عنه، استوثق من فطنته وحكمته، ورأى أنَّ وجودَه فى مصرَ شرفٌ لها ونعمةٌ ورحمة، لذا بادر بقوله: إنك منذ اليوم ذو مكانةٍ ومنزلةٍ بيننا ومُتمكِّنٌ نافذُ القولِ مطاعُ الكلمةِ مؤتمَنٌ على كل شىء.

فماذا كان جوابُ يوسفَ على حُسن رأى الملكِ فيه: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]

رأى يوسفُ أن الرجل يُريد أن يسندَ إليه مسؤوليات جسامًا، وترَك له اختيارَ ما يرى أنه أعظمُ استعدادًا وكفايةً له ليخدمَ أُمَّةً ساقَه اللهُ إليها لحِكمة، وهى مقبِلَةٌ على سنين عِجاف، واقتصادُها على حافَّة هاوية وقد أعطاه اللهُ بصيرةً عظيمةً فى حِفْظ الأمورِ الاقتصادية وضَبْطِها، ومكَّنه من القُدرة على إدارة دفَّتها حتى تَصِلَ البلادُ إلى بَرِّ الأمانِ بفضل اللهِ وتوفيقِه، ويجدَ الناسُ الكفاية، وينعموا بالرخاء، فبادر إلى إظهار قُدراته وبيانِ خبراته، واختار المنصبَ اللائقَ به، فطلَب الولايةَ على خزائنِ أرضِ مصرَ وما يَخْرجُ منها من الغلات والخيرات وتدبيرِ الشؤونِ الاقتصاديةِ من الإيراد والصرْفِ لأنه حفيظٌ للخزائن قديرٌ على ضبْط أمورِها، عليمٌ بوجوه مصالحِها والتصرفِ فيها.

وهكذا ينبغى للعاقل أن يُظهرَ ما يُحسنهُ، ويطلبَ العملَ الذى يُتقنُه ويختارَ تولِّى الأمرِ الذى هو أقدرُ عليه كما فَعل يوسفُ عليه السلام ولا حرَج فى ذلك، ولقد أَحَبَّ يوسفُ أن تكونَ يداه على الخزانة ليُعينَ أهلَ مصرَ وقتَ الحاجةِ شفقةً على عباد الله، ولقد كان يوسفُ فى ريْعان الشباب ابنَ ثلاثين عامًا، وأقام العدْلَ فى مصر، وأحبَّه أهلُها، وأطاعوه فيما يُطلب منهم، وقد أَمَرَ أهلَ كلِّ قريةٍ وبلدةٍ بالاشتغال بالزرع، فلم يَدَعُوا مكانًا إلا زرعُوه حتى بطونِ الأوديةِ ورؤوسِ الجبالِ مدةَ سبعِ سنين، وكان يأمرهم أن يتركُوه فى سُنبله فلمَّا أقبلت السنون المجدبةُ وحُبِس قطرُ السماء، وشَحَّ الماءُ وجدوا فى المخزون ما يَفِى بالحاجة وكان

يُوزِّع عليهم على قدر الضرورة، ولم يَشْبَع يوسفُ مدةَ القحطِ حتَّى لا يَنسى الجِياعَ ، وأعطاه الله ثوابَ الدنيا بالتمكين فى أرض مصرَ ومحبةِ الناس وثقةِ السلطانِ وإطلاقِ اليد فى التصرف، وادَّخر له فى الآخرة ما هو خيرٌ وأبقى: ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف:٥٧]

إنَّ الشبابَ الناجحَ هم أولئك الذين يتسلَّحون بالعِلْم والخُلق ويتزيَّنون بالتقوى وصالح العمل، ويسعَوْنَ إلى اكتساب الخبرات، وإتقانِ الأعمال التى يعود نفعُها عليهم وعلى الناس، ويدأَبون فى طلَب الرزق من طريقٍ حلال، ولا يركنون إلى البِطَالة والكسل، ويُسهمون بالجُهد والفكْر والعملِ فى بناء الحياة، تاركين وراءَ ظهورهم حياةَ الفرَاغ واللهوِ الباطل، إذْ دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له: إن الحياة دقائقُ وثوانٍ، فيصرفُ الشابُّ عمرَه فى الجِد وفيما هو نافعٌ ومفيد، مع المداومة على طاعة الربِّ والإخلاصِ له سبحانه اقتداءً بالنبيين والصدِّيقين وصالحى المؤمنين وإنَّ يوسفَ عليه السلام من أعظمِ النماذجِ العاليةِ فى الفِكْر والمسلك والخُلُقِ والكفايةِ الممتازةِ للعمل للدِّين والدنيا مِمّا جعله أهلا لأن يتبوأَ أعظمَ مكانةٍ فى مصرَ وهو ابنُ ثلاثين عامًا.

وكما يُضرَب المثَلُ بيوسفَ فى علوِّ الهمةِ والأمانةِ والكفايةِ العاليةِ فى تصريف الشؤونِ الاقتصادية، فإنه يُضرب به المثَلُ - أيضا - فى الصبر، وهو أعظمُ الفضائلِ وأجلُّها قدرًا، وهو من خواصِّ الإنسانِ، وبه تَمَيَّز عن سائر الحيوان، لأنَّ له من الإرادة والاختيارِ ما يُمكِّنُه من حَبْس النفسِ على ما تكرهُ، وكفِّها عن الشرِّ وعن سائرِ المعاصى. وتترتبُ على

الصبر فضائلُ متعددةٌ مثل: العفةِ، وضبطِ النفس، والشجاعةِ فى ملاقاة الأهوالِ ، والحِلْمِ عند موجباتِ الغضب ، وسعةِ الصدْر ، والقناعةِ ، والزُّهدِ ، ولقد ضَرَبَ يوسفُ للناس المثَلَ الأعلى فى كثير من أنواع الصبر:

* فقد صبَر على إيذاء إخوته له، وقد تركوه فى العَراء بلا ثوب، كما صبرَ على ضَرْبه ولَطْمه وإلقائه فى الجُبِّ بقصْد إهلاكه، ثم كظَم غيظَه، ومَلَك نفسَه عند القدرة، وعَفا وصفَح عنهم، وقد قال لإخوته: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]

* صَبَر على نعمة الله فجاورها بالشكر، ولم يُسئْ استعمالَ المال وخزائنُ مصرَ تحت إمرته، وقَنِع بالقليل، وكان شاكرًا لأنْعُم اللهِ ولـمَن أكرموه فى مصر.

* صَبَر عن معصية الله، وحَفِظَ اللهَ وهو فى ريعان الشباب فحَفِظَه اللهُ، وصرَف عنه كيدَ النساء، فكان عفيفًا متوَّجًا بتاج الصبْر عن الشهوات المحرَّمَةِ بفضل الله، وفى المثَل: أهان الهوى حتى تَجنَّبه الهوى.

* ولقد مَسَّته الضراءُ وأُلقى مظلومًا فى غَيابة السجن، فحالَف الصبرَ الجميلَ وسَعةَ الصدرِ، ورَضى بما قَسم اللهُ، وعاش فى السجن يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وَيُبيِّن للناس دلائلَ التوحيد، ويُقدِّم لهم براهينَه، وَيُوضِّحُ بطلانَ الشركِ واتخاذِ الأندادِ من دون الله عزَّ وجل، ويحثُّ على عبادة اللهِ ويصدُّ الناسَ عن كل ما سِواه من الأرباب المتفرقين، حتى أزال

كُربتَه، وأحْسَن عاقبتَه، واللهُ عز وجل يقول:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]

فلم يجعل اللهُ للصبر جزاءً محدودًا وثوابًا مُعيَّنًا، بل جعلَه منوطًا بكرَمِه الواسعِ وجودِه العميمِ بغير وزنٍ ولا مِعيار.

هذا بعضُ مواطنِ القدوةِ الصالحةِ فى سيرة يوسفَ عليه السلام وقليلٌ من كثيرٍ من مواقفه الكريمةِ التى تَشهد له بكمال العقل، وسدادِ الرأى وبُعْدِ النظر، ورزانةِ الفكر، ومكارمِ الأخلاق، وحُبِّ العمل، وبذلِ الجُهدِ بإخلاصٍ وحذْقٍ ومهارةٍ عاليةٍ عن طيب خاطرٍ وتطوعًا لا رهبةً ولا رغبةً، لخير الناسِ دون نظرٍ إلى أىِّ دينٍ ينتسبون، ما دام سيتمكنُ بفضل الله من إقامة العدل، وإحقاقِ الحق، وإعانةِ عبادِ اللهِ عند الحاجة بما منَحَه اللهُ من العلم وحُسنِ تدبيرِ الأمور.

لقد ضَرب يوسفُ الأمثالَ العاليةَ بأخلاقه الطاهرةِ وحكمته:

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]

ولـمَّا كان يوسفُ صابرًا راضيًا قانعًا كان متحلِّيًا بفضيلة الشكر والشكرُ هو معرفة المنعَم عليه حقَّ المنعم وتقديرُ النعمة والفرحُ بها والقيامُ بمقصود الـمُنعِم، والعملُ بما يُحبُّه، وهو خُلُقٌ عزيزٌ فى الناس، كما قال تعالى وهو أعلم بعباده: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]

ومن الشكر التحدُّثُ بنعمة اللهِ عزَّ وجل على سبيل التواضعِ والتذكيرِ بفضل المنعمِ والثناءِ عليه سبحانه بإحسانه، وإن يوسفَ لـمَّا جاءه أبواه رَفَعهما على العرش، وخَرَّ له أبواه وإخوتُه سجَّدًا على سبيل التحية

والتكريم، إذ كان السجودُ عندهم جاريًا مَجْرى التحيةِ والتكرِمَةِ مثل القيامِ والمصافحةِ ونحوهما من عادات الناسِ الناشئة فى التوقير والتكريم وتأمل قولَه: ﴿ يَآ أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]

ثم هو يَذكُر نعمةَ ربِّه عليه سائلا فى ضراعةٍ أن يُتِمَّ عليه هذه النعمةَ بالموت على الإسلام، والحشْرِ فى زمرةِ الصالحين الذين رَضِى اللهُ عنهم ورضُوا عنه ولنسمع هذه الضراعةَ بتدبر: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]

وهذا من الإقرار بالنعمة وشُكرِ المنعمِ بها، وقد منَّ اللهُ عليه بخيرى الدنيا والآخرة.

إن الذى يلتفتُ لمواطنِ العبرةِ والعظةِ فى قَصص الأصفياءِ فى القرآن هم أصحابُ العقولِ الراجحة، والقلوبِ اللينِّة، والنفوسِ الصافية: «**لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَلْبَٰبِ**» [يوسف: ١١١]

فطُوبى لـمَن علِم وعَمِل...

❄ ❄ ❄

٢٣٨ - لا إيمانَ لِمَن لا أَمَانَةَ له

عَظَّم الإِسلامُ شأنَ الأمانة، وحثَّ على أدائها، ورَغَّب فى الوفاء بها ونَهَى عن الخيانة، وبَغَّض فيها، ونَفَّر منها، فهى لا تليقُ بذوى الدِّين وأصحابِ المروءات، وقد ذَمَّها النبىُّ ﷺ أشدَّ الذمِّ كما جاء عند النسائى من حديث أبى هريرة: كان رسولُ الله ﷺ يقول: «اللهمَّ إنى أعوذُ بك من الجُوع فإنه بِئْسَ الضَّجِيعُ، وأعوذُ بِك من الخِيانة فإنها بِئْس البِطَانَةُ» والبطانةُ: المقصودُ بها صديقُ الرجُلِ وصفيُّه الذى يكشِفُ له عن أسراره وقد مثَّل الخيانةَ بجليس السوءِ والصديقِ الذى يُغرى بالشرِّ، ولا يُعين على خير: «فإنها بئس البطانةُ» وبئس: فعلٌ ماضٍ للذمِّ، وفاعلُه البطانةُ وهو أسلوبٌ لإنشاء الذمِّ يؤكِّدُ قُبح الخيانة، ويدعُو إلى مجانبتها.

ولنسمع قولَه تعالى من سورة الأنفال فى النهى عن الخيانة فى العبادات وفى المعاملات:

﴿يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الآية: ٢٧]

وفى سورة النساء جاء الأمرُ بأداء الحقوقِ سواءٌ كانت لله تعالى أم للعباد، فِعْلِيَّةً كانت أم قوليَّةً أم اعتقاديَّة:

﴿إِنَّ ٱللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلأَمَانَاتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [الآية: ٥٨]

الأمانة فى الشرع:

والأمانةُ جاءت فى لسان الشرْع بمعان ثلاثة:ـ

الأول: ما قاله الضحاك: أماناتُ الناس المعروفة، أى الأشياءُ التى يضعُها صاحبُها عند غيره ليستردَّها عند الحاجة إليها. كما جاء الأمرُ بذلك فى هذه الآية.

والمعنى الثانى: الحقوقُ المتعلِّقةُ بالمكلَّفين، سواءٌ أكانت للّـه أم للعباد، وسواءٌ أكانت فعليَّةً أم قوليةً أم اعتقاديةً أم ماديَّة، ومن ذلك قولُ ابن عباس: «إنَّ الأمانةَ هى الفرائضُ» وما أخرجه عبد الرزاق عن زيْد بن أسلمَ عن رسول اللهﷺ: الأمانةُ ثلاثٌ: الصلاةُ، والصيامُ، والغُسْلُ من الجَنَابة»، وما رُوى عن علىٍّ بنِ أبى طالب: «أنه كان إذا دخَل عليه وقتُ الصلاة اصفرَّ وَجْهُه، فَسُئِل عن ذلك فقال: «دخَل علىّ وقتُ أمانة عَرَضَهَا اللهُ على السموات والأرضِ والجبالِ فأبيْنَ أن يَحملْنَها، وأشْفَقْنَ منها ، وقدحملتُها مع ضَعْفى»، ومن ذلك ما رواه مسلمٌ عن أبى ذرٍّ قال: «قلت: يا رسولَ الله ألا تَسْتَعْملُنى، فضَرَب بيده على مَنكِبى ثم قالِ: يا أبا ذرٍّ، إنك ضعيفٌ، وإنها أمانةٌ، وإنها يومَ القيامةِ خزىٌ وندامةٌ، إلا مَن أخَذها بحقِّها وأدَّى الذى عليه فيها».

ومـمَّا هو متعلقٌ بالحقوق على المكلَّفين: كلمةُ التوحيدِ فهى من أعظم الأماناتِ، ولا يجوز الإخلالُ بها بحال، وما قاله ابن العربى من أنها: الإيمانُ بالله وملائكَته واليومِ الآخر، ومما يَعمُّ هذه المعانىَ جميعَها تفسيرُ أبى حيان للأمانة من أنها: كلُّ ما يُؤتـمَنُ عليه من أمرٍ، ونَهْىٍ، وشأنٍ، ودينٍ ودنيا.

المعنى الثالث لمفهوم الأمانة: هو الصفةُ الـمُضَادَّةُ للخيانة، وهى صِفةٌ غَرَزِيَّةٌ تَحملُ صاحبَها على تأدية الحقوقِ لذويها، ماديةً كانت أو

معنويةً، للخالق أو للمخلوق. وإلى هذا جاءت الإشارةُ فى حديث أبى حُذيفة الذى أخرجه البخارى وفيه: «حَدَّثنا أن الأمانةَ نزلَت فى جَذْرِ قلوبِ الرجالِ ثم عَلِمُوا من القرآن، وعَلِمُوا من السُّنَّة» ومعنى نزولِها فى جَذر قلوب الرجال: حصولُ تلك الغريزةِ فى الشخص المتصفِ بها، وجَذْرُ كلِّ شىءٍ أصلُه، والمعنى: أن الأمانة خُلقت فى أصل قلوبِ العبادِ فهى من الغرائز الفطرية، فَتُشْبِهُ النواةَ التى إذا أصلَحها صاحبُها وتعهَّدها بالحرْث والسقْى كانت شجرةً تُؤتِى أُكُلَها، وإذا تركَها وأهمَلَها فسَدَت وبطَل النفعُ بها، وهذا تصويرٌ لغريزة الأمانةِ التى تعهَّدها صحابةُ رسولِ اللهﷺ بعلوم الشريعةِ المكتسَبَةِ من القرآن الكريمِ ومن السنة المطهرةِ شيئًا فشيئا حتى نَمَت وآتَتْ أعظمَ الثمار، ولم يفسدوها بالإهمال والترك: «فَعَلِموا من القرآن، وعَلِمُوا من السنة» أى: تأدَّبُوا بأدب القرآن وبأدب السنةِ المطهرةِ وعَلِمُوا منهما ما تنمو به الأمانةُ وتُثمرُ ثمرتَها، وزادهم ذلك استمساكًا بالأمانة وبغضًا للخيانة، وإن الفضائلَ متلازمةٌ، فإذا تمَّت الأمانةُ باتِّباع الأوامرِ الشرعية، وظهَرت قوتُها فى الشخص دلَّت على حصول سائرِ الفضائلِ الإنسانيةِ التى يَقْوَى بها الإيمانُ والإسلامُ والتقوى والإخلاصُ، وتَجلَّى ذلك فى بَيْعه وشرائه وسائرِ معاملاته، فلا يغشُّ ولا يخونُ ألبتةَ، بل يصير الأمينُ موثوقًا به فى كل أحواله.

وَمِمَّا يؤكِّد فى نفوسنا عِظَمَ شأنِ الأمانةِ أن الرسولﷺ نَهَى عن الخيانة فيها حتى مع مَن خانك فى أمانتك يقول عليه السلام فى الحديث الذى رواه أبو هريرة وأخرجه أبو داود والترمذى: «أدِّ الأمانةَ إلى مَن ائتمنَك، ولا تَخُن من خانَك» ومَن لم يؤدِّ الأماناتِ إلى أهلها كالودائع ونحوها أُخذ منه الحقُّ فى يومٍ يكون الإنسانُ فيه شديدَ الحاجة إلى كل

حسَنَة، ويشتَـدُّ كربُه من كل سيئة، وفى الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم وأحمد عن أبى هريرة: «لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها حتى يُقْتَصَّ للشاة الجمَّاءِ من الشاة القَرْناء» والجمَّاءُ هى التى لا قَرْن لها وذلك أن الحقوق لا تضيع.

لقد كُلِّف الإنسانُ وَنيطت به الأمانةُ تكريـمًا وتشريفًا لأنه مُنِح العقلَ والفهمَ والقدرةَ على التمييز والاختيار، وأعانه اللهُ عز وجل بإرسال الرسلِ، وإنزالِ الكتبِ فيها بيانُ الحلالِ والحرام، والخيرِ والشر، والنافعِ والضارِّ، والحِكَمِ والأحكام، وأنعم عليه بتسخير الكون، والقدرةِ على العمل لترقيةِ حياتِه، والانتفاعِ ببركاتِ الأرضِ وطيباتِها.

وإنَّ الأجرامَ الكونيةَ الكبرى لم تُوهَب ما وُهِبَه الإنسانُ لذا لم تكن أهلاً للتكليف، ولا مستعدةً لتحمُّل تبعاتِ الأمانة، فهى لا اختيارَ لها ولا إرادةَ، وهى تُسبِّحُ بحمْد ربِّها آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ على نحوٍ لا نفهمُه نحن البشرَ، ومُسخَّرةٌ لِمَا خُلقت له حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

وفى هذا السياق يقول بعضُ المفسِّرين فى قوله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَانُ﴾ [الآية: ٧٢]

قال: الأمانةُ حقوقٌ مرعيَّة، أَوْدَعَها اللهُ الـمُكلَّفين، وائتمنَهم عليها وأوجب عليهم تَلقِّيها بِحُسن الطاعةِ والانقيادِ ، وأمَرَهم بمراعاتِها والمحافظةِ عليها ، وبأدائِها من غير إخلالٍ بشىء من حقوقها، وجاءت الآيةُ على طريق التمثيلِ، والمعنى: أن تلك الأمانةَ لِعظَمِ شأنِها لو كُلِّفَتْ

هاتيك الأجرامُ العظامُ التى هى مَثَلٌ فى القوةِ والشدةِ مُراعاتَها، وكانت ذاتَ شعورٍ وإدراكٍ، لأَبَيْنَ أن يحملْنها، وَخفْن منها، فصرَف اللهُ سبحانه وتعالى الكلامَ عن سَنَنِه بتصوير المفروضِ بصورة الـمُحَقَّقِ لزيادة تحقيقِ المعنى المقصود وتوضيحِه.

ولا شكَّ أن فى الآية الكريمةِ قوةً تلفتُ العبادَ إلى التأمُّل والتدبُّر فى أمر الأمانة ووجوبِ النهوض بتبعاتها، وأداءِ الحقوقِ على الوجْهِ الذى يُرضى ربَّ العباد.

وقال بعضُهم: العَرْضُ فى الآية ضَرْب مَثَلٍ، أى: إن السمواتِ والأرضَ والجبالَ على كِبَرِ أجرامِها لو كانت بحيث يجوزُ تكليفُها لَثقُل عليها تقلُّدُ الشرائعِ لِمَا فيها من الثواب والعقاب، أى إن التكليفَ أمرٌ حقُّه أن تَعْجَزَ عنه السمواتُ والأرضُ والجبالُ، وقد كُلِّفَه الإنسانُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾.

وفسَّر بعضُهم: عَرَضْنا بمعنى قَايَسْنا، وقال: إن الآيةَ من المجاز: أى إنا إذا قايَسْنا ثِقَلَ الأمانةِ بقوة السمواتِ والأرضِ والجبال، رأينا أنها لا تُطيقها، وأنها لو تكَلَّمت لأبتْ وأشفقتْ، وهذا كما تقول: عَرَضْتُ الحِمْلَ على البعير فأباه، وأنت تقصدُ قايَسْتُ قوتَه بثقل الحِمْلِ فرأيتُ أنها تَقصُر عنه.

كما فَسَّر بعضُهم العرضَ بمعنى المعارضَة، وقال: عرضْنا بمعنى عارضْنا الأمانةَ بالسمواتِ والأرضِ والجبالِ فضعُفَت هذه الأشياءُ عن الأمانة ورجَحَت الأمانةُ بثقلها عليها.

إنَّ هذه الجماداتِ انقادت لأمر ربِّها بما يَليق بها ولم تمتنع عن طاعته -

سبحانه ـ الطاعةِ التى تَصِحُّ منها، وإن الإنسانَ هو الحيوانُ العاقلُ المفكرُ الصالحُ للتكليف لم يكن حالُه فيما يَصِحُّ منه من الطاعات ويليقُ به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه مثلَ حالِ تلك الجماداتِ فيما يصحُّ منها ويَليقُ بها من الانقياد وعدمِ الامتناع.

واختار النحاسُ وغيرُه من أهل التفسيرِ أن العرْضَ كان على الحقيقة وقد جاء توضيحُ ذلك فى قول ابن عباس الذى رواه علىُّ بنُ أبى طلحة قال: الأمانةُ هى الفرائضُ عرَضها اللهُ على السموات والأرضِ والجبالِ إنْ أدَّوْهَا أثابهم، وإنْ ضيَّعوها عذَّبهم، فكرِهُوا ذلك، وأشفقُوا من غير معصية، ولكنْ تعظيمًا لدين اللهِ عزَّ وجل ألا يقوموا به.

ويكونُ عرضُ الأمانةِ على هذه الجمادات باعتبار أنَّ لها حياةً حقيقيةً يَعْلمُ سرَّها خالقُها، وفى القرآن ما يُرشِدُ إلى ذلك، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]

وقولِه سبحانه للسموات والأرضِ:

﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصّلت: ١١]

ونحو ذلك ، أو أن اللهَ عزَّ وجل ركَّب العقلَ والفهمَ فى هذه الجمادات عند عرْضِ الأمانة، فَهُنَّ بهذا العقلِ والإدراكِ سَمِعْن الخطاب، وأنطقهُنَّ اللهُ بالجواب، وكان الامتناعُ منهنَّ بسبب الخشيةِ والخوف من ألَّا يؤدِّين حقوقَ الأمانةِ والتكليف؛ ويقعْن فى العذاب، ولم يكن من جهة معصيةِ اللهِ عزَّ وجل ومخالفتِه، فهذا العرضُ عرْضُ تخييرٍ لا إلزامٍ. أمَّا العرضُ على الإنسان فإلزامٌ، وهذا هو التفسيرُ الذى ذَهب إليه جمهورُ علماءِ

أهلِ السنةِ إذ يَرَوْن أنه ما دام فى الإمكان الحمْلُ على الحقيقة فلا يُلْجأُ إلى التأويل.

إن الإنسانَ الظلومَ الجهولَ هو الكافرُ الجاحدُ حيث حَمَلَ الأمانةَ ثم لم يَفِ بها، وضَمِنَها ثم أخلَّ بضمانه ونقَض عهدَه مع اللهِ عز وجل، وفى هذا نذيرٌ للعصاة والـمُصرِّين وكلِّ ظالمٍ لنفسه بالتعدِّى على حدود الله وخيانةِ الأمانات، وهذا من الجهل بعاقبة أمرِه فمَن تاب وأخلَص تابَ اللهُ عليه برحمته وإحسانه ولنتدبر ختامَ سورة الأحزاب: ﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

❊ ❊ ❊

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رجلٌ: يا رسول الله أنؤاخذُ بما عملنا فى الجاهلية؟ قال: «مَن أحْسَنَ فى الإسلام لم يُؤاخَذْ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام يُؤاخَذُ بالأوَّل والآخِرِ»

مَن احسن: اى من اسلم إسلاما صحيحا لا نفاق فيه ولا شك وداوم على الإخلاص حتى الموت.

والمسىء ضدُّه

٢٣٩ - صار قارون عبرةً وقصته مثلاً

كان أكرمُ خلْقِ الله فى وقْته موسى بن عمرانَ عليه السلامُ، أمَّا أخسُّ خَلْقِه وأذلُّهم فى حُكمه ، وأكثرُهم ضلالا، وأشدُّهم كُفرًا فكان فِرْعون، فما قال أحدٌ غيرَه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]

وكان على شاكلته مِمَّن انتظَم معه فى سِلْكِ الغُرور، وتَزيينِ الشرِّ والفسادِ هامانُ وزيرُه، وقارونُ الذى نافَق بعد إيمان، وضَلَّ بعد أن أضاء له نورُ الهداية، ولكونهم رءوسَ الضلال قَرَنَهم اللهُ فى قوله من سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [٢٣ـ٢٤]

بعَث اللهُ أخَصَّ عبادِه إلى أخَسِّ عبادِه رحمةً منه سبحانه فقُوبل الرسولُ الكريمُ بالتكذيب، والنسبةِ إلى السحر، ووَجَد منهم الصدَّ والغِلظةَ، والحسدَ وسوءَ الأدب.

وجاءت قصةُ ضلالِ قارونَ وفتنته فى سورة القَصصِ بعد قصةِ ادِّعاء فرعونَ الانفرادَ بالإلهية فزادَ فى ضلاله على عبَدة الأصنامِ الذين جعلوا أصنامَهم شركاءَ، وقال لهامان: ﴿فَاجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّى أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَى﴾ [القصص: ٣٨]

فزاد فى طُغيانه على طغيان مَن شايعه على كفره، أمَّا هامانُ فهو بطانةُ السُّوءِ، ومزيِّنُ الشرِّ، وأداةُ الفسادِ، واشترك مع فرعونَ فى الغِلظة

والقسوةِ وحبِّ الباطل، وشاركهم قارونُ فى الإقبال على متاع الحياةِ الدنيا وزينتِها، والاغترارِ بنصيبهم من دنياهم، وباستكبارهم فى الأرض، وصَدِّهم عن سبيل الله، ونسيانهم العاقبةَ: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]

ومع اشتراكِهم فى سوء الخُلقِ والغرورِ والحسد والاستكبارِ وحُبِّ الباطلِ اشتركوا هم وأمثالهم فى سوء المصير: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]

فقد أهلك اللهُ قومَ لوطٍ بالحاصب وهى ريحٌ يأتى بالحصباء وهى الحَصى الصغار، وثمودُ وأهلُ مدينَ أخذتْهم الصيحةُ، وقارونُ خَسَف اللهُ به الأرضَ لأن لسانَ حاله كان يقول: يا أرضُ ما عليك مِثْلى اغتراراً بالنعمة التى ابْتُلِى بها اختباراً وامتحاناً، وأغْرقَ اللهُ قومَ نوحٍ وفرعونَ وجندَه، وسِيقت قَصصُهم فى القرآن العظيمِ للعظة والاعتبار.

إنَّ فرعونَ لم تَعصِمْه من النَّكال جنودُه ولا أموالُه، ولم ينفع قارونَ أعوانُه ولا كنوزُه، لأن سِتارَ الغفلةِ غطَّى على البصيرة، وأعمى القلبَ فلم يهتدِ بنور الحق.

لعب الشيطانُ بفؤاد قارونَ وعقلِه فلم يلتجئ إلى ربه يستعينُه ويستعيذُ به، ولكنه أجاب نداء حبِّ الدنيا فى وِجْدانه، فأخرجه اللعينُ من عُزلةِ العابدين الزهادِ إلى جَلَبةِ سُوق الغافلين، وكلَّما ازداد كسبًا ازداد حِرصًا وإقبالا على هذه السوق، وخَبَتْ فى نفسه أنوارُ الزهادةِ والعبادةِ حتى

تَمكَّن حبُّ الدنيا من قلبه، فودَّعَه شيطانُه، قائلا له: دُم على ما أنت عليه حتى صار مثلا فى الغِنَى والثراء، ومثَلا فى الشُّحِّ واللؤمِ والغرور وقد حَمله حبُّ الدنيا على جمْعها، وحمَله جَمْعُها على التعلق بها وحمله تعلُّقُه بها على البغْى على إخوان الأمسِ وأعوانِ الخيرِ، وصارت كثرةُ ماله سببَ هلاكه، ولم يتخذْها سُلَّمًا لسعادة رُوحِه، ونجاةِ مُهجتِه وخلاصِ نفسِه من عذاب الأبد.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]

وهذا بيانٌ لكثْرَة أمواله وخزائنه، تقول: ناءَ به الحِمْلُ إذا أَثْقلَه حتى أمالَه، أى لَتُثْقِلُهم وتميلُ بهم إذا حملُوها لِثقَلِها، وهذه كنايةٌ عن كثرة المالِ لكثرة خزائنه.

وإن المالَ خيرٌ إذا جمعه صاحبُه من حلال، وأنفقَه فى وجُوهه المشروعة، وأدَّى حقوقَه، ولكنَّ قارونَ ازداد شحًّا، ولم يرَ لفقيرٍ حقًّا وتكبَّر على إخوانه وقومه، فتقدَّم إليه إخوةُ الإيمان، وجلساءُ الأمسِ الصالحون بالنصيحة، وبصَّروه بالحقيقة قبل فوات الأوان: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧]

قَدَّموا له خمسَ نصائحَ هى أغلى من كنوز الدنيا لو عقَل، ولكنَّ وعْظَ الذى حُرِم القبولَ كمَثَل البَذْرِ فى الأرض السَّبخَة، قالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ أى: لا تأشرْ، ولا تبطرْ، ونهَوْه عن الكبر والخُيلاء، وحذَّروه طغيانَ

اللذة العاجلة فَتُنسيه العملَ للسعادة الباقية الدائمة، وخَوَّفوه عقوبةَ الله للمتكبرين الغافلين ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحبُّ الْفَرِحِين﴾ وإذا أبغَض اللهُ عبدًا طردَه من ساحة رحمته، وحلَّ به سُخْطُه وغضبُه، ومِن شأنِ الفرحِ بالمال الضنُّ به، وعدمُ تأديةِ حقوقه، والبغْيُ على مَن يراهم دونَه بمنظار الغرورِ والتعالى، ومردُّ ذلك كلِّه فسادُ النفس، وسوءُ الطبع.

ومن أراد لنفسه الخيرَ تَواضَع عند النعمة، وشكَر المنعمَ سبحانه وطلب فيما أعطاه اللهُ من الدنيا الدارَ الآخرة، ووجَّه هَمَّه لطلب مرضاةِ ربِّه والفوزِ بالجنة، وبدلا من الفرَح المُطغِى، يصرفُ العاقلُ الدنيا فيما ينفعُه فى الآخرة لا فى التجبُّر والبغْى والعضِّ على المال، لذا قالوا له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أى: اطلُب بالغِنى ثوابَ الله فى الآخرة فنعيمُها هو الباقى الدائمُ بِصَرْفِه إلى ما يكون وسيلةً إلى نيْل هذا الثوابِ من مواساة الفقراءِ واليتامى وصلةِ الرحمِ ونحوِ ذلك من وجُوه البرِّ والخير.

ومع الاجتهادِ فى طاعة الله، والبذلِ فى سبيل الله، فإنَّ العبدَ المؤمنَ لا يَحرِمُ نفسَه من الحلال الطيب، وينفقُ على نفسه ومَن يعول بلا إسرافٍ ولا تقتير، لذا قالوا له: ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ قال قتادة: أى: لا تضيِّعْ حظَّك من دنياك فى تمتُّعك بالحلال وطلبك إياه، ونظرِك لعاقبة دنياك، وقال مالكٌ: هو الأكلُ والشربُ بلا سرَف، ومن حكمة ابنِ عمرَ رضى الله عنهما: احرُث لدنياك كأنك تعيشُ أبدًا، واعْمل لآخرتك كأنك تموتُ غدًا»، وإن من نظَر إلى ما يَجْمَعُ رأى أن نصيبَه آخرَ عُمره منه هو كفنُه، وقد جاء فى الحكمة:

نصيبُك مِمَّا تجمعُ الدهرَ كلَّه ... رداءان تُلْوَى فيهما وحَنُوطُ

وفى الحث على القناعة:

وهى القناعةُ لا تبغِى بها بدلا فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدن
انظُر لمَن ملَكَ الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القُطنِ والكفَن

وإنَّ العاقل الحكيمَ يستعملُ نِعمَ الله فى طاعة الله، ويصرفُها فيما خُلقت له، ويستخدمُها فيما هُيِّئت لأجله، لتظهرَ فائدتُها، وتتمَّ حكمتُها، ومعنى هذا أنَّ العبدَ المؤمنَ يوجِّهُ النعمةَ وِجهةَ الخير والنفع ويستعملُها فيما يُسعده ويُسْعِدُ العباد، وبالشكرِ تستقيمُ الأمور، وتدومُ النعم، وتنعدمُ الشرور، لذا قال أهلُ الحكمة: كلُّ نعمةٍ لا تقرِّبُ من الله فهى بليةٌ، لذا نصحوا قارونَ بأن يُطِيعَ الله ويعبدَه كما أنعم عليه وأن يصلَ المساكينَ ببرِّه، ويُحسنَ إلى عباد اللهِ بالتواضع والرفقِ والمواساة فقالوا: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ وهى عبارةٌ جامعةٌ لأُمَّهات الفضائل، وتُنبِّهُ قلْبَ المتأملِ إلى معانىَ جليلةٍ، وهى بمثابة المَثَلِ السائرِ يُتَمَثَّلُ بها فى مواقفَ متعددةٍ للتذكير، وإطفاءِ نارِ الغرور، ولتوجيه قُوى الإنسانِ وطاقاته الفكريةِ والنفسيةِ والخلُقيةِ والماديةِ نحو الخيرِ والبرِّ والرشادِ والنفعِ الخاصِّ والعام.

ومَن أحسنَ كما أحْسَنَ اللهُ إليه فإنه يَبغى الصلاحَ فى الأرض ويقصدُ الخيرَ بفعْله وقولِه، وكما يُحسِنُ الطاعةَ والعبادةَ والمراقبةَ فإنه يُحسِنُ إلى عباد الله، ويكونُ عونًا لهم، لذا أكَّدوا له هذا المعنى بالنهى عن نقيضه فقالوا فى النصيحة الخامسة: ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ﴾ إذ إنَّ الساعِىَ فى الفساد لا يكون محسنًا، بل يكون ظالـمًا باغيًا متجبرًا مسيئًا مطرودًا من رحمة الله ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ لسوء أفعالهم بل يُحِبُّ المصلحين النافعين.

دُرَرٌ غاليةٌ من النصائح العاليةِ لكنها وجدتْ من قارونَ قلبًا مُغلَقًا، وأُذنًا صمَّاءَ، وفاجأ أُولى البصائرِ من قومه بجوابِ المغرورين الهالكين من قبله ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُه عَلَى عِلْمٍ عِندِى﴾ أى: إنه قد أُوتى من الحذق والبصَرِ بأمور التجارةِ ووجوهِ المكاسبِ ما جعله مستحقًّا لِمَا جمَع أثيرًا به، ونَسِىَ أن اللهَ لو لم يُسَهِّل له اكتسابَ هذه الأموالِ لـمَا اجتمعت عنده، وكم بصيرٍ بأمور التجارةِ والزراعةِ خَسِر ورَبِح، وأفلَس وعاود!

فالتوفيقُ من الله للابتلاء والاختبارِ، وفى ردِّه ما يدلُّ أيضًا على شعوره بالأفضلية والخصوصيةِ وكأنه قال: إنما أُوتيتُ ما أُوتيتُ من المال والأعوانِ لعِلْم الله بفضلى ورضاه عَنى، أى: إن عندى وَفِى ظنى ومن وجهةِ نظَرى أن اللهَ آتانى هذه الكنوزَ على عِلْم منه باستحقاقى إياها لفضْلٍ فِىَّ، وكأنه فى نظَر وَهْمِه وسُخْفِ عقْلِه إنسانٌ فوق العادةِ لا يُطلَبُ منه ما يُطلَب من سائر العباد، وهذه اللهجةُ فى الحِوار نراها فى لُغة المتجبِّرين عُمْىِ القلوب كما جاء فى سورة سبأ على لسان أمثالِ قارون: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالا وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الآية: ٣٥]

أى: لخصوصيةٍ فيهم وكذَبوا، وهؤلاء هم الذين يقولون:

﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧]

إنه الغباءُ، وضآلةُ النفس، وعمَى القلبِ، ولو كان المالُ والولدُ مـمَّا يدلُّ على فضْلٍ وخصوصيةٍ لـمَا أهلك اللهُ عز وجل عادًا وثمودَ وغيرَهما من الأمم التى ملكت المالَ والقدرةَ الماديةَ والعقليةَ مع بسْطةِ الأجسامِ وسعَة النفوذ، ولذا جاء التقريعُ لقارونَ الذى قرأ التوراةَ وكان كحمارٍ يحملُ أسفارا فلم تنفعه عِبرُها: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ

﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨]

لقد كان خروجُه خروجَ المباهين الفخورين المختالين المُظهرين للنعمة على وجهِ البطرِ والكبرِ والترفع، فكانت عاقبةُ طغيانه، وانصرافه عن شكرِ اللهِ على نعمته، أنْ أزال اللهُ عنه لباسَ النعمة، وأذاقه وبالَ أمرِه، فخَسَف به وبداره الأرض، وذَهَبَ وكنوزَهُ وأعوانَهُ ورياشَهُ إلى حيث لا يعلمُ إلا الله، ولم يجد معينًا ولا نصيرًا:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]

وصار عبرةً، وقصتُه مثَلا.

❄ ❄ ❄

وصية غالية:

قال الحبيب المصطفى ﷺ:

«مَن لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ»

أخرجه البخارى ورواه جرير بن عبد الله

وقياسُ هذا: الجزاءُ من جنس العمل.

فطوبىٰ لأهل الرحمة بمخلوقات الله بالشفقة وترْك التعدِّى

٢٤٠ - نموذجٌ من الناس سما بخُلقهِ وعملِه

فى ختام سورةِ الفرقانِ ذكَر اللهُ عز وجل صفاتِ عبادِه المؤمنين الذين أخلصوا قلوبَهم لله، واتَّبعوا الرسل، وسمَوْا بأنفسهم عن الدنايا، وصاروا مثلا لمن أراد عِزَّ الدنيا، ونعيمَ الآخرة، ورغِب فى سكينة النفس، وراحةِ القلب، وطمأنينةِ الروح، وأضافهم سبحانه إلى نفسه فى التعريف بهم تشريفًا لهم، وتفضيلا على عُبَّادِ الدنيا والهوى والشيطان، فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣]

ثم بيَّن صفاتِهم وشمائلَهم ومحاسنَ أخلاقِهم وصحةَ نظرتِهم إلى الدنيا، ويدخلُ فى زُمرتهم كلُّ من أطاع ربَّه، وعبدَه، وشغَل سمعَه وبصرَه ولسانَه وقلبَه بما أَمره به، وأَخْدَم جوارحَه فيما يُرضيه، ومَن كان على نقيضِ ماهم عليه وَعكْسه شَمله قولُ الله تعالى من سورة الأعراف: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الآية: ١٧٩]

وفى الثناء عليهم بأنهم: «عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ» إشارةٌ إلى سلامة دينِهم وصدقِ يقينهم، فهم أهلُ التوحيدِ والإخلاص، وقد ظهر أثرُ ذلك فى أخلاقهم وتوجُّهاتِهم ومسالِكهم: إنهم يُحسنون مخالطةَ الناسِ ومعاشرتَهم، إنهم أهلُ سكينةٍ ووقارٍ وتواضُع فهم: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]

قد خَشعت أرواحُهم، وخضعت نفوسُهم وأبدانُهم لجلال اللهِ وكبريائِه

والهَوْنُ مصدرُ الهيِّنِ وهو من السكينة والوقارِ ، أى: يمشون على الأرض حلماءَ متواضعين ، يمشون فى اقتصادٍ ، والقصدُ والتؤدةُ وحسنُ السَّمت من أخلاق النبوة.

وهم إذا أُسِيءَ إليهم صفَحوا، وإذا ظُلِموا صبروا، يطلبون السلامةَ من السفهاء ، والمتاركةَ للحمقى ، ويدفعُونهم عن أنفسهم برفْق ولين ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]

أى إِذا كلَّمهم السفهاءُ مواجهةً بكلامٍ لا يليقُ طلبوا منهم السلامة، وردُّوا بقولٍ سديدٍ يَسْلَمون فيه من الأذَى والإثمِ، يُقابلون السيئةَ بالحلم والإغضاءِ، ولا يستفزُّهم الغضب.

وعبادُ الرحمنِ العبادةُ حِلْيَتُهم ، وطاعةُ اللهِ حلاوتُهم ، وحبُّ الله لذتُهم ، والتقوى زادُهم ، والعبادةُ كسبُهم ، والشيطانُ عدوُّهم، يُحْيُونَ الليلَ كُلا أو بعضًا بالصلاة: ﴿وَالَّذِين يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]

إِنهم أهلُ الإخلاصِ والمحبةِ يَغتنمون أوقاتَهم ليتزوَّدوا ليومٍ لا ينفعُ فيه دِرْهَمٌ ولا دينار ، لا تشغَلُهم أمورُ الدنيا عن عملِ الآخرة ، ويُدئِبون جوارحَهم فى طاعة خالقِهم وطلبًا لمرضاته.

وعبادُ الرحمنِ مع طاعتِهم لِلَّـه وانقيادِهم لأمره يعيشون على الخوف من زلَّة القدَم، والوجَلِ من عذاب الله، لذا فهم يَضْرعُون إلى الله دومًا أن يَقِيَهُم عذابَ جهنَّم، وأن يصرفَ عنهم أسبابَه، لأن حرَّ جهنَّمَ لا تُطِيقُه الجبالُ الرواسى، فكيف بالإنسان الضعيف:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦]

إن عذابَها شرٌّ دائمٌ ملازمٌ لأهلها، فهى بئسَ الدارُ، وبئس مَحلُّ الإقامة، لا راحةَ فيها، ولا نومَ، ولا موتَ، إنه دعاءُ المؤمنين العاملين الذين يَستديمون الخوفَ من الله، مع الإقبالِ على العبادة، وعدمِ التفريطِ فى الطاعة.

قال الحسن: قد عَلموا أن كلَّ غريمٍ يُفارق غريمَه إلا غريمَ جهنم.

وقال الزجاج: الغَرَامُ هو أشدُّ العذاب. وقيل: هو الشرُّ والهلاك.

وعبادُ الرحمنِ يَعرفون قدْرَ النعمة، ويضعُون الأمورَ فى مواضعها الصحيحة، وهم فى نظرتهم إلى الأمور وسطٌ بين طرفَى الإفراطِ والتفريط، وخيرُ الأمورِ أوساطُها، يُنفقون المالَ فيما يَرجون ثوابَه، ونَفَقتُهم فى حلال، وفى حدود الاعتدالِ لا شُحَّ ولا تبذير: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]

والقَوامُ: هو العدلُ، وهو يختلفُ فى النفقة باختلاف الحالِ والعيالِ والقدرةِ على الكسبِ وعدمها والعُسرِ واليُسرِ ونحوِ ذلك ومن أمثال القرآن وحِكَمه العظيمة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]

وفيها حثٌّ على التوسط والاعتدالِ فى إنفاق الأموال.

وفى المثَل العربى:

ولا تغْلُ فى شىءٍ من الأمر واقْتَصِدْ كِلا طَرَفَىْ قَصْدِ الأُمورِ ذَميم

ومن أنفق فى طاعةِ الله، ورجاءِ رحمتِه ورضوانِه فهو من القَوام

المرغَّبِ فيه، ومن أنفق فى غير طاعةِ اللهِ فهو من الإسراف المذمومِ أشدَّ الذمِّ، ومن أمسك عن طاعة اللهِ فهو الإقتار، قال ابن عباس: من أنفق مائةَ ألفٍ فى حقٍّ فليس بسَرف، ومن أنفق درهمًا فى غير حقِّه فهو سرَفٌ، ومَن منَع من حقٍّ عليه فقد قَتر.

إن أدب الشرعِ فى النفقة ألَّا يُفْرِطَ الإنسانُ ويبذِّرَ حتى يُضيِّعَ حقًّا آخرَ أو عيالا أو نحوَ هذا، وألا يُضيِّقَ حتى يُجِيعَ العيالَ، ويُفرِطَ فى الشحِّ وإن الخير فى ذلك هو القَوامُ أى العدلُ والتوسطُ، وكان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يريدون من الطعام ما يسدُّ الجوع، ويُقوِّيهم على عبادة ربِّهم ومن اللباس ما يسترُ عوراتِهم، ويُكِنُّهم من الحرِّ والبرد، ومن حِكَم عمرَ ابنِ عبدالعزيز حين سُئل: ما نفقتُك؟ قال: الحسنةُ بين سيئتين، ثم تلا هذه الآيةَ فى صِفة عبادِ الرحمن.

ومن حِكم عمرَ بنِ الخطاب: كفى بالمرء سرَفًا ألا يشتهِىَ شيئًا إلا اشتراه فأكَلَه. وفى سُنن ابن ماجةَ عن أنس بنِ مالك قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ من السَّرَف أن تأكلَ كلَّ ما اشْتهيْتَ».

وفى الحكمة العربية:

إذا المرءُ أعطَى نفسَه كلَّ ما اشتهتْ ولم ينهها تاقَتْ إلى كلِّ باطل
وساقت إليه الإثمَ والعـــارَ بالذى دَعتْه إليه من حلاوةِ عاجـــل

وعبادُ الرحمنِ معتدلون فى كل أمورِهم الماديةِ والمعنويةِ، فهم فى عقيدتهم وسطٌ بين طرفَى الإنكارِ والجحود، والإشراكِ وتعدُّدِ الآلهةِ فهم يؤمنون بالإلهِ الواحد الفردِ الصمد الذى لم يَلِد ولم يُولد، وليس له شريكٌ ولا ندٌّ ولا صاحبة، وقد قامت البراهينُ على وحدانيته، وشهِدت

الآياتُ فى النفس وفى الكون بوجوده وتفرده بالإلهية سبحانه، وهم يعبدونه وحده ويُخلصون الطاعةَ له كما وصفَهم ربُّهم بقوله:

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨]

إنما دعاؤهم ورجاؤُهم وخوفُهم واستغاثتُهم واستعانتُهم وعبادتُهم لله وحده، وهم وقد أيقنوا بالوحدانية، وأطاعوا ربَّهم، وخشَوْا غضبَه وانتقامَه، قد صرفوا جوارحَهم عن معاصى الله، ونزَّهوا نفوسَهم عن الكبائر وعن كل ما يُغضب الرحمن كما وصفهم فى قوله:

﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]

وفى ذلك إخراجٌ لعباد الله الصالحين من صفات الكفار فى عبادتهم غيرَ الله، وفى قتلهم النفسَ بوأد البنات وغيرِ ذلك من الظُّلم والاغتيالِ والغارات، ومن الزنى الذى استفْحَل أمرُه فى الجاهلية.

وقد جاء عند مسلم من حديث ابن مسعود قال: قلت: يا رسولَ الله أىُّ الذنب أكبرُ عند الله؟ قال: «أن تَدعُوَ للّه نِدًّا وهو خلَقك» قال: ثم أىّ؟ قال: «أن تَقتُلَ ولدَك مخافةَ أن يَطْعَمَ معك» قال: ثم أىّ؟ قال: «أن تُزَانِىَ حليلةَ جارِك» فأنزل الله تصديقَها: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية، وقد جاء الوعيدُ الشديدُ على هذه الكبائر: ﴿يَلْقَ أَثَامًا ۝ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩]

والأثامُ: العقاب، وقيل: وادٍ فى جهنمَ جعلَه اللهُ عقابا للكفرة، وقد دلت هذه الآيةُ على أنه ليس بعد الكفر أعظمُ من قتْل النفس بغير الحقِّ ثم الزِّنَى، ولهذا ثبَت فى حدِّ الزنا القتلُ لمن كان مُحصنًا، أو أقصى الجلْدِ لمَن كان غيرَ مُحصَن.

ومن تاب وأناب وأخلص فإن رحمةَ الله واسعة ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]

يسترُ العيوب، ويرحمُ عبادَه التائبين بفضله وإحسانه: وإن التائب حقًّا هو الذى يَجعل مكانَ السيئةِ الحسنةَ، ويحققُ توبتَه بفعل الطاعات «وَعَمِلَ صَالِحًا» وبالبُعدِ عن المعاصى، وليس الأمرُ مُجرَّد التوبة باللسان لهذا قال سبحانه: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]

أى: فإنه يتوُب إلى الله حقًّا، فيَقبل اللهُ توبتَه حقًّا.

ومن سمات عبادِ الرحمنِ أنهم أهلُ الصدق: صدقِ الاعتقاد، صدقِ الأعمال، صدقِ اللسان، لا يعرفون الكذبَ والباطل، وينزهون أنفسَهم عن مجالس الكذبِ واللهوِ والباطل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]

والزورُ كلُّ باطلٍ ومنه الكذبُ وأعظمُه الشركُ وتعظيمُ الأنداد، ومنه مجالسُ اللهوِ الباطل، واللغوُ هو كلُّ ساقطٍ لا خيرَ فيه ولا منفعةَ من القول والفعل، ويدخلُ فيه المعاصى كلُّها، فهم يُكرِمون أنفسَهم عن مجالس البطالين أهلِ اللغوِ والغفلةِ عن ذكر اللهِ عز وجل، والتلهِّى بالباطل، والسفهِ على خَلْق الله.

وعبادُ الرحمنِ تَلين قُلوبُهم للموعظة، وترقُّ نفوسُهم عند سماعِ آياتِ الله تُتلَى، ويخشعون ويتدبرون لا يَغفلُون، ولا تنصرفُ قلوبُهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]

وفى قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ تمثيلٌ لحالهم عند سماعِ الآياتِ والمواعظ، أى: لم يكونوا بمنزلة مَن لا يسمع ولا يرى، يعنى: لم يُعرضوا عند التذكير بالنعم وبأيام الله، وآلائه، وبراهينِ قدرتِه، وهذا يقتضى عكسَه وهو الإقبالُ على التدبر والتأملِ والانتفاع.

وهم مع حرصِهم على تأديب نفوسِهم بأدب القرآن، حريصون أيضًا على تربية أهليهم مستعينين بالله على ذلك؛ لذا تلهجُ ألسنتُهم بالدعاء: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]

وذلك أن الإنسانَ إذا بورك له فى أهله وولده وكانوا أهلَ طاعة وعبادةٍ سكنت نفسُه، واطمأن خاطرُه، وقرَّت عينُه وسَعِد بهم.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦]

أولئك: خبر ﴿وعبادُ الرحمن﴾ فى أول الآيات المبتدأ، وما تخلل بين المبتدأ والخبرِ أوصافُهم من التحلِّى والتخلِّى، وهى إحدى عشرةَ: التواضعُ، والحلمُ، والتهجدُ، والخوفُ، وتركُ الإسراف والإقتارِ، والنزاهةُ عن الشرك، وعن الزنى، وعن القتل، والتوبةُ، وتجنبُ الكذب، والعفوُ عن المسىء، وقبولُ المواعظِ، والابتهالُ إلى الله والاستعانةُ به، والصبرُ على الطاعة وعن المعاصى وعلى شدائد الدنيا.

والغُرفة: الدرجةُ الرفيعةُ أو الجنة، جعلهم اللهُ عز وجل أهلَ محبتِه، وأنزلهم أكرمَ المنازلِ فى الحياة الأبدية.

جعلنا الله منهم، وأعاننا بفضله على طاعته.....

من سورة سبأ:

٢٤١ - وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ

إنَّ الباطلَ لا قواعدَ له ولا أركان، ولا ثباتَ له أمام الحجةِ والبرهانِ وهذه العبارةُ القرآنيةُ بما فيها من إيجاز وإحكام وقوةِ دلالةٍ على المقصود اكتسبت صفةَ المثَلِ السائرِ بعد نزولها وشيوعِها يُضْرَبُ فى زُهوق الباطلِ واضمحلاله وانهياره أمام قوةِ الحقِّ وبرهانه، والإبداءُ هو فِعْلُ الأمرِ ابتداءً، تقول: أَبْدَأَ الشيءَ أى فَعلَه ابتداءً، أمَّا الإعادةُ فَفعلُه ثانيا، ولا يخلو الحىُّ عنهما، فعدمُهما كنايةٌ عن الهلاك بالكُلِّية، كما يقال: فلان لا يأكلُ ولا يشربُ، كنايةً عن هلاكه.

وقد جاءت هذه العبارةُ فى سياق الكلامِ عن بطلان الشركِ، ودحْضِ مزاعمِ الملاحدةِ فى إنكارهم النبوةَ، وإعراضِهم عن البرهان، وفى جحودهِم البعثَ للحساب والجزاء، فقد كانوا إذا تُليت عليهم آياتُ القرآنِ الكريمِ الواضحاتُ الدلالةِ على حَقِّيةِ التوحيدِ، وبطلانِ الشرك قالوا متهكِّمين بالنبى الأمينِ:

﴿مَا هَذَآ إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣]

أى: يَمنعَكُم ويصرفَكُم عن عبادة الأصنامِ التى هى ميراثُ الآباءِ والأجداد، ثم قالوا عن القرآن العظيمِ إنه كذبٌ فى نفسه مُفترًى على الله عزَّ وجل من حيث نسبتُه إليه ﴿وَقَالُوا مَا هَذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣]

ثم مثَّلوه بالسحْر جهْلا منهم، وإعراضًا عن التدبر:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[سبأ:٤٣]

وغَرَضُهم من ذلك الجمودُ على ما وَرِثوه من عقائدَ وأباطيلَ وما بيدهم دليلٌ يَشهدُ لهم بصحة ما هم عليه، فكان الواجبُ أن يبادروا إلى التفهم والتأملِ وطلبِ الحقِّ بدلا من المبادرة إلى الإعراض والإنكار ولذا تهكَّم بهم السياقُ وَجهَّلهم فقال: ﴿وَمَآ آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]

أى لم يَستندوا لمَا هم فيه من الشرك والضلالِ إلى كتاب سماويٍّ ولم يأتِهم به رسولٌ من عند الله، وإنَّ ما هم فيه محضُ زُورٍ وباطلٍ من اختراع الوهْمِ والهوى، وإن كفارَ قريشٍ إن كانوا قد غُروا بالقوة والمَنعة فإنهم لم يبلغُوا عُشْرَ ما أَعطَى اللهُ الأممَ السابقةَ مثلَ عادٍ وثمودَ من النعم وأسبابِ القوة، وفى هذا عبرةٌ لمن يَعتبر: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَآ آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ:٤٥]

والمعشارُ: العُشْرُ وهو الجزءُ من العشرة، وهو مَثَلٌ لضآلة حظِّ قريش إذا قِيس بحظوظ الأممِ السابقةِ فى بَسطة الجسم، وقوةِ الأبدان، وكثرةِ الأعوان، والأموالِ، فلمَّا كذَّبوا الرسلَ دمَّر اللهُ عليهم وللكافرين أمثالُها.

ثم أمر اللهُ نَبيَّهُ محمدًا ﷺ أن يتممَ الحجةَ على المشركين مُلخِّصًا ما ينبغى لهم أن يكونوا عليه فُرادى أو جماعاتٍ من الإخلاص لله عز وجل والتفكرِ فى أمر النبوةِ تفكرًا صحيحًا يعتمدُ على الدليل، ويرضخُ للبرهان، لا نازعًا منزعَ الهروبِ من الحق، وَضَرْبِ الأمثالِ للنبى بالسحرِ تارةً وبالجنون أخرى جريًا وراء الأهواء، ولنتدبر قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]

والوعظُ يتضمنُ الزجرَ يَقترِن به تخويفٌ، والتذكيرُ بالخير فيما يَرِقُّ له القلب، أى: إنما آمُركم وأنصحُكم وأُوصيكم بخصْلة واحدةٍ وهى توجيهُ الفكرِ والاجتهادِ نحو الحقِّ ودلائله راجين وجْهَ الله عز وجل وأن تتفكروا فى أمر نبيِّكم: هل جربتُم عليه كذبًا، أو رأيتم فيه جِنَّة، أو فى أحواله من فساد، أو اختلف إلى أحدٍ منكم مِمَّن يَدَّعى العلمَ بالسحر، أو هل تعلَّم الأقاصيصَ وقرأ الكتب، أو عرفتموه بالطمع فى أموالكم؟ إنه مَن تعلمونه أرجحُ الناس عقلا، وأصدقُهم قولا، وأفضلُهم علمًا، وأحسنُهم عملا، وأعظمُهم أمانة، وأجمعُهم للكمالات البشرية، فاجعلوا تفكيرَكم على أىِّ حالٍ كنتم جماعاتٍ أو فُرادى خالصًا لطلب الحق، فما محمدٌ إلا رسولٌ يُحذِّركم عقوبةَ الله فى الآخرة ويدعُوكم إلى ما فيه الخيرُ والصلاح.

إن الكلمةَ الواحدةَ التى وَعَظَ بها رسولُ اللهﷺ تقتضى نَفْىَ الشركِ وإثباتَ الإلهِ الواحدِ الذى لا معبودَ بحقٍّ سِواه، وإن القيامَ لله: يقتضى الإخلاصَ فى الطاعة طلبًا لمرضاته وحْده سبحانه لا للمراء ولا للرياء والتقليدِ الأعمى، وقوله: «مَثْنَى وَفُرَادَى» يقتضى أن تكونَ حالةُ الإنسانِ مع الجماعةِ أو منفردًا على أفضلِ وجهٍ من حيث معرفةُ الحقِّ والتمسكُ به وخلوصُ النيةِ والقصدِ، فمع الجماعةِ المشورةُ الصالحةُ والتعاضدُ على الخير، وفى حالة الانفرادِ توجيهُ الفكرِ فى آلاء اللهِ وآياته وبراهينِ وحدته، وطَرْدِ وساوسِ الشيطانِ، وخواطرِ السوءِ عن النفس.

إن الرسولﷺ ليس طالبَ دنيا، وإنما عملُه كان خالصًا لوجْه الله:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ:٤٧]

والمرادُ نَفْيُ السؤالِ أصلا، فهو لم يسألْهم جُعْلا على تبليغ الرسالةِ وهم يعلَمون ذلك، واللهُ شهيدٌ ورقيبٌ لا يخفى عليه شيءٌ من أعماله ولا من أعمالهم، فهو سبحانه يُجازى الجميع.

وإنَّ اللهَ عزَّ وجل يُلقِي الوحْيَ على مَن يَصطفيه من عباده متلبِّسًا بالحق، كما أنه سبحانه يقذفُ الباطلَ بالحقِّ فَيدمَغُه ويُزيلُه بالحجة والبرهان: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلامُ الْغُيوبِ﴾ [سبأ:٤٨]

وَإنَّ الحقَّ هو ما جاءكم به الوحْيُ، ودعاكم إليه رسولُ اللهﷺ، وبه يُكشف زيفُ الباطلِ وتُزْهَقُ روحُه، ويَظْهَرُ عَوَارُه وفسادُه، وتذهبُ ريحُه: ﴿قُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ:٤٩]

أى: مع الحقِّ ودلائله لاقرارَ للباطل ولا حياة، بل هو إلى زوالٍ تامٍّ لا يجدُ أربابُه حجةً تَسندُه، ولا دليلا يُقيمه، قال صاحب روح البيان: فَجُعِلَتْ الآيةُ مثلا فى الهلاك بالكُلِّية، ورُوى عن ابن مسعود أن النبىﷺ دخَل مكةَ وحول الكعبة ثلاثُمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنُها بعودٍ فى يده، ويقول: ﴿جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء:٨١]

﴿قُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾

لقد كانوا يقولون للرسول عليه السلام: تركتَ دينَ آبائك فضللتَ فقال له ربُّه: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ:٥٠]

أى وبالُ الضلالِ على صاحبه لا تَحمِلُ نفسٌ وِزْرَ نفسٍ أُخرى، وأمَّا

الهدايةُ إلى الحق فتأتى عن طريق الوحْيِ وبتوفيق اللهِ عزَّ وجل، أى: إنَّ كلَّ إنسانٍ مسؤولٌ عن عمله واختيارِه، وكما قالوا فى المثَل: كلُّ شاةٍ مُعلَّقةٌ برِجْلها.

وعند مُعاينة أهوالِ القيامة ومخاوفها يندمُ الكافرون، ويبادرون إلى التوبة وقبولِ الإيمان، وقد مَضَى زمنُ التكليفِ، فلا يُنجيهم إيمانُهم حينئذٍ من عذاب السعير:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ وَقَالُوٓا آمَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥١و٥٢]

أى: ولو ترى فزَعَهم عند البعثِ لرأيتَ أمرًا فظيعًا، ولا يَفلِتُ واحدٌ منهم من عقوبة اللهِ، إذ يُؤخذون جميعًا من موقف الحسابِ إلى نارِ جهنمَ وبئس المصيرُ.

وهناك يَصيحون: ربَّنا آمنَّا بما كفرْنا به من قبلُ، وأنَّى لهم قبولُ الإيمانِ والتوبة، والآخرةُ دارُ حسابٍ وجزاءٍ لا دارُ تكليفٍ وعملٍ؟.

والتناوشُ هو التناولُ السهلُ، يقال: تناوش الشىءَ أى تناولَه وحصَل عليه بسهولة: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فيه استبعادٌ واستحالةٌ فقد انقطع ما بين الدنيا والآخرة، فَمِن أين لهم الحصولُ على الإيمان وقبولُ التوبةِ من الكفْر، وهذا من أعمال الدنيا وهى دارُ التكليف، وقد صارت بعيدةً عنهم كلَّ البُعد.

وقد مُثِّلَ حالُهم فى هذا المشهدِ الأخروىِّ، وهم يطلبون بإيمانهم فى هذا الوقت الخلاصَ من العذاب بحالِ مَن يُريد أن يتناولَ الشىءَ من ظرْف أو مكانٍ بعيد جدًّا عنه، فأنَّى له ذلك؟.

إنهم يُبادرون إلى الإيمان والتوبةِ لمَّا رأوا العذاب، وقد دُعوا إليه فى الدنيا فأبَوا، لذا وبَّخهم السياقُ على ما كان منهم: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٣]

من قبل: أى فى وقت التكليف، وقد كانوا فى الدنيا يَرجُمون بالظنِّ ويتكلَّمون بالتخمين فى حق الله فينسبون إليه تعالى الشريكَ والولد ويقولون: لا بعثَ ولا حسابَ ولا جزاء، ويَضربون الأمثالَ للقرآن فيقولون: سحرٌ وشعرٌ وأساطيرُ الأولين، وللرسول فيقولون: ساحرٌ وكاهنٌ، وشاعرٌ وغيرُ ذلك ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أى من جهةٍ بعيدةٍ عن أمْرِ مَن تكلَّموا فى شأنه وبعيدةٍ عن الحق والصدق، وقد مُثِّلَ حالُهم فى ذلك بحالِ مَن يَرمى شيئًا لا يراه من مكان بعيد لا مجالَ للظن فى لُحوقه، فكلُّ ما قالوه فى القرآن، وفى النبى ﷺ بعيدٌ كلَّ البُعدِ عمَّا يَليقُ به.

وقد أكَّد السياقُ أنَّ إيمانَهم فى الآخرة لم ينفعهم

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ:٥٤]

أى: وبين ما يُريدون من نفع الإيمانِ والنجاةِ من النار، وقد ماتوا على الكفر والجحود ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ:٥٤]

أى: إنها سنةُ الله عز وجل فى الأمم التى كَذَّبت وعاندتْ مثلِ عادٍ وثمودَ وغيرِهما، لأنهم جميعا كانوا على نَمَطٍ واحدٍ من الشك فى التوحيد والبعث والجزاء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ:٥٤]

أى فى شكٍّ واضحٍ جَلىٍّ، فكيف ينفعُهم اليقينُ فى الآخرة وقد فارقوا دارَ التكليف؟.

إن العاقلَ هو من نظَر فى الدليل، وتفكَّر فى البرهان، وأَذْعن للحق وصَدَّق الرسل. والله أعلم،،،

من سورة الأنفال:

٢٤٢- دروسٌ من سُورة الأنفالِ

أَمَر اللهُ سبحانه وتعالى المؤمنين بطاعته وبطاعة رسولهﷺ، وزجَرهم عن مخالفة أمرِه، وعن تنكُّبِ طريقِ نبيِّهم يتشبَّهون بالكافرين به، المعاندين له فقال من سورة الأنفال: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الآية: ٢٠]

والتَّولِّى الإعراضُ والابتعادُ عن طريقهﷺ، وفيه تنبيهٌ إلى أن طاعةَ الله إنما تكون بطاعة رسوله، والحالُ أن المؤمنين يسمعُون القرآنَ الناطقَ بوجوب طاعتِه، والمواعظَ الزاجرةَ عن مخالفته، كما فى قوله تعالى من سورة النور: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الآية: ٥٦]

فقد أوجب علينا طاعةَ الرسولِ الكريمﷺ إذ هى سببٌ لرحمة الله بعباده، ومَن أطاع الرسولَ واتَّبعه فقد أطاع ربَّه والتزم أوامرَه، وتجنَّب مناهيَه كما جاء بيانُه فى سورة النساء: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الآية: ٨٠]

أى فما أرسلناك حافظًا ورقيبًا عليهم، تحفظُ أعمالَهم وتُجازيهم عليها، إنما أنت نذيرٌ مبلِّغٌ عن ربك.

وفى التحذير من مخالفتهﷺ يقول سبحانه من سورة النور:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الآية: ٦٣]

ففى مخالفة أمرِ اللهِ ورسولِه يكون البلاءُ فى الدنيا والعذابُ فى الآخرة.

ثم حَذَّر سبحانه عبادَه المؤمنين من التشبه بالمخذولين من الكفار والمنافقين فى أنهم لا يسمعُون القرآنَ سماعَ فهْمٍ وتدبرٍ وتصديقٍ ويظهرُ أثرُ ذلك فى اتخاذهم طريقًا غيرَ طريق رسولِ اللهﷺ فقال:

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]

أى: وهم لا يسمعون للقبول، وإنما سَمِعوا للصدِّ والإعراضِ عنه كالكفار الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦]

وكالمنافقين الذين يَدَّعُونَ السماعَ والقبولَ بألسنتهم، ويضمرون الكفرَ والتكذيب.

ثم أخبر سبحانه أن هذا الضربَ من بنى آدمَ شرُّ الخلْق والخليقةِ فقال:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]

أى: إنَّ شرَّ ما يَدِبُّ على الأرض أو شرَّ البهائم فى حُكم قضائه سبحانه هم الذين لا يسمعون الحقَّ سماعَ تدبُّرٍ وإنعامٍ وتفهُّمٍ للآيات والبراهين، ولا ينطقون بالحق والدعوةِ إليه وإظهارِ الإيمان به، ولهذا ﴿لا يَعْقِلُونَ﴾ الحقَّ، ويَحرِمون أنفسَهم خيرَه ورحمتَه.

لقد عدَّهم المولى من البهائم على سبيل التمثيل، ثم جعلهم شرَّها لإبطالهم ما مُيِّزوا به، وفُضِّلوا لأجله، وإنما وصفَهم بعدم العقل، لأن الأصمَّ الأبكمَ إذا كان له عقلٌ ربَّما يفهمُ بعضَ الأمور، ويهتدى بذلك إلى بعض مطالبِه، وأمَّا إذا كان فاقدًا للعقل أيضًا، فهو الغايةُ فى الشر وسوءِ الحال.

يقول ابنُ كثير: فهؤلاء شرُّ البريَّة، لأن كلَّ دابةٍ مِمَّا سِواهم مطيعةٌ لله فيما خلقَها له، وهؤلاء خُلقوا للعبادة فكفَروا، ولهذا شبَّههم بالأنعام فى قوله سبحانه: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]

ثم أَخبر سبحانه بأنهم لا فهْمَ لهم صحيح، ولا قصدَ لهم صحيح لو فُرِضَ أن لهم فهمًا، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُم﴾ [الأنفال: ٢٣]

أى: لأفهمهم ولعرَفوا حقيقةَ الرسولِ وأطاعوه وآمنُوا به، وتقديرُ الكلام: ولكنْ لاخيرَ فيهم فلم يُفْهِمْهُم، لأنه سبحانه يعلمُ أنهم كما قال فيهم: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]

أى: لو أفهمهم لتولَّوا على أدبارهم والحالُ أنهم معرضون عمَّا سَمِعوه بقلوبهم لعنادهم.

إن قلوبَهم مُعرِضةٌ لشدةِ عنادهم، ونفورِ نفوسِهم من الخير والحق، ومهما سَمِعوا من النصيحة والبيانِ والدليلِ والبرهانِ فإنهم لا ينتفعون لخلوِّ بواطنِهم من الاستعداد لذلك، وواجبُ أهلِ الإيمانِ ألا يكونَ فيهم شَبَهٌ من هؤلاء الهالكين، ولْيحذَروا مخالفةَ أمر الرسولﷺ ومعصيتَه، إذ كلُّ ما أمَر به النبىﷺ أو نَهَى عنه فيه حكمةٌ ومصلحة، ويَلزمُنا الطاعةُ والانقياد، واتباعُ سنته الهادية، وطريقته المَرْضيَّة، واعْلم ياذا اللبِّ أنه لا يُمكنُك الوصولُ إلى خيرى الدنيا والآخرة إلا بأمرين: أحدُهما بمحبتهﷺ، وبأنْ تُؤثِرَ حُبَّه على نفسك وأهلك ومالك، والثانى: بمتابعتهﷺ فى جميع ما أمر به ونهَى عنه، وبكمال متابعتك يحصلُ لك الارتفاعُ إلى أوج الكمالِ الإنسانىِّ، ومن علامات محبتِه حبُّ القرآن

وحبُّ تلاوته وتَدبُّره، وإلا كنتَ من المُعرضين عن سلوك طريقته ﷺ.

ثم أمر اللهُ عز وجل عبادَه المؤمنين أن يُجيبوا اللهَ ورسولَه بأن يُطيعوهما وينقادوا لأمرهما، لأنَّ فى ذلك حياةً حقيقيةً للقلوب، ونورًا للأفئدة والبصائر، به تَعْرِفُ الخيرَ من الشر، وتَميزُ الخبيثَ من الطيب، وتُدركُ محاسنَ الأخلاق، وسبلَ الحياة المطمئنة، ولنتدبر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]

﴿اسْتَجِيبُوا﴾ معناه: أَجيبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُم﴾ أى: يُصلِحُكم وذلك يَقتضى الإيمانَ بالحق، وبالقرآن، ففيه النجاةُ والتُّقاةُ والحياةُ، وفى الإسلام إحياءُ القلوبِ بعد موتها بالكفر، وفى العلم حياةٌ، ففى العلوم الدينيةِ حياةُ القلبِ وفى الجهل موتُه كما جاء فى المثل الحكيم:

لا تُعجبَنَّ الجهولَ حُلَّتُه ... فذاك مَيْتٌ وثوبُه كَفَن

وفى الأثر: «إنَّ اللهَ لَيُحيى القلبَ الميِّت بالعلم، كما يُحيى الأرضَ الميتةَ بوابلِ المطر» والإحياءُ هنا على سبيل الاستعارةِ لأن تمامَ انتفاعِ الإنسانِ بما وُهبَ له من وسائل الإدراكِ والفهمِ والتمييزِ إنما يكونُ بالإيمان الصحيحِ، وبالعلمِ بالله عز وجل وبما له من صفات الكمالِ ونعوتِ الجلال والجمال، وبالإذعان لأمره، وطاعةِ نبيِّه، والقلبُ الخالى من ذلك لا خيرَ فيه، ولا منفعةَ حقيقيةً منه، فكأنه ميت.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]

إنَّ كلَّ ما حجَز بين شيئين فقد حال بينهما ، وهو تمثيلٌ لغاية قُربه سبحانه من العبد ، وهو أقربُ إلى قلبه منه ، لأنَّ ما حال بينك وبين الشىءِ فهو أقربُ إلى الشىء منك.

وفى الآية حَثٌّ على المبادرة إلى إخلاص القلوبِ وتصفيتِها قبل أن يحولَ اللهُ بينه وبين القلبِ بالموت، كأنه قيل: بادِرْ إلى تكميل النفسِ قبل فوات الفرصةِ فإنها قد تفوتُ بأن يُحْدِثَ اللهُ أسبابًا لا يتمكَّنُ العبدُ معها من تصريف القلبِ فيما يشاؤه من إصلاح أمرِه فيموتَ غيرَ مستجيب لله ورسوله.

ويُحتمَلُ أن يكونَ المعنى المرادُ بالحيلولة فى الآية تصويرَ تملُّكه سبحانه وتعالى قلبَ العبدِ وغلَبَته عليه ، فيفسخُ عزائمَه ، ويغيرُ نياتِه ومقاصدَه ولا يُمكِّنُه من إمضائها على حسب إرادتِه هو ، فيحولُ بينه وبين الكفرِ إن أراد سعادته، ويحولُ بينه وبين الإيمانِ إن قَضَى شقاوتَه، وكانﷺ يقول كثيرا: «يا مقلِّبَ القلوبِ ثَبِّتْ قلبى على دينك» [رواه أنس وأخرجه أحمد فى مسنده] وجاء مِثْله عن أمِّ سلمةَ عند أحمد، وفيه: «قلتُ: يا رسولَ الله، أوَ إنَّ القلوبَ لتَقَلَّبُ، قال: نَعم، ما خلقَ اللهُ من بشرٍ من بنى آدمَ إلا أن قَلبَه بين أصبعَين من أصابع اللهِ عز وجل ، فإنْ شاء أقامه وإن شاء أزاغه ، قالت: قلتُ يا رسولَ الله: ألا تعلِّمُنى دعوةً أدعُو بها لنفسى؟ قال: بلى، قولى: اللهم ربَّ النبىِّ محمدٍ، اغفِرْ لى ذنبى وأذهِبْ غيظَ قلبى، وأَجِرْنى من مُضِلات الفتنِ ما أَحييتنى» فنسأل الله عز وجل ألا يُزيغَ قلوبَنا بعد إذ هدانا، ونسألُه أن يهَبَ لنا من لدنه رحمةً إنه هو الوهاب.

وجاء عن ابن عباس فى تفسيره: إن الله يحولُ بين المؤمنِ والكفر، وبين الكافرِ والإيمان، وقال السدِّى: يحول بين الإنسانِ وقلبِه فلا يستطيعُ أن يؤمنَ ولا يكفرَ إلا بإذنه.

ثم بَيَّن الله لعباده أنهم إليه راجعون، وأنهم مجزيُّون بأعمالهم إنْ

خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ؛ ليكونوا على بصيرة من أمرهم، وليتقُوا العذابَ باتباع نبيِّه وطاعته ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]

ثم حَذَّر اللهُ عبادَه من الفتن وقانا اللهُ شرَّها التى تتأتَّى من التهاون فى طاعة الله عز وجل، والانحراف عن الصراط المستقيم، فيشيعُ المُنكَر وتَظهُر البدعُ وتفشو، وتفترقُ الكلمةُ، ويتكاسلُ أهلُ الإسلامِ عن الدعوة إلى الحق وعن الجهاد فى سبيلِ الله، ويَظلِمُ الناسُ أنفسَهم بالشبهات والوقوعِ فيما حَرَّم اللهُ وغيرِ ذلك من مُضِلات الفتَنِ التى تكون سببًا فى النِّقمة العامة، وحلول غضبِ الربِّ، قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]

جاء عن عائشةَ رضى الله عنها أن رسول اللهﷺ قال: «إذا ظَهر السوءُ فى الأرض، أنزل اللهُ بأهل الأرضِ بأسَه، قالت: وفيهم أهلُ طاعةِ الله؟ قال: نعم، ثم يَصيرون إلى رحمة الله» أخرجه أحمد فى مسنده.

فتأمل ما يَجرى فى الأرض مِصداقًا لِمَا جاء به الوحْىُ واسألِ اللهَ العفو والعافية والسكينة والسلام للناس جميعا.

❄ ❄ ❄

٢٤٣- أ - لقمان

فى القرآن الكريم سورةٌ مكيةٌ آياتُها أربعٌ وثلاثون سُميت باسم لقمان، وقد أشادت السورةُ به، ووصفتْه بالحكمة، وقد أُمِرْنا نحن المسلمين بتدبُّرحكمةِ لقمانَ وأمثاله، والاتعاظ بها، والعملِ بمقتضاها.

ويُضرب المثلُ بلقمانَ القرآنىِّ فى الحكمة، وسدادِ الرأى، والجمعِ بين العلم والعمل، وهو بين الحكماءِ نسيجُ وحدِه.

لقمان بنُ عاد

وقد وَعَى تاريخُ الأدبِ العربىِّ للعصر الجاهلىِّ شخصيةً أُخرى سُميت باسم لقمان، ويُضرَبُ به المثلُ فى شدة البنيةِ، فيقال: أشدُّ من لقمانَ العادىِّ، أى المنسوبِ إلى عاد، وقد أسبغ عليه الرواةُ صفاتِ البطلِ الأُسطورى، سواءٌ فى قوة بدنه، أو حدةِ بصَره، أو ضخامةِ رأسِه، وطولِ قامته، أو فى كثرة أكْله، أمَّا عمرُه فقد بلغ عند بعضِ الرواة نحو ثلاثةِ آلافِ سنة وخمسمائةِ سنة، ونَسبوا إليه بناءَ سدِّ مأرِب، [١]فهو من عربِ الجنوب، ولعله أشهرُ حكيم من حكماء الأمثال عرفه العربُ قديما، ومن الأمثال التى وردت على لسانه «اترك الشرَّ كما يتركَك» يقول أبو هلال العسكرى: المثل للقمان بنِ عاد، قاله لابنه، وكما لغةٌ فى كيما [٢]ومن أمثاله أيضًا: رُبَّ أخٍ لك لم تلدْه أمُّكَ: وقولُه: آخرُ الدواءِ الكَى، وقولُه: المَبيتُ على الطَّوى حتى تنالَ به كريمَ المأوى خيرٌ من إتيان ما لا تَهوى، وقوله: كلُّ امرئٍ فى بيته أمير.

(١) معجم البلدان ٧/ ٣٥٤

(٢) عن كتاب الأمثال فى النثر العربى القديم للدكتور عبد المجيد عابدين[٤٧]

وقيل: سأل لقمانُ العادىُّ ربَّه أن يرزقَه عُمْرَ ثلاثةِ أنسرٍ وقيل سبعة، فأُجيب دعاؤه، وكان وقتئذ فى مكةَ المكرمة مع وفدٍ من قومه ليستسقوا لقومهم فى الأرض الطاهرة، فكان لقمانُ يأخذ فرخ النَّسر من وَكْره، فلايزال عنده فى مكان أمينٍ بالجبل، فيعيش الفرخُ خمسَمائة سنةٍ أو أقلَّ أو أكثر، فإذا مات أخذ آخَرَ مكانه، حتى هلكت كلُّها، وكان آخرَها لبدٌ، وكان أطولَها عمراً، فضربت العربُ به المثل: فقالوا: طال الأمدُ على لُبد، وقالوا: أكثرُ من لُبد، يقول النابغة متمثلا بلبد:

أضحتْ خلاءً وأضحى أهلُها احتملُوا
أخْنى عليها الذى أخْنى على لُبَد

ومهما طال عمرُ الإنسان، فكلٌّ آتٍ قريب، والموتُ لا منجاةَ منه ولا مهرب، ومن تأملات الأعشى فى قصة لقمان العادى يقول:

فعُمِّر حتى خال أنَّ نسوره خلودٌ وهل تَبقى النفوسُ على الدهر؟

لقد كانت نفسُه متعلقةً بالدنيا، فلمَّا لَمْ يبق غيرُ النسر السابعِ قال له ابنُ أخٍ له: يا عمّ ما بَقِى من عمرك إلا عمرُ هذا النسر؟ فقال لقمان: هذا لبد، ولبد بلسانهم يعنى الدهر، فلمَّا انقضى عمْرُ لبد رآه لقمانُ واقعا، فناداه: انهضْ لبد، فذهب لينهضَ فلم يستطع، فسقط ومات ومات لقمانُ معه، فضُرب به المثل: فقيل: طال الأبدُ على لُبد، وأتى أبدٌ على لبد.

تلك لمحةٌ عن لقمانَ الجاهلىِّ الذى نُسجت حول حياتِه قصصٌ أضفت على شخصه شيئا من التفرد بمزايا بدنيةٍ وعقليةٍ إلى جانب الميلِ إلى البناء وإنشاءِ المدن، وفى شِعر الجاهليين والمخضرمين لمحاتٌ من هذا القصص الذى بلغ حدَّ الأسطورة، وجاءت أخبارُه فى كتب الأدبِ والأمثال وعُنى به كثيرٌ من الباحثين قديما وحديثا، ولكنهم لم يُقدموا رأيا جازما بشأن

تلك الصورةِ الأسطوريةِ للقمانَ الجاهليِّ، وإن كانوا اجتهدوا فى التعرف على نسَبه، وموطِنه، وجَمْعِ ما نُسب إليه من الأمثال أو ما قيل منها فى ثنايا القَصص المتعلقِ به، ونجدُ طائفةً منها فى مجمع الأمثال للميدانى وغيرِه من الكتب.

ولقد تردد ذكْرُ اسمِ لقمانَ فى صدر الإسلامِ فيما أذاعه كعبُ الأحبار من أخباره، كما أن سُويد بنَ الصامت قَدِم إلى مكةَ المكرمةِ وعرَض على الرسول محمدﷺ مجلةَ لقمان، ومعنى ذلك أن شيئا من الحِكَم والأمثالِ المنسوبة إليه كان مدوَّنا مكتوبا، وكان سويدٌ ممن قرأوا الكتبَ فى الجاهلية، وكان من أهل المدينة، يقول الدكتور عبد المجيد عابدين فى كتابه: «الأمثال فى النثر العربى القديم»: ولسنا نعرف شيئا محقَّقا عن مدى الصلةِ بين حكمةِ لقمانَ التى وردت فى القرآن الكريم، وبين ما احتوته مجلةُ لقمان، وليس لدينا دليلٌ واحدٌ على أن لقمانَ الذى عرفه سويد بنُ الصامت وأشباهُه هو لقمانُ الذى حكى عنه القرآن.

لقمان الحكيم:

إن لقمانَ الحكيمَ الذى أشاد به القرآنُ وأثنى عليه ربُّه لصلاحه وحكمتِه غيرُ لقمانَ العاديِّ الجاهلى الذى كانت نشأتُه فى جنوب الجزيرة، ووعتِه ذاكرةُ تاريخ الآداب العربية، ولقد اضطربت الأقوالُ فى تحديد نسبِ لقمان الحكيم الذى حكى القرآنُ الكريم حكمتَه وأمثالَه، كما اختلفوا فى تحديد موطنه، وذهبت الرواياتُ فى ذلك كلَّ مذهب لِقدَم العهد، وعدمِ وجودِ روايةٍ قاطعةٍ بهذا الشأن، والظاهرُ من أقوال الصحابة والتابعين كابن عباس وجابرِ بنِ عبد الله وسعيدِ بنِ المسيب ومجاهد وغيرِهم أنه كان من السودان، وكان صاحبَ حرفة، ومن ثم نسَبَتْهُ بعضُ الرواياتِ إلى الحبشة، وبعضُها إلى النوبة، وقد ذهبت بعضُ الروايات إلى أنه كان

من بنى إسرائيل، وأنه ابنُ أختِ داودَ النبى عليه السلام، كما رَوى وهبُ ابنُ منبه، ويقول ابنُ قتيبه: إن لقمان الحكيمَ كان فى زمن داودَ النبىِّ عليه السلام ولم يكن نبيا فى قول أكثرِ الناس، وفى رواية أنه عاش ألفَ سنة وأدرك داودَ النبى عليه السلام، وأخذ منه العلم، وكان يُفتى قبل مبعث داودَ فلمَّا بُعث قطَع الفتوى، وترك ذلك لنبى الله داود، وجاء عن ابن عباس: أنه كان مملوكا يرعى الغنمَ وقد رزقه اللهُ العتق، ورَضِى قولَه ووصيتَه فقص أمرَه فى القرآن لتَمَسَّكوا[1] بوصيته.

هذا بعض ما جاء فى نسب لقمانَ الحكيم وموطنِه وحرفتِه وقد ذهب المفسرون والرواةُ والمجتهدون فى ذلك مذاهبَ شتى، وإن عنايةَ القرآنِ الكريم بتقديم لقمانَ الحكيمِ وفكْرِه ومسلكِه للناس إنما تأتى من قَبيل تربية النفوس، وتقويمِها، وردْعِها عن الشر والشرك، وحضِّها على التزام العقيدةِ الصحيحة، والتحلى بمكارم الأخلاق، واختيار النمط الأوسطِ فى الفِكْر والفضائلِ والمسلكِ بلا إفراط ولا تفريط ليكونَ الإنسانُ صالحًا على أفضلِ وجهٍ لعمارة الحياةِ الدنيا، ولتصحَّ نظرُته إلى الإنسان وإلى الكون المحيط به، ولإعداد نفسه للنجاة فى اليوم الآخر والفوز بجنات النعيم، فلقمانُ الحكيمُ نموذجٌ بشرىٌّ ارتقى فى مدارج الكمال الإنسانىِّ بجانبيه الروحى والمادى، والعقلىِّ والمعنوى، وسَلِمَت نفسُه من الدنايا وعلا بفكره وهمته عن مُحقَّراتِ الأمور، وكان من القدوة الصالحةِ للمربين، ومعلمًا للحكماء، وداعيا إلى الله على بصيرة وهُدًى، إنه نموذجٌ من نماذج الإنسانية الفاضلة، وإن قِيَمَه صالحةٌ لكل الناس، باقيةٌ ما بقى الزمان، لأنها مستمدَّةٌ من دين الله عز وجل، قائمةٌ على البرهان مستندةٌ إلى الدليل يقبلُها العقلُ السليم، والذوقُ الرفيع.

(١) أى: لتتمسكوا «بحذف إحدى التائين»

لقد كان لقمان الحكيمُ عبداً كثيرَ التفكير، حسَنَ اليقين، أحَبَّ اللهَ فأحبه، فمنَّ عليه بالحكمة، وهى إصابةُ الحقِّ باللسان، وإصابةُ الفكر بالجَنان، وإصابةُ الحركة بالأركان، إن تكلَّم تكلَّم بحكمة، وإن تفكَّر تفكَّر بحكمة، وإن تحرَّك تحرك بحكمة، فهو عبد ربانىٌّ يتحرى الصوابَ فى منطقه، والسدادَ فى أفعاله، ويُخضِعُ جوارحَه لأمر مولاه عز وجل ويُدئبها فى خدمته سبحانه، قد جمع بين العلم والعمل، بين صحة العقيدة، وصوابِ الفعلِ، وصدقِ اللسان، والنظرِ فيما يَعنيه، والأمرِ بالمعروف، والنهى عن المنكر، شغَله التفكرُ فى العاقبة عن التعلق بزينة الحياة الدنيا، وطلبِ المنزلة فيها، وهؤلاء هم مصابيحُ الدُّجى، يُبلِّغون رسالاتِ الأنبياء، ويُلزمون أنفسَهم بهداية السماء، منهم يُرتجى الخير وفى مناهجهم السلامةُ من السوء والشر، مَن عرف طريقَهم فقد عرف، ومن سلكها كان من أهل العافية.

ومما يُؤثر من وصاياه الحكيمة: إن كنتَ فى الصلاة فاحفظْ قلبَك، وإن كنت فى الطعام فاحفظ حلقَك، وإن كنت فى بيتِ الغير فاحفظ عينيك وإن كنت بين الناس فاحفظ لسانَك. واذكُر اثنين، وانْسَ اثنين، أما اللذان تذكرهما: فاللهُ، والموت، وأما اللذان تنساهما: فإحسانُك فى حق الغير، وإساءةُ الغير فى حقك.

إن الذى عرف جميعَ الأشياء ولم يعرف الله لم يستحق أن يُسمى حكيما ـ كما يقول الإمام الغزالى ـ لأنه لم يعرف أجلَّ الأشياء وأفضلَها، والحكمةُ أجلُّ العلوم، وجلالةُ العلمِ بقدر جلالة المعلوم، ولا أجلَّ من الله، ومَن عرف اللهَ فهو حكيم. وكما أن القلبَ مهبطُ الوحى، فكذلك هو مهبط الحكمة، كما قال تعالى ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]

٢٤٤ - ب - دعوة إلى التدبّر

فى صدر سورةِ لقمانَ جاء بيانُ حالِ نموذجين متضادين من البشر.

أَوَّلُهما: على بصيرة وبيِّنة، ومنهجٍ واضحٍ جَلى، فى نور الإيمانِ الصحيح يمشى، وبتوجيه الكتابِ الحكيم يَسير على هُدًى ورشاد والنموذجُ الآخر: مُعرِضٌ عن الانتفاع بكتاب الله، مقبلٌ على اللهو والباطل، مستهزئٌ بالحق، مستكبرٌ عن الاستماع لكلام الله، فهو فى ظلام الشركِ يعيش، وبتوجيه الهَوى يتخبَّط فى الحيرة والضلال.

ولنتدبر: ﴿**الٓمٓ ۞ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۞ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ**﴾ [لقمان: ١-٥]

﴿**الكتابِ الحكيم**﴾ أى ذى الحكمة، أو المُحكم المحروسِ من التغيير والتبديلِ والممنوعِ من الفساد والبطلان، وقد جعله الله ﴿**هُدًى**﴾ من الضلالة ومُخرِجًا من الحيرة ﴿**ورحمةً**﴾ من العذاب، ينتفعُ به أهلُ العقلِ والحكمة الذين أحسنوا الاختيارَ باتباع الشريعة، والتزامِ حدودِها فأدَّوْا الفرائض، واجتهدوا فى الطاعات والقُربات، وأيقنوا بالبعث والجزاء، فَأخلصوا الطاعة لله، ورَغِبوا فيما عنده من الرحمة، إنهم لذلك أهلٌ للكرامة بفضل الله، يَهديهم فى دنياهم إلى كل خير، ويُنيلهم رحمتَه فى الدار الآخرة، لاستجماعهم العقيدةَ الصحيحةَ والعملَ الصالح.

وفى مقابل هؤلاء الصالحين الذين أحسنوا الظنَّ وأحسنوا العمل

رَسَمت الآياتُ صورةً واضحةَ الخطوطِ للساعين فى الأرض بالفساد إنهم الذين يختارون لهْوَ الحديث، ويُقبلون على مجالسِ الباطل، ويُروِّجون لذلك ليشغلُوا الناسَ عن الحق، ويصدُّوهم عن طاعة الله واتباعِ رسوله، وإذا وعظَهم واعظٌ وتلا عليهم آياتِ الله، أعرضوا كأنَّ فى آذانهم صممًا، وتعظَّموا عن الانقياد، وسَخِروا وتهكَّموا، ولنتدبر هذه الصورةَ الحيةَ فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ عن سَبِيلِ الله بِغَيْرِ علْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزوا أُولَئِكَ لَهُم عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٦ـ٧]

لقد وقع ذلك فى عصر النبىﷺ وهذا النموذجُ الخبيثُ موجودٌ فى كل عصر.

وتأمل التعبيرَ بالاشتراء عن الاختيار، وما فيه من تجسيم للأمر المعنوىِّ الذى يُدرَكُ بالعقل وكأنه ماثلٌ للعيان والحسِّ على سبيل الاستعارة، مما يُبرز حرصَ هؤلاء المفسدين على الباطل وإقبالِهم على اللهو، كما يَحرص المشترى على اقتناء الشىءِ النافعِ النفيس، ويَبذلُ للحصول عليه من ماله ووقته وجهدِه ما يبذل، وإن الذى يشترى التَّافهَ والضارَّ أحمقُ سفيهٌ يضعُ الأمورَ فى غير مواضعها، لذا فهو أهلٌ للإهانة فى دار يَشقَى فيها أبدًا: ﴿أُولَئِكَ لَهُم عذابٌ مُّهِينٌ﴾ فَمُروِّجُ الباطلِ يضرُّ بنفسه ويضرُّ بغيره، جاء عن قتادة: اشتراءُ لهْوِ الحديث معناه استحبابُه أى: يختار حديثَ الباطل على حديث الحقِّ؛ ولذا قال ﴿بِغَيْرِ علم﴾ أى لَمَّا كان مشتريًا اللهوَ وفضولَ الكلامِ وباطلَه بالقرآن، فهو مشترٍ بغيرِ علمٍ بالتجارة وبغير بصيرةٍ بها، حيث يشترى الشرَّ بالخير، والضلالَ بالهُدى

والباطلَ بالحق، والدونَ بالنفيس الغالى، وهذا تصرفُ السفهاء.

ثم تأمل الصوت فى ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ مع ما فيه من رغبةِ الداعى فى إنقاذه، وتوجيهِه نحو الخيرِ والهُدى والبِرِّ، وتأمل الحركة فى ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ فى التعبير عن الإعراض عن الحق وعدمِ الإذعان للبرهان، وكأنَّ الداعِىَ يَضرِبُ فى حديدٍ بارد، ثم تأمل ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وما فيه من تهكُّم إذِ البُشرى تكون فى الخير، وقد جاءت مع الوعيد بالعذاب على سبيل التهكمِ والتقريعِ للمُصِرِّ على العصيان الـمُقبلِ على الباطل.

أمَّا أهلُ الإيمان والعملِ الصالح فيبشِّرُهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٨ـ٩]

أى: «العزيزُ» الذى لا يَغلبه شىءٌ ولا يُعْجِزه «الحكيمُ» الذى لا يشاء إلا ما تُوجِبُه الحكمةُ والعدلُ، ولا يفعلُ إلا ما تقتضيه المصلحة.

برهان على كمال القدرة

ثم قدَّم السياقُ برهانًا على العزة والقدرةِ الكاملة، ودليلا على كمال الحكمة فى خلْق الأشياء جليلها وحقيرِها، كبيرِها وصغيرِها، عُلْوِها وسُفْلِها، ولنتدبر: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]

فنحن نرى السماء فوقنا غيرَ مَعمودةٍ مع مافيها من الكواكب والنجوم، ونعيشُ على أرضٍ نَرى فيها من عجائبِ الخلْقِ وبديعِ الصُّنع ما يُدهش العقول، ويُحير الألباب، وإن الحكمةَ ظاهرةٌ فى خلق الجبال

إذ لولاها لاضطربت الأرض، وماهنِئَ أحدٌ بعيش، كما أننا نرى من ذى الروح أنواعًا وأشكالا وألوانًا وأحجامًا ومسالكَ وطرقَ معيشةٍ ما يدعو إلى التفكر والتأمل، وفى ذلك براهينُ على قدرة الخالقِ العظيمِ الذى أعطى كلَّ شىء خَلْقه ثم هَدَى، وأدلةٌ على وحدانيته سبحانه، وتفرده بالخَلْق والإيجاد، واستحقاقه وحده للعبادة والطاعة، وإنَّ عقولَ العقلاء مازالت قاصرةً متحيِّرةً فى أمر النباتات، والأشجارِ وعجائبِها وخواصِّها ومضارِّها ومنافعِها، كما هى متحيرةٌ فى أمرِ كلِّ ذى روح فى البر والبحر، ونحن نشاهد اختلافَ أشكالِ النباتات، وتباينَ ألوانِها وعجائبَ صُور أوراقِها وروائحِ أزهارها، وكيف ينقسم كلُّ لون إلى أقسام، كما نشاهد عجائبَ أشكال الثمار والحبوب والأوراقِ، ولكلِّ لونٌ وريحٌ وطعم وثمرٌ وزهرٌ وحَبٌّ وخاصيةٌ لا تشبه الأخرى، ولا يعلم حقيقةَ الحكمةِ فيها إلا اللهُ عز وجل المتفردُ بالعظمة والجلال، والذى وصل إليه الإنسانُ من المعرفة بعالم الحيوان والنباتِ بالنسبة إلى ما لايعرفه كقطرةٍ من بحر، أو كذرةِ رملٍ فى صحراءَ مترامية الأطراف.

إن هذه المخلوقاتِ دقيقَها وعظيمَها تنطقُ بلسان فصيح: إنَّ لى خالقًا خلقنى، ومُوجدًا أَوْجدنى على مقتضى حكمته وإرادته وحده، وبفضله وإحسانه جعل فى هذه المخلوقاتِ من آيات الرحمةِ بذوى العقل، ما يوجبُ عليهم الإذعانَ، والإقرارَ بالوحدانية، وإخلاصَ الطاعة له وشكرَهُ وحمدَهُ.

وفى قوله ﴿وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ﴾ تصويرٌ لعظمته سبحانه، وتمثيلٌ لكمال قدرته، فقد شَبَّه الجبالَ الرواسِىَ الثوابتَ استحقارًا لها واستقلالا لعددها ـ وإن كانت خلْقًا عظيمًا ـ بحَصَياتٍ قَبَضَهُنَّ قابضٌ

بيده، فنَبْذَهُنَّ فى الأرض، وإن كلَّ فِعْلٍ عظيمٍ تتحيَّر فيه الأذهانُ فهو هيِّنٌ عليه، سبحانه: يقول للشىء كن فيكون.

ثم أكد السياقُ برهانَ الوحدانية والقدرةِ الذى تشهد به مخلوقاتُه فى السموات والأرضِ وما بينهما تأكيدًا لتنزُّهه عن الشريك والولدِ والصاحبةِ فقال: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ﴾ [لقمان: ١١]

أى: هذا الذى ذكَره تعالى صادرٌ عن فِعْل اللهِ وخلْقه وتقديرِه وحده لا شريكَ له فى ذلك، ثم جاء التحدى والتعجيزُ والتهكمُ والتبكيتُ فى قوله: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]

أى: فأرونى ماذا خلقته آلهتُكم التى اتخذتموها من دون اللهِ حتى استوجبوا عندكم العبادة، ثم أَضْرَبَ عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذى لا يخفَى على عاقل: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]

أى: فى ذَهاب عن الحق بيِّنٍ واضح.

واعلمْ ـ ياذا اللب ـ أنَّ التوحيد أفضلُ الفضائل، كما أن الشركَ أكبرُ الكبائر، وللتوحيد نورٌ، كما أن للشرك نارًا، وإن نورَ التوحيدِ أَحْرقُ لسيئاتِ الموحدين، كما أن نارَ الشركِ أحرقُ لحسناتِ المشركين، ولكون التوحيدِ أفضلَ العبادات، وذكرِ اللهِ أقربَ القربات، لم يُقيَّد بالزمان والأوقات، بخلاف سائر الأعمالِ من الصيام، والصلواتِ، لذا فإن الخلاصَ من الضلالة إنما هو بالهداية إلى التوحيد، وبإخلاص العبادة لله الحميد، فمن قال: لا إلهَ إلا الله، وكفَر بما يُعْبَدُ من دون الله، حَرُمَ مالُه، ودمُه، وحسابُه على الله، أى فى الآخرة فيما يُخفيه من الإخلاص وغيرِه، فإذا كان ما سِوَى اللهِ تعالى لا يَقدِر على خلْق شىء، ولا على إعطاء ثوابٍ، فلا معنى للقصد إليه بالعبادة.

ففروا إلى الله وحده ـ أيها العقلاء ـ كما ناداكم ربُّكم الرحيمُ بكم العليمُ بأحوالكم لعلكم تنزلون منازلَ الأبرار.

لقد بَيَّن صدرُ سورةِ لقمانَ حالَ السعداء الذين انتفعوا بسماع القرآنِ وعَملوا بمقتضاه، ثم حالَ الأشقياء الذين وَلَّوْا مُدبرين عند سماع القرآنِ كأنهم حمرٌ مستنفرةٌ لا عقلَ لها ولا حِكمة، ووضَّح مصيرَ كلٍّ منهما ثم لفت السياقُ إلى برهان كمالِ قدرةِ الله ووحدانيته فى خلْق السمٰوات وبديع صُنعه فيها، وفى الأرض وما بثَّ وذرأ فيها من الحيوان والدوابِّ والنبات، وكلُّها شواهدُ ناطقةٌ بوجود الصانع وكمالِ حكمتِه وتدبيره وأن لا معبودَ بحقٍّ سِواه، ثم بكَّت الملحدين والمشركين على ضياع عقولِهم عن الحقيقة.

وبعد ذلك ساقت السورةُ وصايا لقمانَ الحكيم وأمثالَه ومعالجتَه للقضايا الرئيسة بحكمة واقتدار..

٢٤٥ - ج - أُوتِيَ لقمانُ خيرًا كثيرًا

أعطى اللهُ عزَّ وجل لقمانَ الحكمةَ، وأثنى عليه بها فى كتابه العزيز بيانًا لفضله، وتشريفًا للحكمة الجامعة بين العلم النافعِ والعملِ به والمتدبرُ فى حِكَم لقمانَ وأمثاله يجدُها تمتازُ بالإيجاز، وبثراء المعانى وصحة النظرة إلى الأمور، كما أنها تشملُ القضايا الرئيسةَ التى شَغلت الناسَ فى كل عصر، والتى من أجلها بُعِث الأنبياءُ: كقضية التوحيدِ والبعثِ، والفضائلِ والقيمِ الثابتة الصالحة لكل الناس.

وقد لفتتْ أمثالُ لقمانَ وحِكَمُه الباحثين المُحدَثين فبحثوها وقارنوا بينه وبين بعضِ حكماءِ الشرقِ الأدنى فى العصور القديمة كما حاول بعضُ الرواةِ والباحثين الربط بينه وبين أشخاصٍ ظهروا فى تلك العصورِ مثل: أحيقارَ أو حيقارَ، وكان وزيرًا لسنخريبَ ملكِ أشورَ وقد أُثِرَت عنه وصيةٌ لابنه فيها حِكَمٌ وأمثالٌ نافعةٌ وفيها يقول: «يا بُنَىّ احْنِ رأسَك إلى أسفل، وليِّنْ صوتَك، وكُن متأدبًا، واسلُك فى سبيل الصلاح، ولا تكن سفيهًا، ولا ترفعْ صوتَك إذا ضَحِكتَ، لأنه لو كان بالصوت العالى يُبنى بيتٌ، لكان الحمارُ يَبنى كلَّ يوم بيوتًا كثيرة»

ومن قَبيل ذلك ما جاء من نسبة لقمانَ الحكيم إلى باعوراءَ وهو والدُ بلعامَ الذى جاء ذكرُه فى التوراة بأنه: بلعامُ بنُ باعور، وبذلك قرنوا بين الشخصين على أنهما شخصٌ واحد، مع أن المأثورَ عن معظم علماءِ التفسير يدلُّ على أن البونَ شاسعٌ بين الشخصين، وعلى أن بلعامَ يختلف تمامًا فى فكْرِه ومسلكِه وتوجُّهاتِه عن لقمانَ الحكيم، ويُمكن فى ضوء

هذه الآراء أن يقال: وأين الثرى من الثريا، فقد ضُرِب المثلُ ببلعامَ فى الانسلاخ من العلم النافعِ واتباعِ الهوى، وشُبِّه بالكلب اللاهث دومًا لا يَشْبَعُ من متاع الحياة الدنيا، فى حين أن لقمانَ الحكيمَ شخصيةٌ مُوقَّرة كريمةٌ وَرِعة، تقيةٌ، متواضعةٌ، وإنّ بلعامَ بنَ باعوراءَ هو المقصودُ فى قول أكثرِ المفسرين بما جاء فى قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِىٓ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١٧٥، ١٧٦]

فصارت قصتُه مثلا للتحذير من التدنِّى وشراءِ الدنيا بالآخرة، وفيها مجالٌ عظيمٌ للتفكر والتأملِ والاعتبار.

ولعل هذه المحاولاتِ منشؤُها سَعْىُ علماءِ اليهود إلى كسب لقمانَ الحكيمِ بإيجاد صلةٍ بينه وبين الكتَاب المقدَّسِ على أىِّ نحوٍ وبأى ثمن - كما يقول المثل - ففى هذا المساقِ أيضًا جاء الربطُ بينه وبين داودَ عليه السلام على أن لقمانَ ابنُ أخته، أومعاصرٌ له وعن داودَ أخذالحكمة، كما جعلوه حينًا آخر ابنَ أختِ أيوبَ عليه السلام، أو ابنَ خالته، كما قيل: إنه كان قاضيًا فى بنى إسرائيل، أما ما ورد بشأنه فى أقوال بعضِ الصحابة والتابعين فإنه يدل على أنه كان من السودان، ومِن ثَمَّ نسبوه إلى النوبة حينًا وإلى الحبشة حينًا آخر، وجاء عن سعيد بن المسيب أنه قال لرجل سودانى: إنه كان من خير الناسِ ثلاثةٌ من السودان: بلالُ بن رباح، ومهجع مولى عمر، ولقمان الحكيم، وإن لفظ السودان هنا مرادٌ به العموم مما يشمل النوبةَ والحبشةَ ومالى ونحو ذلك. ونقل ابنُ كثير

عن أبى القاسم الطبرانى أن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا السودانَ فإنَّ ثلاثةً منهم من سادات أهلِ الجنة: لقمانَ الحكيم، والنجاشىَّ، وبلالَ المؤذن» قال أبو القاسم الطبرانى: أراد الحبش.

إن الله سبحانه وتعالى وحده يعلمُ أين نشأ لقمانُ القرآنىُّ، وإلى أى قبيل ينتسب، وقدسيقت قصتُه فى السورة المسماةِ باسمه فى الكتاب العزيزِ دون إشارة إلى الزمان ولا إلى المكان، وإنما هو عبدٌ من عباد الله من ولدِ آدمَ عليه السلام أنعم اللهُ عليه، وطهَّر قلبَه ولسانَه، ورزقَه الفهمَ والعلمَ والسدادَ فى المنطق والمسلك، وقصَّ علينا من شأنه مع ولده وحُسن توجيهِه له ما فيه عظةٌ واعتبارٌ وما فيه قدوةٌ للمربين والموجِّهين والمرشدين لتثبيت الـمُـثُل العليا، والقيمِ النبيلةِ فى النفوس.

من مقاصدِ القصة القرآنية:

وإن القصةَ القرآنيةَ إنما يُقصَدُ منها بيانُ العظةِ والعبرةِ والحكمةِ أوالحِكَم وتوجيهُ النفوس نحو معالى الأمور، واجتنابِ سفاسفِها، ولا تخلو القصةُ القرآنيةُ من الإرشاد إلى خيرٍ يُجتنى، أوالتنبيهِ إلى شرٍّ يجبُ التنزهُ عنه، والنفورُ منه، ولا تأتى الإشارةُ إلى الأبعاد الزمانيةِ أو المكانية إلا إذا اقترنت بالغاية التى تَهدِفُ إليها القصةُ القرآنية، وكان لها أوثقُ ارتباطٍ بالعبرة أو العِبر التى تُستقى من منهلها، وتُؤخَذُ منها، ونحن نجد مثالاً لذلك فى قصة يوسفَ بنِ يعقوبَ عليهما السلام مع إخوته، إذ اقترنت حوادثُها بأماكنَ ومسافاتٍ ومراحلَ زمانيةٍ ارتبطتْ بعُمر يوسفَ منذ أن كان غلامًا يافعًا غَضَّ الإهاب إلى أن صار رجلا جَلدًا يحملُ إلى الناس رسالةً مباركةً عظيمةً فيها خيرُهم ونجاتُهم، ألا نَرى أن قصتَه مع إخوتِه اقترنت بالبادية، وبالبئر، وبالرحلة المضنيةِ إلى أرضِ مصرَ، ثم بحياته فى

بيتِ العزيز، وبقضائه فترةً داخلَ أسوارِ السجنِ فى مصرَ إلى أن أُخرِج ليؤدىَ ما قُدِّرَ له فى ميدان الحياةِ العامةِ، وكان ذلك فى عهدٍ سبَق عصْرَ فرعونَ موسى بن عمْرانَ عليه السلام بأجيال عدة.

وإن المتدبرَ فى هذه الارتباطاتِ المكانيةِ والمسافاتِ التى صاحبتْ فترةً طويلةً من عُمر يوسفَ عليه السلام يجِد فى كلٍّ منها كثيرًا من العِبر والحوادثِ والآياتِ الشاهداتِ بكمال حكمةِ الخالق، وكمالِ تدبيرِه وقدرته، وعظمةِ سلطانه.

أما المتأملُ فيما قصَّهُ القرآنُ عن لقمانَ الحكيمِ فإنه يراه يلفتُ إلى جوانبَ تهذيبيةٍ وتعليميةٍ دون ارتباطٍ بزمان أو مكان، كما أن فيه بعثًا على الاقتداء فى مجال الدعوةِ والتربيةِ وما يتصلُ بالتكوين النفسى والعقلىِّ والـخُلقى للإنسان لتتحققَ له السكينةُ وصلاحُ الحال والفوزُ فى المآل وإن الناسَ فى هذا الميدان العظيم مراتبُ: أعلاهم قدرًا الرسلُ الكرام ويليهم النبيون الذين هم ليسوا بمرسَلين، ثم الحكماءُ والصدِّيقون، ثم العلماءُ الذين هم ورثةُ الأنبياء.

لقد بدأ الخبرُ عن لقمانَ ووصاياه وأمثالِه بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ**﴾ [لقمان: ١٢]

والمعطى هو ربُّ العباد يَهَبُ مَن يشاء ما شاء، فهو يعطى الرسالةَ صفوةَ خَلْقه، ويعطى الحكمةَ مَن اختاروا طريقَ الأنبياء والمرسلين عن إخلاص وتجرد، وفى كل ميدانٍ تتفاوتُ المراتبُ، وكلُّهم مِمَّن رَضِى اللهُ عنهم، وجعلهم أهلا لكرامته ومحبته.

وإن رأسَ الحكمةِ مخافةُ الله، ومَن خاف عن صحةِ دينٍ وسلامة يقينٍ أطاع ربَّه، وعَبده حقَّ عبادته، وعَرف قدْرَ نِعَمِه، وشكَر له سبحانه، لذا

فُسِّرت الحكمةُ فى الآية الكريمة بالشكر: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢] وأنْ هى المفسِّرةُ لأنَّ إيتاءَ الحكمة فى معنى القول، وقد نَبَّه اللهُ سبحانه على أن الحكمةَ الأصليةَ والعلمَ الحقيقىَّ هو العملُ بهما، وعبادةُ الله والشكرُ له، حيث فُسِّر إيتاءُ الحكمة بالبعث على الشكر، وبشكر المنعمِ تدومُ النعمُ وتزداد، ومن جَحد فضلَه، وكفَر النعمةَ واستخدمها فى معصية الله انقلبت عليه جحيمًا: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢]

وتلك حكمةٌ نفيسة ، إذ الشاكرُ إنما ينفع نفسَه ، وإليه تعودُ بركاتُ شُكره بفضل الله وإحسانه ، وإن الله سبحانه يَرضى لعباده الشكر ، ويحثهم عليه، ويبينُ لهم سُبلَه ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ومن كفَر فوبالُ كفْرِه عائدٌ عليه ؛ لأن الله لا تنفعُه طاعةُ عبادِه ، ولا تضرُّه معاصيهم،ولو كان العبادُ كلُّهم على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ ما زاد ذلك فى ملكه شيئًا، ولو كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ ما نقص ذلك من مُلكه سبحانه شيئًا، إنه سبحانه المتفردُ بالعظمة والجلالِ والإنعامِ والإحسان، وهو حقيقٌ بأن يُحمدَ وإن لم يحمدْه أحدٌ من خلْقه، فهو محمودٌ فى ذاته، وفى صفاته، وفى أفعاله، سواءٌ حَمِده العبادُ وشكروه أم جحدوه وكفروه، لأنه غنىٌّ عنهم، وهم الفقراءُ إليه فلا إله إلا هو ولا معبودَ بحق سواه.

وكان لقمانُ شاكرًا لأنعُم الله بقلبه وعمله ولسانه، وأراد لفلذة كبدِه الخيرَ الذى أنعم اللهُ به عليه، فكانت أُولى وصاياه له متصلةً بتطهير باطنه من كل شوائبِ الشرك: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]

أى: واذكُر يا محمدُ لقومك وللناس وصيةَ لقمانَ لابنه بنهيه عن الشرك بالله، وأمْرِه بإخلاص التوحيد، إذ النهىُ عن الشىء يَقتضى الأمرَ بضده، وقوله ﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ جملةٌ اسميةٌ حاليةٌ فى موضع نصْب أى: والحالُ أنه يعظُه إشفاقًا عليه، ورغبةً فى سعادته وفلاحه، وفى قوله: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ بصيغة المصغَّر إيحاءٌ بالرحمة والرقةِ والعطف، وقد ذُيلت الآيةُ بجملة مستقلة صارت لإيجازها، وقوتِها، ووضوحِ دلالتِها كالأمثال السائرةِ يُتَمَثَّلُ بها فى كل موقف مشابه للردع عن الشرك والشكِّ والزجْرِ عنهما ولنتدبر ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وهى مؤكدةٌ لمضمون ما قبلها، إذ التسويةُ بين مَن لا نعمةَ إلا منه، ومَن لا نعمةَ منه مطلقًا، بل لا يُتصوَّر أن تكونَ منه نعمةٌ تعَدُّ ظلمًا فظيعًا، ومن سمات قوتِها: تأكيدُها بإنَّ الناسخة وبلام الابتداءِ الداخلةِ على الخبر، وباسميتها وبوصف الظلمِ بالعِظَم مما يُزيل كلَّ ريبٍ من عقلِ المتدبرِ ووجدانِه فى شناعة الإلحادِ والشركِ بالله، ويدفعُه إلى سلوك طريق العارفين الموحدين.

والكلام متصل فى ظلال سورة لقمان ووصاياه.

❋ ❋ ❋

٢٤٦- د- الوصيةُ بالوالدين وأحكامٌ متعلقة بها

أوصى الله عز وجل الإنسانَ بِبرِّ والديه، وأمرَه بالإحسان إليهما، ولين الجانب معهما، والرفقِ بهما، وأوجب عليه طاعَتَهما فيما ليس فيه معصيةٌ لله عز وجل، فإن الوالدين هما سببُ وجود الإنسان، ولهما عليه غايةُ الإحسان، فالوالدُ بالإنفاق، والوالدةُ بالإشفاق، يقول تعالى من سورة لقمانَ موصيًا بهما بعد الحث على توحيده وعلى نبذ الشركِ فى وصية لقمانَ ابنَه: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [الآية: ١٤]

إنها وصيةُ الخالقِ الوهابِ بمَن لهما الفضلُ الأولُ عليك من البشر وقد جعل فى قلبيهما الرحمةَ فأعطياك من الحنان والرقةِ والخدمةِ والرعايةِ ما لا تستطيعُ مكافأتَه، ولا تقدر على الوفاء به مهما بذلتَ من جهد فى خدمتهما وإرضائهما، فقد قاما على خدمتك، وتَعِبا من أجلك وأنت فى أشدِّ الحاجةِ إليهما، وهما راضيان مسروران، يريدان لك الحياةَ والصحةَ وطيبَ العيش، لذا فإن أهمَّ الواجباتِ بعد التوحيدِ وطاعةِ الربِّ برُّ الوالدين، وإسداءُ الخير لهما، وإدخالُ السرور على قلبيهما.

وبعد أن سوَّت الآيةُ بينهما فى الوصايا خصت الأمَّ بمزيد من العناية ولفتت إلى مزيدِ فضلِها على ولدها: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [الآية: ١٤]

لقد حملته تسعةَ أشهر، وكلما ازداد الجنينُ وعظُم ازدادت مشقةً وثقلا إلى أن تضعَ حملَها، ففى فترة الحمل تلقى شدةً بعد شدة، وضعفًا على ضعف، وهى فرحةٌ راضيةٌ تتلهف على اليوم الذى ترى فيه وجهَه وتسعدُ

بصوته، ثم إن الأمَّ هى التى أرضعته سنتين، وتعبت نهارها، وسهرت ليلَها شفقةً عليه، ورعايةً له: ﴿وفصَالُه فِى عَامين﴾ [الآية: ١٤]

أى: التفريقُ بين الصبىِّ والرضاعِ يقع فى تمام عامين من وقت الولادة، ثم إن الأمَّ بعد هذا كلِّه تشاركُ أباه فى تربيته، والقيامِ على ما يُصلحه.

إن هذا التنبيهَ على حق الأمِّ فى أعناق أولادِها يوقظ الضمائر ويبعثُ ذوى الدين والمروءاتِ على التشمير فى رد الجميل، ومقابلةِ الإحسانِ بالإحسان، والإخلاصِ فى الخدمة، وإن هذا التذكيرَ بحق الأمِّ مفردًا جاء فى جواب الرسولﷺ لمن قال له: «يا رسولَ الله، من أحقُّ - الناسِ - بحُسن صحابتى؟ قال: أمُّك، قال: ثمَ من؟ قال: أمُّك، قال: ثم من قال: أمُّك قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك»

[رواه أبو هريرة وأخرجه البخارى فى كتاب الأدب].

والصحابةُ والصحبةُ مصدران لمعنىً واحد هو المصاحبةُ ومقتضى هذا الحديث أن يكونَ للأم ثلاثةُ أمثالِ ما للأب من البِر، لضعفها وعجزِها عن الرجل، وحاجتِها إلى من يكفيها متاعبَ الحياة، مع ما لها من زيادةِ فضلٍ على ولدها فهى وحدها تتحملُ مشقةَ الحمْل يليه آلام الوضع ومتاعبُه، ثم الرضاع ويتبعُه الفطام، ثم إن يدها بيد الأبِ فى رعايته وتربيته.

وقد بينت امرأةٌ مسلمة أمام رسولِ اللهﷺ أسبابَ حقِّ الأمِّ فى حضانة صبيِّها على نحوٍ رائع فقالت كما يروى عمرو بنُ شعيب عن أبيه عن جده: «يا رسول الله، إن ابنى هذا كان بَطْنى له وِعاء، وثدْيى له سِقاء وحِجْرى له حواء - أى مأوى - وإن أباه طلقنى، وأراد أن ينزعَه منى فقال

لها ﷺ: أنت أحقُّ به ما لم تَنكحِى» [أخرجه الحاكم وأبو داود].

فقد توسلت هذه المرأةُ فى دفاعها عن حقها فى حضانة صبيها واختصاصِها به بالأمور الثلاثة التى تنفردُ بها الأم.

وفى تأكيد هذا يروى المقدامُ بنُ معد يكربَ أن الرسول ﷺ قال: «إن الله يُوصيكم بأمهاتِكم، ثم يُوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقربِ فالأقرب»

[أخرجه البخارى فى الأدب المفرد، وأحمد وابن ماجة والحاكم وصححه].

وعن أعظم الناسِ فضلا وحقًّا على الولد سألت السيدةُ عائشة رضى الله عنها رسولَ الله ﷺ فقالت: «أىُّ الناسِ أعظمُ حقًّا على المرأة؟ قال زوجُها، قالت: فعلى الرجل؟ قال: أمُّه»

[أخرجه أحمد والنسائى والحاكم وصححه].

إن أصحابَ العقول الراجحةِ والنفوسِ المطمئنةِ هم الذين يعرفون للوالدين حقَّهما، ويسعَون فى طلب مرضاتِهما، ويتوددون إليهما بما يجعل السرورَ فى قلبيهما، لا يبخلون بالمال، ولا يَضِنون بالجهد، ولا يقصِّرون فى الزيارة والسؤال عن الصحة والحال، والدعاءِ لهما حيَّين أو ميتين، إن ذلك من أحبِّ الأعمالِ إلى الله، وأعظمِها فى ميزان الحسنات، وكان الصحابةُ رضى اللهُ عنهم يسألون رسولَ الله ﷺ عن الأعمال التى تقربُهم من الله وتكونُ أكثرَ ثوابًا وأعظمَ أجرًا، ليحرصوا عليها قبل فوات الأوان، ومنهم عبدُ الله بن مسعود الذى قال: «سألت رسول الله ﷺ: أى العملِ أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال الصلاةُ على وقتها قلت: ثم أى؟ قال: «برُّ الوالدين» قلت: ثم أى؟ قال: «الجهادُ فى سبيل الله» [متفق عليه].

فانظر وتدبر هذه الوصايا الجامعةَ واحرِص على الانتفاع بها لتزدادَ من الخير الذى تجده فى يوم لا ينفعُ فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم: صلاةَ الفريضةِ فى أول وقتها، وبِرَّ الوالدين والإحسانَ إليهما، والجهادَ لإعلاء كلمة الله عز وجل، ثم تدبر المعنى العظيمَ والهدفَ السامىَ النبيلَ فى قول رسول الله ﷺ: «لا يَجزِى ولدٌ والدًا إلا أن يجدَه مملوكًا فيشتريه فَيُعتقه» [رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم].

وإن تفسير الوصية فى قوله سبحانه ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾ فى ختام الآية الكريمة هو: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الآية: ١٤]

وتأمل كيف قُرِن شكرُ الوالدين بالأمر بشكر المولى سبحانه، وأكد سبحانه على العباد وجوبَ الامتثال لأن الرجوع إليه وحده فيجازى المحسنَ ويعاقبُ المسىء.

ثم إن طاعةَ الوالدين مقيدةٌ بأن تكونَ فى غير معصية الله عز وجل. ومهما حرَصا وبذَلا من الجهد لدفع الولدِ إلى الشرك أو الوقوعِ فى المعصية فإنه يأبى عليهما ذلك، ويَعصيهما فيه، ويثبتُ على طريق إخوانه من أهل الحق الذين أنابوا ورجعوا إلى ربهم، مع بقائه على الإحسان إليهما، والرفقِ بهما، وحسنِ الخُلُق معهما، ولنتدبر ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [الآية: ١٥]

نهاه عن طاعتهما فيما فيه معصيةٌ وإنَّ أقبحَ المعاصى الشركُ بالله وأمَره بالاستمرار على برهما ومصاحبتهما بالمعروف بجميل القول، ولينِ القلب، والإخلاصِ فى الخدمة، والقيامِ بما يجب نحوهما، كما أمره بالثبات على طريق الموحّدين الصالحين، وذكَّره بأن المرجعَ والمصيرَ إلى

الله الذى يُحصى على كل إنسان عملَه، وفى القيامة يتفاوت الحالُ: فريقٌ فى الجنة، وفريقٌ فى السعير: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرجِعُكم فَأُنَبِّئُكُم بِما كنتُم تَعملون﴾ [الآية: ١٥]

أى إلى الله رجوعُك ورجوعُهما فيجازى المحسن بإحسانه والمسىءَ بإساءته، وفى هذا تحذيرٌ من المعصية وتحريضٌ على الطاعة والانقياد لأمر الله.

وإذا كانت الوصيةُ بالوالدين تدلُّ على أن برَّهما من أشرف الأعمال وأعظمِ القربات، فإن عقوقهما، والإساءةَ إليهما، وإهمالَ شأنهما أو أحدِهما من أعظم الذنوب، ومن الإفساد فى الأرض، وفى الحديث المتفق عليه الذى رواه أبو بكرة نفيع بن الحارث أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أُنبئكم بأكبرِ الكبائر ـ ثلاثا ـ قلنا: بلى، يا رسول الله، قال: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وكان متكئا فجلس فقال: ألا وقولُ الزور وشهادةُ الزور» فمازال يكررُها حتى قلنا: ليته سكت.

وفى رواية عمرو بنِ العاص عند البخارى: «الكبائرُ الإشراك بالله وعقوقُ الوالدين، وقتلُ النفس، واليمينُ الغموس» أى اليمين التى يتعمد صاحبها فيها الكذبَ فإنها تَغمسه فى الإثم.

وإذا كان الله عز وجل أوصى بالوالدين ولو كانا أو أحدُهما على غير ملة الإسلام فمن باب أولى أن نرعى حقوق الأب المسلم، والأمِّ المسلمة، إذْ لهما حقُّ الأبوة وحقُّ الإسلام، فطوبى لمن تدبر هذا ووعاه، وعمل به.

هذا ومما استنبطه العلماءُ من الآية الكريمة: أنها تدلُّ على النهى عن صحبة الفجارِ وأهلِ الشر والسوء، وعلى الترغيب فى صحبة الصالحين فإن المقارنةَ والمخالطةَ مؤثرة، والطبعَ جذاب، والأمراضَ سارية، حتى لاتسرى أخلاقُهم الخبيثةُ وسيرُهم القبيحةُ بحكم المقارنةِ والعشرةِ، وكذلك إذا

خشى المرءُ على نفسه من الفتنة فى دينه فإنه يفرُّ من أسبابها فرارَه من الأسد أو أشد، ولو كان الوالدان هما السببَ الذى يُخشى منه ذلك إذ الدينُ الحق ومرضاةُ الرب هما أعظمُ ما يَحرص عليه أهلُ العقل والحكمة ـ والله أعلم ـ

ومن النصائح النفيسة ما قاله إبراهيم الخواص: دواءُ القلبِ خمسةٌ: قراءةُ القرآن بالتدبر، وإخلاء البطن، وقيامُ الليل، والتضرعُ إلى الله تعالى عند السحر، ومجالسةُ الصالحين.

وسيتصل الكلام بعد هذا فى أمثال لقمان ووصاياه.

٢٤٧- هـ- إحياءُ الوازع الدينيِّ وتنميتُه فيه صلحُ الفردِ والجماعة

يا بُنىَّ.. يا بُنىّ.. تكرَّر هذا النداءُ فى وصية لقمانَ الحكيمِ وهو يعظُ ابنَه الحبيبَ إلى قلبه، ويوصيه بأُمهات الحكمةِ ومعالى الأمور، و «**بُنَىّ**» تصغيرُ ابن، والنداءُ بهذه الصيغة يُشعر بالإشفاق، والتحبُّبِ، والرحمةَ وفى تكرُّره لفْتٌ للانتباه، وإيقاظٌ للشعور، وزيادةُ حِرْصٍ على أن تُؤتِىَ الوصيةُ ثِمارَها، ففى عظته الأُولى وصَّاه بالتوحيد الذى هو عمادُ كلِّ فضيلة، وأساسُ النجاةِ عن طريق نهْيه عن الشرك بالله: ﴿**يَا بُنَىَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ**﴾ خوفًا عليه من هذا الذنبِ الذى هو أعظمُ الذنوب والجرمِ الذى هو أفظعُ جُرم: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ ثم أُعيد النداءُ شروعا فى حكاية بقيةِ وصاياه العظيمةِ إثرَ تقريرِ ما جاء فى الأولى من التحذير من الشرك والنهْى عنه، ولنتدبر: ﴿**يَا بُنَىَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَٰوَاتِ أَوْ فِى الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾ [الآية: ١٦]

«**إِنَّها**» أى الخصلةُ من الإساءة والإحسان، وقد جاء عن مقاتل: أنَّ ابنَ لقمانَ قال لأبيه؛ يا أبتاه: إنْ عملتُ الخطيئةَ حيث لا يرانى أحدٌ كيف يعلمُها الله؟ فردَّ عليه لقمان فقال: ﴿**يَا بُنَىَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ**﴾ الآية، والمثقالُ: ما يُوزن به، ومثقالُ الشىء ما يُساويه فى الوزن والمعنى: أنَّ المظلمةَ أو الخطيئةَ إن كانت مثلا فى الصِّغَر والقَماءةِ كحبَّة الخردلِ الذى هو أصغرُ الحبوب المُقتاتةِ، فكانت مع صِغَرِها فى أخفى موضعٍ وأَحْرَزِه كجوف الصخرةِ أو حيث كانت فى العالم العلوىِّ أو السفلى

﴿يَأْتِ بِهَا اللهُ﴾ أى: أحضرها اللهُ يومَ القيامةِ حين يضع الموازينَ للقسط فلا تُظلَم نفسٌ شيئًا، وجازى عليها إن خيرًا فخير، وإن شرا فشرّ، كما قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]

وهو مَثَلٌ يُوضحُ لنا أمرَ العباد وأعمالِهم يوم القيامةِ حيث يجدُ كلُّ عبدٍ عملَه مَحْصيًّا عليه لا يغيبُ منه شيءٌ ولا يخفى على الله منه خافيةٌ ولو كان كأصغرِ شيءٍ يتصورُه المخلوقُ كالذرَّة الهائمة، فلو كانت تلك الذرَّةُ محصَّنةً مُحجَّبةً فى داخل صخرةٍ صماء، أو غائبةً ذاهبةً فى أرجاء السمٰوات أو فى جوف الأرض، فإن الله يأتى بها لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ فى السمٰوات ولا فى الأرض، وقد ذُيلت الآيةُ الكريمةُ بجملة مستقلة تؤكدُ هذا المعنى وتقررُه فى النفوس وتزيدُ القلوبَ يقظة، لتستمرَّ على خشية الله فى السرِّ والعلانية: ﴿إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خبير﴾ سبحانه.. يتوصلُ علمُه إلى كل خَفىٍّ، فلا تغيبُ عنه الأشياءُ وإن دقَّت ولَطُفَت وتضاءلت، وأحدُ معانى اللطيف: هو العالمُ بخفيات الأمورِ، يعلم أصغرَ الأشياءِ فى أخفى الأمكنة، وإنَّ الحبةَ فى جوف الصخرة أخفى منها فى قاعِ البحر، وإن العاقلَ إذاعرَفَ ذلك فإنه يحذَرُ أن يَطَّلِعَ عليه مولاه حيث نهاه.

وكما يتوصلُ علمُه سبحانه إلى كل خفىٍّ فإنه خبيرٌ وعالمٌ بكُنهه وحقيقته، والخبيرُ: هو العالم بدقائقِ الأمورِ، كدبيب النملِ فى الليل البهيم، فما بالك بسعْى الإنسان فى خيرٍ أو شرٍّ، وإن العاقلَ إذا عَرف ذلك ترك المكرَ والخداعَ، وإضمارَ السوء، وابتعد عن الرياء والتصنعِ لغيره، وأخلص العملَ والطاعةَ لله عز وجل.

وفى التحذير من التستر بالمعصية لإخفائها عن العباد يَضْرِبُ لنا الرسولُ ﷺ مَثلا يوضحُ أن الله سيُبدى هذا ويُظهرُه يقول: «لو أنَّ أحدَكم يعملُ فى صخرة صماءَ ليس لها بابٌ ولا كوةٌ لخَرج عملُه للناس كائنًا ما كان» [رواه أبو سعيد الخدرى وأخرجه الإمام أحمد].

وفى حديث حسن أخرجه الترمذى ورواه شداد بنُ أوس قال النبى ﷺ: «الكيِّسُ مَن دان نفسَه وعمِل لما بعد الموت، والعاجزُ من أتبع نفسَه هواها وتمنَّى على الله ـ الأمانى» الكيِّس: أى العاقلُ الذى يكبحُ جماحَ نفسِه الأمارةِ بالسوء و «دان نفسَه» أى: حاسبها.

وفى مساق المراقبةِ واستعظامِ المعصية وخوفِ أصحابِ القلوبِ الحيةِ من عاقبتها مهما بدت صغيرةً يحكى أنسٌ رضى الله عنه لجيلٍ ما بعد الصحابةِ يقول: «إنكم لَتعملُون أعمالا هى أدقُّ فى أعينكم من الشَّعر كنا نَعدُّها على عهد رسولِ اللهِ ﷺ من الموبقات» أى من المهلكات.

[أخرجه البخارى].

وقد مَثَّل صغارَ الأعمالِ التى يَسْتخِفُّ بها الناسُ بأنها أقلُّ حجمًا ووزنًا من الشعر فى أعينهم، وهذا يدلُّ على كمال مراقبةِ الصحابة، واستحيائِهم من الله، لأنهم أعظمُ الناسِ معرفةً بجلال اللهِ وكمالِ سلطانه بعد معرفةِ رسول اللهِ ﷺ.

ولابن مسعودٍ رضى الله مَثَلٌ يصورُ حالَ المؤمنِ ونَظْرتَه إلى الذنوب صغيرِها وكبيرِها ومدَى تحاشيه إياها، وحالَ الإنسانِ الفاجر المستهترِ الذى مات قلبُه، ولا يبالى بذنبه فيقول فيه: «إن المؤمنَ يَرى ذنوبَه كأنه قاعدٌ تحت جبلٍ يخاف أن يقعَ عليه» فانظر إلى هذا التمثيل الذى يجسِّم استصغارَ المؤمنِ صالحَ عمله، واستعظامَ صغيرِ ذنبِه وكأنَّ هذا الذنبَ

جبلٌ وهو قاعدٌ تحته فى حالٍ يخشى من وقوعه عليه، فهو فى قلق دائم، وخوفٍ ملازم لقوة إيمانه، ودوامِ مراقبته، أمَّا الفاجر فكما يقول ابن مسعود: «وإنَّ الفاجرَ يَرَى ذنوبَه كذُبابٍ مرَّ على أنفه فقال به هكذا» ـ قال أبو شهاب بيده فوقَ أنفه.

[أخرجه البخارى ورواه الحارث بن سويد التميمى الكوفى التابعى الكبير].

وقوله: « كذبابٍ مرَّ على أنفه» تمثيلٌ لعدم المبالاة به لأنه لا يخشى ضررَه، ولا يفكرُ فى عواقبه «فقال به هكذا» أى نَحَّاه بيده ودفعَه عن أنفه من إطلاق القول على الفعل قالوا: وهو أبلغُ، فالفاجرُ الغافلُ يستهين بالمعصية ولا يشعرُ بخطرها، ويزعم أنه يدفع ضررَها عن نفسه بأتفه الأسباب، وأشار لذلك بتحريك اليدِ لدفع الذباب، ثم تأملِ اختيارَ الأنفِ فى مرور الذباب دون العين مثلا، لأن الأنفَ لا يضرُّه مرورُ الذبابِ عليه كما يضرُّ العينَ، وفى ذلك تقويةٌ للاستهانة بالذنب، ولذلك فإنه يكون مُعرِضًا عن مولاه، ناسيًا اللهَ سبحانه وتعالى حتى يقعَ فى الهلاك ويندمَ حيث لا ينفعُه ندمُه، بخلاف المؤمن الصالحِ فإن دوام مراقبته يحملُه على الضراعة والاستغفارِ وهما روحُ العبادة.

وإن ضرْبَ المثل بحبةِ الخردل للأعمال وإن دقَّت وصغُرت جعل المعنى المرادَ أكثر وضوحًا، وأقوى تأثيرًا، فنحن كثيرًا ما تصدرُ منا ألفاظٌ أو نعملُ أعمالا لا نُلقى لها بالا، ولا يظن صاحبُها أنها تؤثرُ شيئًا، ولا يقدِّر لها فى نفسه ما يترتبُ عليها من ثواب أو عقاب، وقد أبرز لنا التمثيلُ بحبةِ الخردلِ فى جوف صخرةٍ صماءَ أن شيئا من ذلك لا يضيعُ وأننا واجدون فى صحف أعمالنا كلَّ صغيرة وكبيرةٍ: كهمسة بكلمة طيبةٍ أو خبيثةٍ، أو شوكةٍ يُلقيها المرءُ فى طريقِ شخصٍ ليؤذيَه، أو استخفافٍ

بضعيف، أو إعراضٍ عن فقير ازدراءً به، أو شربةِ ماءٍ قدَّمها لعطشان، أو تمرةٍ لصائم عند إفطارِه، أو رحمةٍ بحيوان، أو إرشادِ ضالٍّ غريب، ونحوِ ذلك، وقد جاء فى الصحيحين: «إن الرجلَ لَيتكلمُ بالكلمة من سخطِ الله، لا يَدرى ما تبلغُ، يَهوِى بها فى النار بُعْدَ ما بين السماء والأرض» واللفظ فى البخارى: «لا يُلقى لها بالا يَهوِى بها فى جهنم»

[رواه ابن مسعود رضى الله عنه].

وفى هذا السياقِ ينبغى لنا أن نتدبرَ الحكمةَ القرآنيةَ التى صارت مثلا سائرًا ينبهُ ويوقظُ من الغفلة: ﴿وتَحْسَبُونَه هيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيم﴾ [النور: ١٥]

إن وصية لقمانَ الحكيم تضمنت التنبيهَ على البعث والحساب والجزاءِ بعبارة موجزةٍ محكمةٍ دقيقة الألفاظِ قويةِ الدلالة على المراد. وإن المثلَ الذى ضربه يدعو إلى التأمل والتفكر، وينمِّى الوازعَ الدينىَّ فى قلب المؤمن، وزيادةً فى إيقاظ الشعور، وتنبيهِ الوجدان جاء الإظهارُ فى موضع الإضمارِ فى قوله: ﴿يَأْتِ بِهَا اللهُ إنَّ اللهَ لَطِيفٌ خبير﴾ فنحن يمكننا ـ مثلا ـ أن نقول من عندنا: يأتِ بها الله إنه لطيفٌ خبير، ولكنَّ الإظهارَ أعطى مزيدًا من القوة والتنبيهِ على عِظم الأمر، فهو اللهُ الذى يعلمُ السرَّ وأخفى، وقد أحصى كلَّ شئ عددًا، وإن العاقلَ يسألُ نفسه: فإلى أين المفرّ؟ إلى أين المهربُ؟ إنه يجب التسليمُ بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وبأنه تجب المبادرةُ إلى التوبة والإنابةِ وإعدادِ النفس باليقين الصادق، والعملِ الصالح ليومٍ تُكشَف فيه السرائرُ، وتَظهرُ خبايا الضمائر.

نِعم المربِّى:

إن لقمانَ الحكيمَ معلمٌ ونعْم المعلم، ومُربٌّ ونعْم المربِّى، إذ من أعظمِ واجباتِ القائم على تربية النفوس أن يسعى بالوسائل المناسبة لتنمية الوازعِ الدينى فى نفوس الناشئة، وإحياءِ قلوبِهم، لتبلغَ النفسُ درجةَ الإحسان، بأن يعبدَ العبدُ ربَّه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فاللهُ يراه.

إن تربيةَ الناشئةِ على يقظة الضمير والخوفِ من الله، والرغبةِ فيما عنده من الرحمة والثواب، تنمِّى فى نفوسهم محبةَ الخير وكراهيةَ الشرِّ فتصدرُ عنهم الأعمالُ الطيبة، والمسالكُ المحمودة، والخُلقُ المرضىُّ، ويَشبُّ الناشىءُ على الصدق، والأمانة، والرفقِ فى الأمور، والوفاءِ، ورعايةِ الحقوق، وأداءِ الواجبات، وكفِّ الجوارح عن الشر والأذى.

وبعد التنبيهِ على البعث والجزاءِ وبيان كمالِ القدرةِ وكمالِ العلمِ وكمالِ الإحاطة مما يوجب على أهلِ العقْلِ التبصر والتعقل، والإذعان وطاعة الرحمنِ، الخبيرِ اللطيفِ الذى أحاط بكل شىء علْمًا، ولا تخفى عليه خافيةٌ من أمور عباده وأحوالِهم ونواياهم وأعمالِهم، بعد هذا نصح لقمانُ ولدَه بإقامة الصلاة، والصبرِ على طاعته، وأن يكونَ إنسانًا صالحًا نافعًا يعمل على نشر الخير والتنفيرِ من الشر والسوءِ بحكْمة وطولِ أناةٍ كما نصحه بالتحلى بكلِّ خلق كريم، وبكل فضيلة تكون شرفًا لصاحبها وبالتخلِّى عن النقائص الخلقيةِ والنفسية.

والكلام متصل مع لقمان ووصاياه.

❋ ❋ ❋

٢٤٨-و- تكميلُ النفسِ بالعِلم والعمل وَزِينتُها التواضعُ والاعتدال

أوصى لقمانُ الحكيمُ ابنَه بصحة العقيدة، وسلامةِ الإيمان، وبَيَّن له حقيقة التوحيد بقوله: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ إِذ الشركُ ظلمٌ متناهٍ فى البشاعة، وإذا سَلِمتْ العقيدةُ من كل شائبةٍ من شوائبِ الشركِ فقد كَمُلتْ النفسُ بالعلم بما يجب لله من صفات الكمالِ ونعوتِ الجلال، وأنه سبحانه المتفردُ بالإلهية، الغنىُّ بذاته عمَّن سواه، لا شريكَ له فى مُلكه، ولا ندَّ له ولا ولدَ ولا صاحبة، ولا معبودَ بحق سواه، وأنه سبحانه يجبُ أن يطاعَ أمرُه، وأن تؤدَّى فرائضُه، وأن تكمُلَ النفسُ بالعمل بما يُرضيه والبُعدِ عمَّا يُسخِطُه، وإخلاصِ العبادةِ له، بعد أن تكمُلَ بالعِلم بما يجب له سبحانه من التقديس والتنزيهِ ولذا جاءت الوصيةُ بإقام الصلاةِ، ولزومِ طريقِ أهلِ الإيمان الصابرين على ما أصابهم ابتغاءَ مَرضاةِ الله فى قوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]

وفى تكرير النداء: «**يا بُنى. . يا بُنى**» فى مطلع وصايا لقمانَ ما يوحى بقرب الابن من قلب أبيه، وحرصِ الأبِ الحكيم على تنمية العواطفِ الشريفةِ فى نفسه، وتجنيبه أسبابَ المهلكات، والرغبةِ فى دَفْعه فى طريقِ الخيراتِ والمبراتِ ليشُبَّ على أكمل عقيدة، وأصحِّ عمل وأفضلِ الأخلاق.

وفى هذه الآيةِ يُوصيه بإقام الصلاةِ إذ هى قرينةُ الإيمان، وعمادُ

الدين، وهى أعظمُ الفرائضِ العَمَلِيةِ، من ضيَّعها لم يُقبل له عملٌ صالح، وذاق الهوانَ مع جبابرة الكفارِ فى نار الجحيم، ومَن أقامها على الوجه الشرعىِّ المَرضىِّ، فأدَّاها فى أوقاتها وحافظ على أركانها وواجباتِها وسننِها وخشَع قلبُه واطمأنت جوارحُه مع الإخلاص، فإنها توقظُ قلبه، وتُحيى نفسَه، وتَصقُلُ ضميرَه، وتبعثُه على ترك ما يُغضب الله، وهجْر مساوئِ الأخلاقِ وقبائِح الأعمال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]

قال أبو العالية: إن الصلاةَ فيها ثلاثُ خصال، فكلُّ صلاةٍ لا يكون فيها شىءٌ من هذه الخصالِ فليست بصلاة: الإخلاصُ، والخشيةُ، وذكرُ الله، فالإخلاصُ يأمره بالمعروف، والخشيةُ تنهاه عن المنْكرِ، وذكرُ الله يأمرُه وينهاه.

إن الصلاةَ عظيمةُ الشأن سابقةُ القدَمِ على ما سواها، مأمورٌ بها فى الأديان كلِّها، وقد وصَّى بها جميعُ الأنبياءِ والمرسلين، وحرصوا على تنشئة أولادِهم على حُبها وأدائِها والمواظبةِ عليها ليكونوا فى أنفسهم صالحين، وبَيْن الناسِ أعضاءَ نافعين مصلحين.

وفى بيان أثر الصلاةِ فى تطهير النفسِ وتهيئتها للسعادة الأخرويةِ يَضرب الرسولﷺ مثلا حيًّا يُبين فضلَها فى تنقية القلبِ من أدران المعاصى فيقول: «أرأيتُم لو أنَّ نهرًا بباب أحدِكم يغتسلُ منه كلَّ يوم خمسَ مراتٍ؛ هل يَبْقى مِن دَرَنه شىءٌ؟ قالوا: لا يَبقى من درنه شىء قال: فذلك مثَلُ الصلواتِ الخمسِ يمحو اللهُ بهنَّ الخطايا»

[متفق عليه ورواه أبو هريرة].

والدرنُ: الوسخُ، والمغتسِلُ خمسَ مرات كلَّ يوم لا يَعْلَقُ ببدنه شىءٌ

(١٦٤٤)

من الوسخ، وقد ضُرِبَ بذلك المَثَلُ لتطهير النفسِ من آثار المعاصى وبعْثِها على الاستقامة فى طريق الطاعات، فهو من تمثيل الأمرِ المعنوىِّ بأمرٍ حسىٍّ لتقريب المعنى إلى الأفهام، وتوضيحه فى الأذهان ترغيبًا فى أداء الصلواتِ الخمس فى أوقاتها، وحثًّا على المواظبة والإخلاص فيها.

ومَن كان من أهل الصلاة كان محبًّا للخير ، داعيًا إليه ، كارهًا للشر منفرًا منه، وبهذا بَصَّر لقمانُ ابنَه فى قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أى قم بهذا الأمر بحسب جُهدك وطاقتك وبحكمةٍ وموعظةٍ حسنةٍ لا مخاشنةَ فيها: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَآ أَصَابَكَ﴾ أى: كن صبورًا جَلْدًا إذا نزلتْ بك الشدائدُ والمحن، أو حلَّ ما تعافه النفسُ ولا ترغبُ فيه كالمرض والفقر، وكالهَمِّ والغمِّ ولاسيما عند القيام بالأمر بالمعروفِ والنهى عن المنكر، مبتغيًا فى جميع ذلك وجْهَ الله ومرضاتَه، موقنًا بأن ما أصابك لم يكن ليُخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمورِ﴾ [لقمان: ١٧]

أى: إن ذلك مما عزَمه اللهُ من الأمور، وأمر به العباد أمرًا حتمًا وقطعه قطْعَ إيجابٍ وإلزام، والعزمُ هنا بمعنى المعزومِ من تسمية اسمِ المفعول بالمصدر أى: من معزومات الأمورِ ومقطوعاتها ومفروضاتها.

لقد نصح لقمانُ ابنَه بالتحلى بالطاعة وأداءِ الفرائض، وبأن يكون داعيةَ خير صبورًا جلدًا، ثم انتقل إلى وصيته بالتخلِّى عن أقبح منكراتِ الأخلاقِ بالابتعاد عن الكبر والترفع على الناس وعن الاختيال والعُجبِ لأن تلك مهلكاتٌ ومحبطاتٌ للأعمال، مبينًا ما ينبغى له من التواضع والاعتدال فى المشى وفى الكلام، وهو بهذا يُؤْلَفُ وَيَأْلَفُ، ولنتدبر:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ

كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩]

يُحذِّره من إمالة عنقِه للإعراض بوجهه عمن يكلمُهم أو يكلِّمونه ازدراءً لهم، وتهوينًا من شأنهم، واستكبارًا عليهم، وهو بذلك يحببه فى إلانة جانبِه، والإقبالِ على الناس بوجهه احترامًا لهم، وإحسانِ المعاملةِ للفقير والغنى على السواء.

والصعَرُ: داءٌ يأخذُ الإبلَ فى أعناقها أو رؤوسِها حتى تَلْفِتَ أعناقَها عن رؤوسها، والمقصود بالتصعير فى الآية إمالةُ العنقِ عن النظر كبرًا، فَشُبِّه عملُ الرجل المتكبرِ بما يحدثُ للبعير، ومن ذلك قول الشاعر التغلبى:

وكنا إذا الجبارُ صَعَّر خَدَّه أقمْنا له مِن مَيْله فَتقوَّما

وجاء فى شعر أبى طالب.

وكنا قديمًا لا نُقِرُّ ظُلامةً إذا ما ثَنَوْا صُعْرَ الخدودِ نُقيمُها

وبعد أن حذَّره من فِعل المتكبرين إذا أشاحوا بوجوههم عن الناس احتقارًا لهم، حذَّره أيضًا من مِشيتهم على وجه الاختيالِ والعُجب والفخر: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾ والمرحُ: أشدُّ الفرَح كالأشَر والبطرِ، أى لا تمش متكبرًا عنيدًا حالَ كونك ذا فرحٍ شديد وعُجب وخفة، لأن ذلك يُبعد من الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ والمختالُ مقابلٌ للماشى مَرَحًا، والفخورُ مقابلٌ للمصعِّر خَدَّه كِبرًا فالمختالُ يكونُ مُعجبًا فى نفسه، والفخورُ هو المتطاولُ على غيره المباهى بالمال أو الجاهِ أو العلمِ أو نحوِ ذلك، وقد ساق الرسولُ الحبيبُ ﷺ مثلاً للناس يُخوِّفُهم من هذه المِشيةِ فقال فى الحديث المتفق عليه: «بينما رجلٌ

يمشى فى حُلةٍ تُعجبه نفسُه، مُرجِّلٌ رأسَه، يختالُ فى مشيته، إذْ خَسف اللهُ به الأرض، فهو يتجلجلُ فيها إلى يوم القيامة».

ولفظُه فى البخارى: «بينما رجلٌ يَجُرُّ إزارَه من الخُيلاء خُسِفَ به فهو يتجلْجَلُ فى الأرض إلى يوم القيامة» [رواه ابن عمر] ويتجلجل يعنى يسيخ مع اضطراب شديد وتدافع من شقٍّ إلى شقٍّ.

وفى توجيه المسلمين إلى التواضع وعدمِ الاستطالة على الناس يقول ﷺ: «إن الله تعالى أوحَى إلىَّ أن تواضَعوا حتى لا يَبغِى أحدٌ على أحد، ولا يفخَر أحدٌ على أحد» [أخرجه مسلم ورواه عياض بن حمار]

وفى الحديث: «بحسْبِ امرئٍ من الشرِّ أن يَحقِرَ أخاه المسلم» [أخرجه مسلم ورواه أبو هريرة].

وبعد أن نهاه عن الغلوِّ فى تقدير النفسِ أمره بالاقتصاد والتوسطِ مع التواضع: ﴿وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ إذ اللائقُ بذوى الأدبِ والدين أن يكونَ مشيُهم بسكينة ووقارٍ لا بطءَ فيه ولا تماوتَ إظهارًا للضعف رياءً وسمعة، ولا سرعةَ فيه ولا وثوبَ إظهارًا للقوة ومباهاةً.

وكما يكون الاعتدالُ فى المشى يكون فى التكلُّم فيأتى الصوتُ على قدر الحاجة، إذ رفعُ الصوت عاليًا له مواطنُ لا يحسُن إلا فيها ويُعابُ فى غيرها لذا قال له: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ وغضُّ الصوتِ خفضُه، من قولنا: فلان يَغَضُّ من فلان إذا قصَّر به، ووضَع منه، والمعنى لا تبالغْ فى الكلام وأنقِصْ من صوتك واجعله مناسبًا للمقام، فعند الدعاء والمناجاة ـ مثلا ـ يكون الصوتُ خفيضًا يُسْمِعُ الداعى، وفى إرهاب العدوِّ يكون قويًّا عاليًا عند الحاجة، وفى الصلاة الجهرية يكون على قدْر حاجةِ المأمومين، لذا قال أهل العلم: **لا يجهرُ الإمامُ فوق حاجةِ المأمومين، وإلا فهو مسىء ، وإذا كان صوتُ الإمام**

كافيًا فى تبليغ تكبيرات الانتقال فلا يُبلِّغ المؤذنُ فإن التبليغَ حينئذ يكون بدعةً منكرةً باتفاق الأئمةِ الأربعة، وقس على هذا.

ولـمَّا كان رفعُ الصوتِ فوق الحاجة وفى غير موضعه مستقبَحًا غيرَ لائقٍ بأهل الدين مَثَّلَه بأبشعِ صوتٍ مستقبحٍ عند الناسِ بقوله: ﴿**إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوتُ الْحَمِيرِ**﴾ أى: إن أوحشَ الأصواتِ وأقبحَها فى نظر العقلِ والذوق، وقد ضُرِب المثلُ بصوت الحمارِ تنفيرًا لأنه معروفٌ عند الناس بالقبح إذ أوله زفيرٌ وآخرُه شهيقٌ كصوت أهل النارِ يُزعج مَن يَسْمعُه، والمعنى: إنَّ أنكرَ أصواتِ الناسِ حينَ يصوِّتون ويتكلَّمون لَصوتُ مَنْ يُصوِّتُ صوْتَ الحمار، أى يرفعُ صوتَه عند الكلام كما يرفعُ الحمارُ صوتَه. ففيه تشبيهُ الرافعين أصواتَهم فوق الحاجةِ بالحمير وتمثيلُ أصواتِهم بالنُّهاق ثم إخلاءُ الكلام عن لفْظ التشبيه، وإخراجُه مخرجَ الاستعارة وفى جَعْلهم حميرًا وأصواتِهم نُهاقًا مبالغةٌ شديدةٌ فى الذمِّ والزجر عن رفع الصوتِ فوق الحاجة، وتنبيهٌ على أنه من المكاره عند الله لا من المحابِّ. وفى الحديث: «إذا سمعتُم صِياحَ الدِّيكةِ فاسألوا اللهَ من فضْله فإنها رأتْ مَلَكًا، وإذا سمعتُم نهيقَ الحميرِ فتعوَّذوا بالله من الشيطان فإنها رأتْ شيطانًا» [رواه أبو هريرة وبعض أصحاب السنن وهذا اللفظ فى البخارى وفيه: «وإذا سمعتُم نهيق الحمار..» بدلا من «الحمير»]

إن وصايا لقمانَ التى قصها اللهُ علينا فى كتابه من عيون الحكمة سِيقت بأسلوبٍ تربوى رفيعٍ وفيه إيجازٌ وإعجازٌ مع سَوْق الدليلِ وضرْبِ المثَل، وهى دعائمُ أساسيةٌ فى بناء النفسِ الإنسانيةِ وتكوينِها العقلى والخُلُقى، وصاحبُ الحظِّ الأوفرِ هو من يمتثلُ، وينتفعُ، ويعلمُ، ويعملُ، ليتفتحَ قلبُه على الخير والهدى، ويسلكَ مسالكَ الراشدين أهلِ التقوى واليقينِ ولقد كان لقمانُ يقول لابنه: يا بنىَّ إن الحكمةَ أجلستْ المساكينَ مجالسَ الملوكِ، رضى الله عنه.

٢٤٩ - الله الصمد

الصمدُ: هو السيدُ لأنه يُصْمَدُ إليه فى الحوائج.

تقول: صَمَدَهُ يَصْمِدُهُ صمدًا أى: قَصده.

والصمدُ على وزن فَعَل بفتح وسطه بمعنى المفعول: أى: هو المصمودُ إليه، المقصود ـ وحده ـ لطلب الحوائج.

وجملةُ ﴿اللهُ الصمدُ﴾ اسميةٌ مُعرَّفةُ الطرفين، فالاسمُ المعظَّمُ مبتدأٌ، والصمدُ خبرُه، وتعريفُ الركنين أفاد الحصْرَ أى قصرَ الخبرِ [**الصفةِ**] على المبتدأ [**الموصوفِ**] فلا صمَدَ فى الوجود سِوى اللهِ عز وجل، ولا مقصودَ فى طلب الحوائج بحقٍّ إلا هو، وما عداه ممن اتخذهم الناسُ شركاءَ أو وسطاءَ فإن الاعتقادَ فيهم مبنىٌّ على الوهْم والباطل، ولا أساسَ له فى العقل أو النقل.

فهذه العبارةُ معناها كقولنا: ما الصمدُ إلا اللهُ، أو ما المقصودُ فى طلب الرزق أو الصحةِ أو المغفرةِ أو نحوِ ذلك إلا هو سبحانه، فما ينبغى أن تُرفعَ أكفُّ الضراعةِ إلا بين يديه، ولا يجوزُ أن يُستغاثَ أو يستعانَ إلا به.

فهو سبحانه خالقُ الخلق، ومدبرُ الأمر، هو الرزاقُ الوهابُ خالقُ الأسبابِ والمسَبَّبَاتِ، لا يقع فى الكون إلا ما يريده، ما شاء اللهُ كان وما لا يشاء لا يكون، وهو سبحانه واحدٌ متوحدٌ بالإلٰهية لا يُشارَكُ فيها، وهو الذى يَصمدُ إليه كلُّ مخلوق لا يستغنون عنه، وهو الغنىُّ عنهم، وكلُّ ما عداه مُحتاج إليه فى جميع جهاتِه، فلا صمدَ فى الوجود

سوى الله، فإذا كان هو الصمدَ المقصودَ وحده بالدعاء والعبادة والاستعانةِ والخوفِ والرجاءِ والتوكلِ فمَن انتفتْ عنه الصمديةُ لا يَستحقُّ الأُلوهية، ففى قوله سبحانه: ﴿اللهُ الصمدُ﴾ إبطالٌ للشريك والولدِ والصاحبة، وتبصيرٌ لأُولى العقلِ والحكمةِ حتى لا يقعوا أسْرى الوهم والباطل، ولتظلَّ قلوبُهم متعلقةً بخالقهم، عامرةً دوما بإخلاص التوحيد، وصدقِ التوجهِ إلى الله وحده، وحُسنِ التوكلِ عليه، والإيمانِ بأنه لا معبودَ بحق سواه.

ولو آمن الناسُ جميعًا بالصمدية المقتضيةِ لاستغنائه الذاتىِّ سبحانه عما سواه، وافتقارِ جميع المخلوقاتِ إليه فى وجودها وبقائها وسائرِ أحوالها لـمَا بَقِىَ على وجْه الأرضِ مشركٌ، ولـمَا توجَّه أحدٌ بدعاء أو استغاثة أو استعانةٍ أو خوفٍ أو رجاءٍ إلى غيره سبحانه لأنَّ الجميعَ عبيدُه وخلْقُه لا مشاركةَ لأحد منهم فى سلطانه، فهو المنفردُ بصفات الكمالِ، ونعوتِ الجلال، وهو القائل: ﴿ادْعُونى أسْتَجِبْ لَكُم﴾ [غافر: ٦٠]

فهو سبحانه فى رحمته بعباده لا يحتاجُ إلى شفعاءَ ولا إلى وسطاءَ بينه وبينهم.

وفى تعليق الإمام محمد عبده على الآية الكريمةِ فى تفسيره جزءَ عمّ جاء: «وقولُه: «الصمدُ» يُشعرُ بأنه الذى يَنتهى إليه الطلبُ مباشرةً بدون واسطةٍ ولا شفيع، وهو فى ذلك يدعو إلى ما يُخالف عقيدةَ مشركى العربِ الذين يَعتقدون بالوسائط والشفعاء، وكثيرٌ من أهل الأديان الأخرى يعتقدون بأن لرؤسائهم منزلةً عند الله ينالون بها التوسطَ لغيرهم فى نيل مُبتغياتِهم، فيلجأون إليهم أحياءً أو أمواتًا، ويقومون بين أيديهم أو عند قبورهِم خاشعين خاضعين، كما يخشعون لله بل أشدَّ خشية.

ثم هو الصمدُ فى تحديد الحدودِ العامةِ للأعمال، ووضعِ أصولِ الشرائع، فلا بدَّ أن يُرَدَّ إلى ما أنزل جميعُ ما يقعُ الاختلاف فيه، وليس من المباح أن يُرجعَ إلى قول غيرِه سبحانه متى نطق صريحُ كتابِه بخلافه.

وعلى الناس كافة أن يرجعوا إلى الكتاب ـ والسنةِ الصحيحة ـ فإذا لم يكونوا عارفين بما جاء به الوحْىُ رجعوا إلى العارف، وطالبوه بالدليل منه.

وعلى الناس أن يهتموا بأن يعرفوا ـ من الكتاب والسنة ـ أصولَ ما يعتقدون، وما يعملون، فإن لم يفعلوا اختلفت الآراءُ، وحَجَبت المذاهبُ كتابَ اللهِ وما جاء به المعصومُ عن الله، فإذا تعلقوا بقولِ غيرِ المعصوم، وعَمُوا عن هَدْيه كانوا بمنزلة مَن لم تأتهم رسالةٌ من عند ربهم، وشقُوا باتباع الأهواء، وبالاستمساك بما لم يُنزل به اللهُ سلطانًا، وهم بذلك يسقطون فى مهاوى الشقاء الدنيوى والأخروى[1]»

﴿اللهُ الصمدُ﴾ كلمةٌ جامعةٌ تملأُ النفسَ مما قُصد بها دون جهدٍ أو تعب، وقد جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ فى سياق سورةِ الإخلاصِ خاليةً عن العاطف لأنها كالنتيجة لما قررته السورةُ من أمر الوحدانية أو كالدليل عليه، ولنتدبر: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۝ اللهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

و «هو» ضميرُ الشأن، كأنه قيل: الشأنُ هذا، وهو أنَّ اللهَ واحدٌ لا ثانىَ له، وهو: فى موضع رفْع بالابتداء، وقوله ﴿اللهُ أَحَدٌ﴾ جملةٌ اسميةٌ فى موضع رفعٍ خبرُ المبتدأ الأول، ولا حاجةَ إلى العائد الذى يَربط جملةَ الخبرِ هنا بالمبتدأ، لأنها هِىَ هُوَ.

لقد قررت السورةُ الكريمةُ الأصلَ الأولَ من أصول الرسالةِ التى جاء

---

(١) من تفسير جزء عم مع تصرف قليل

بها النبىﷺ وهو توحيدُ اللهِ وتنزيهُه وهو ركنُ الأركان، وأولُ مأمورٍ به من أصول الإيمان، أما الركنُ الثانى فهو تقريرُ الحدودِ العامةِ للأعمال ببيان الصالحاتِ وما يقابلُها وذلك هو الشريعة، وأما الثالثُ فهو أحوالُ النفسِ بعد الموت أى: من البعث وملاقاةِ الجزاءِ من ثواب وعقاب.

قررت السورةُ الكريمةُ الوحدانيةَ، ونبهت على عظَم شأنِ هذه القضية، ثم أكَّدتها بتقرير الصمديةِ وأنه لا ملجأ للعباد إلا إليه سبحانه وأنه سبحانه المستعانُ والمقصودُ فى الحوائج، وفى هذا تأكيدٌ لنفى الشريك والوسيطِ والحاجة إلى الولد والصاحبة، ثم صرَّحت السورةُ ببعض أحكامٍ جزئيةٍ مندرجةٍ تحت هذه الأحكام بقوله: ﴿**لَمْ يَلِدْ**﴾ تنصيصا على إبطال زَعْمِ المفترين فى حق الملائكةِ والمسيح، أى: لم يَصدُر عنه ولدٌ، لأنه لا يُجانسه شىءٌ ليُمكنَ أن يكونَ له من جنسه صاحبة فيتوالد، أو أنه سبحانه لا يفتقر إلى ما يُعينه أو يَخلُفه لا ستحالة الحاجة والفناءِ عليه ﴿**وَلَمْ يُولَدْ**﴾ أى: لم يصدُر سبحانه عن شىء لاستحالة نسبةِ العدمِ إليه سابقًا أو لاحقًا، وقال بعضهم: الوالديةُ والمولوديةُ لا تكونان إلا بالمثلية فإن المولودَ لابدَّ أن يكونَ مثلَ الوالد ولا مثليةَ بين ذاتِ اللهِ الواجبة، وذاتنا الممكنة.

سبحانه هو الأولُ والآخرُ، الباقى الدائمُ، المنزَّهُ عن الولد والحاجةِ المنعوتُ بصفات الجلالِ والكمال، وكلُّ ما خطَر ببالك فاللهُ بخلاف ذلك، سبحانه لا يفتقر إلى شىء ولا يسبقه عدَم ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ أى: ولم يكن أحدٌ يكافئه أو يماثله من صاحبة أو غيرها.

يقال: هذا كفاؤُه وكفؤُه أى: مِثلُه، والمقصودُ نفْىُ المكافأة عن ذاته تعالى، أى لم يكافئه أحدٌ، ولم يماثله، ولم يشاكلْه، بل هو خالق الأكفاء.

لماذا سميت سورة «الإخلاص»؟

لقد سُميت هذه السورةُ سورةَ الإخلاص لأنها خالصةٌ لله تعالى، ليس فيها ذكرُ شيءٍ من الدنيا والآخرة، وقيل لأنها تُخلِّصُ قارئَها الموقنَ بها من شدائد الآخرة، وسكراتِ الموت، وظلماتِ القبر، وأهوالِ القيامة، ولاشتمال هذه السورةِ مع قِصَرِها على جميع المعارفِ الإلٰهية والردِّ على مَن ألحد فيها جاء فى الحديث الذى أخرجه البخارىُّ عن أبى سعيد الخدرى وأخرجه مسلمٌ عن أبى هريرة: أن رسول اللهﷺ قال فى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ إنها تعدلُ ثلثَ القرآن؛ أى لاشتمالها على تعظيم الله وتوحيده وتقديسه، وروى أنس: أن رسولَ اللهﷺ بشر رجلا أحبَّ هذه السورةَ بقوله: «إنَّ حُبَّها أدخلك الجنة» [رواه الترمذى وقال: حديث حسن] وقد سُميت هذه السورة: الأساسَ لاشتمالها على أصول الدين، وقد جاء فى الخبر: «أُسِّست السمواتُ السبعُ والأرضون السبعُ على قُل هُو اللهُ أحد» يعنى ما خُلقت إلا لتكونَ دلائلَ على التوحيد، ومعرفةِ صفاتِ الله التى نطقتْ بها هذه السورة.

إن فى قوله تعالى: «**أحد**» وصفًا بالوحدانية، ونَفْىَ الشركاء، وقوله: «**الصَّمد**» وصفٌ بأنه ليس إلا محتاجًا إليه وإذا لم يكن إلا محتاجا إليه فهو غنىٌّ بذاته عمن سواه، وفى قوله: ﴿**لم يُولد**﴾ وصفٌ بالقدم والأولية، وقوله: ﴿**لم يَلد**﴾ نفىٌ للشَّبه والمجانسَة، وقوله: ﴿**ولم يكُن له كفوًا أحدٌ**﴾ تقريرٌ لذلك وبَتٌّ للحُكم به. فكيف يَدَّعِى مُدَّعٍ أن له ولدًا أو صاحبة؟

وقوله «**أحَد**» اسمُ يكن، «**وكفوًا**» خبرُه، والجارُّ والمجرور «**له**» متعلقٌ بالخبر، وأصلُ الكلام: ولم يكن أحدٌ كفوًا له، فتقدم فى الآية الجارُّ والمجرورُ مع الخبر على الاسم للعناية بالمقدَّم، فقد قُدِّم المجرورُ لأن

الحديثَ عن الله، وأشدَّ الاهتمام إنما هو بتنزيهه، فَقُدم ضميرُه مع الجار فى حيِّز الكون المنفى، ثم قُدِّم المنفىُّ نفسُه وهو الكفؤُ لأن العنايةَ موجهةٌ إلى نَفْيه، وأُخِّرَ من سُلبت عنه المكافأة وهو «أحد» لأنه لم يُؤت به فى الكلام إلا لقصد تعميمِ النفْى فقط، وإلا فقد كان يكفى أن يقال: وليس له كفؤٌ، ولكنَّ العبارةَ فى الآية الكريمةِ أبينُ وأجملُ وأدقُّ... والله أعلم

وإنَّ ما أجملتْه سورةُ الإخلاص جاء تفصيلُه فى قوله تعالى من سورة مريم:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [٨٨:٩١]

وفى سورة الأنبياء: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [٢٦:٢٨]

وفى سورة الصافات ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۞ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ..﴾ [١٥٨:١٥٩]

يا ذا اللُّبِّ:

إنك إذا رأيتَ إنسانًا يتوجهُ بدعائه إلى غير الله فقلتَ له مُوجِّهًا وناصحًا ﴿**اللهُ الصمدُ**﴾ فقد وعظتَ ونصحتَ، وبينتَ وأرشدتَ إلى الطريق الصحيح، أى لا يُسأل إلا الله، ولا يُطلب النصرُ إلا منه، ولا يُستغاث عند الكرب إلا به، ولا تَنفع الأسبابُ إلا بتوفيقه ومشيئته، فإذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله، موقنًا بالإجابة، واثقًا بما عند الله من الرحمة، راغبًا راهبًا... والله أعلم..

صورةٌ نفسيةٌ لقلوب مريضة :

٢٥٠ - "لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاءِ"

هذه العبارةُ القرآنيةُ اكتسبت صفةَ المثَلِ السائر بعد نُزولها وشيوعِها، وقد جاءت فى سياق آياتٍ من سورة النساءِ تُبين أحوالَ المنافقين، وتكشفُ عن خبايا صدورِهم، وتفضحُ نواياهم، وترسُم لهم صورةً نفسيةً فى خطوطٍ متتابعة، يجدُ المتدبرُ فيها العِظةَ والعِبرةَ، وتبعثُ أهلَ العقلِ والحكمةِ على النفورِ من خصال المنافقين، واجتنابِ مساوئِهم النفسيةِ والخُلقية، وازدراءِ مسالكهم الملتوية، ولنتدبر جانبًا من هذه الصورةِ فى قوله سبحانه ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [١٤٢، ١٤٣]

فمَن المنافقُ؟ وما معنى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾؟ ومالمرادُ بقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾؟

إن المنافقَ فى الشريعة هو مَن أظهر الإيمانَ وأبْطن الكفرَ، وقد سُئل حذيفةُ بنُ اليمان رَضِى اللهُ عنه عن المنافق؟ فقال: هو الذى يَصِفُ الإسلامَ، ولا يَعملُ به.

وإن المؤمنَ خالصَ الإيمانِ يبرأُ من خصال المنافقين، ويناًى بنفسه عن التخلق بأخلاقهم، فهم أهلُ كذبٍ وغدرٍ وخيانةٍ وفجورٍ فى الخصومة لذا حذَّر الرسولُ ﷺ أمتَه من هذه الصفاتِ فقال: «أربعٌ مَن كُنَّ فيه كان

منافقًا خالصًا، ومَن كانت فيه خصلةٌ منهنَّ كانت فيه خصلةٌ من خصال النفاقِ حتى يَدَعَها: إذا اؤتُمن خان، وإذا حَدَّث كذَب، وإذا عاهد غَدَر وإذا خاصَم فجَر» [رواه ابن عمرو بن العاص وأخرجه البخارى]

وقوله: «كان منافقًا خالصًا» أى: شديدَ الشَّبَه بالمنافقين، والخَصلةُ تُطلَق على الفضيلة والرذيلة، والمرادُ فى الحديث الثانى و «حتى يدَعها» أى: يتركهَا.

والنفاقُ فى اللغة: مخالفةُ الباطنِ للظاهر، فإن كان فى اعتقاد الإيمانِ فهو نفاقُ الكفر، وإلا فهو نفاقُ العملِ الذى حثَّ الرسولُ ﷺ المؤمنين على التنزُّه عَنهُ.

وجاء فى الحديث المتفقِ عليه: «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذَب وإذا وَعَد أخْلف، وإذا اؤتمن خان» وفى رواية: «وإن صام وصلَّى وزَعم أنه مسلم» [رواه أبُو هريرة]

والمرادُ ـ والله أعلم ـ الإنذارُ والتحذيرُ عن ارتكاب هذه الخصال لأنها خصالُ المنافقين، فلا يليقُ واحدٌ منها بالمؤمنين، فضلا عن جُملة منها وقوله: ﴿يُخادِعُون الله﴾ أى يفعلون ما يفعلُ المخادعُ من إظهار الإيمانِ وإبطانِ الكفر، ولاشك أن اللهَ عزَّ وجل لا يُخَادَعُ، فإنه العالمُ بالسرائر والضمائر، ولكنَّ المنافقين لجهلهم وقلةِ علْمِهم وعقْلِهم يعتقدون أن أمرَهم كما راج عند الناسِ وجرت عليهم أحكامُ الشريعةِ ظاهرًا، فكذلك يكون حكمُهم يومَ القيامةِ عند اللهِ متوهِّمين أنَّ أمرَهم يروجُ عنده.

﴿وهُو خادِعُهم﴾ أى: وهو فاعلٌ بهم ما يفعلُ الغَالبُ فى الخِدَاع، حيث تركهم معصومى الدماءِ والأموالِ فى الدنيا وأَعدَّ لهم الدركَ الأسفلَ من النار فى الآخرة، فهو سبحانه يُملى لهم ويَستدرِجُهم

فى طغيانهم وضلالِهم، ويَخذلُهم عن الحق والوصولِ إليه فى الدنيا وكذلك فى القيامة فإنهم يُعْطَوْن على الصراط نورًا كما يُعطَى المؤمنون فَيمضُون بنورهم، ثم يُطفأُ نورُهم، ويَبقى نورُ المؤمنين، فينادى المنافقون: ﴿انظُرونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]

ومن صفةِ المنافقين التى لا تَليق بأهل الإخلاصِ أنهم حين يقومون للصلاة يقومون رياءً وسُمعةً ويُقبلون عليها متثاقلين متقاعسين كما نرى من يفعلُ أمرًا على كُرهٍ منه لا عن طيبةِ نفسٍ ورغبةٍ لأنهم لا نيَّةَ لهم فيها، ولا إيمانَ لهم بها ولا خشية، ولهذا نصح ابنُ عباسٍ أهلَ الإيمانِ بقوله: يُكرَهُ أن يقومَ الرجلُ إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقومُ إليها طَلْقَ الوجْهِ عظيمَ الرغبةِ شديدَ الفرَح، فإنه يُناجى الله، وإنَّ اللهَ أمامه يغفرُ له، ويُجيبه إذا دعاه، ثم تلا: ﴿وَإِذا قامُوا إِلى الصَّلاة قامُوا كُسالى﴾ وتلك صفةُ ظواهرِهم، ثم ذكَر سبحانه صفةَ بواطنهم الفاسدة فقال: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أى: لا إخلاصَ لهم، ولهذا يتخلَّفُ المنافقُ كثيرًا عن الصلاة التى لا يراه الناسُ فيها غالبًا كصلاة العشاءِ وقْت العتمةِ، وصلاةِ الصبحِ فى وقت الغلسِ، ولذا حذَّر الحبيبُ المصطفىﷺ المؤمنين من التهاون بأمر الجماعةِ فى هذين الوقتين فقال ـ كما فى الصحيحين ـ «أثقلُ الصلاةِ على المنافقين صلاةُ العِشاءِ وصلاةُ الفجر ولو يعلمُون ما فيهما لأتَوْهما ولو حَبْوًا» الحديث.

وفى التحذير من الرياء قال: «مَن أَحْسنَ الصلاةَ حيث يراه الناسُ وأساءها حيث يخلُو، فتلك استهانةٌ استهان بها ربَّه عزَّ وجل»

[الراوى عبد الله وأخرجه الحافظ أبو يعلى]

والمنافقُ لا يخشع فى صلاته ولا يَدرى ما يقول: ﴿ولا يَذْكُرونَ اللهَ إلا قَليلا﴾ بل هم فى صلاتهم لاهُون، وعمَّا يُرادُ بهم من الخير مُعرِضون.

وفى التحذير من تأخير الصلاةِ إلى آخرِ وقتِها خصوصًا صلاة العصرِ ثم نَقْرِها نقرًا كما يفعل المنافقون يَروى أنسُ بنُ مالك أن رسول اللهِ ﷺ قال: «تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق، تلك صلاةُ المنافق: يجلس يرقبُ الشمسَ حتى إذا كانت بين قَرْنَى الشيطان، قام فنقَرها أربعًا لا يذكرُ اللهَ فيها إلا قليلا» [أخرجه مالك ومسلم والنسائى، وقال الترمذى حديث حسن]

ومعنى: «إذا كانت بين قرنَى الشيطان» أى قَرُبت من الغروب وأراد بالنقْر: تخفيفَ السجودِ، وأنه لا يمكث فيه إلا قدْرَ وضْعِ الغراب منقارَه فيما يريد أكْله.

المتحيِّرون المتخبطون:

إن المنافقين مُحَيَّرون بين الإيمانِ والكفر، فلاهم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولاهم مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظواهرُهم مع المؤمنين وبواطنُهم مع الكافرين، ومنهم من يحيِّره الشكُّ فتارةً يميل إلى هؤلاء وأخرى إلى أولئك، وقد صور سياقُ الآيات حالاتِهم تلك أبدعَ تصويرٍ وأروعه: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلك لا إلَى هَؤلاء ولا إلَى هَؤلاء﴾

ولتوضيح تلك الحالةِ النفسيةِ مَثَّلَ رسولُ اللهِ ﷺ حالَهم فى صورة حسيةٍ مُجسِّمةٍ للمعنى المرادِ بحالِ شاة مُتردِّدةٍ بين قَطيعين، لا تَدرى أيهما تتبعُ فهى فى حيرة وتعب، ولفظُه عند مسلم عن ابن عمر: «مَثَلُ المنافِق كمثَل الشاةِ العائرةِ بين الغنَمين، تَعِيرُ إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، ولا تَدرى أيهما تتبع»

وفى توضيح معنى الآيةِ الكريمة - أيضا - يضرب ﷺ مثلا للمؤمن

وللمنافق وللكافر يجسِّم حيرةَ المنافقِ وذبذبتَه التى تنتهى بهلاكه فيقول: «مثَلُ المؤمنِ والمنافقِ والكافرِ مثَلُ ثلاثةِ نفَر انتهَوْا إلى وادٍ فَدَفع أحدُهم فعَبر، ثم دَفَعَ الآخرُ حتى إذا أتى على نصف الوادى ناداه الذى على شَفير الوادى: ويلك، أين تذهب؟ إلى الهلكة، ارجِع عودَك على بدئك، وناداه الذى عَبَر: هلمَّ إلى النجاة، فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، قال: فجاءه سيلٌ فأغرقه، فالذى عَبَر المؤمنُ، والذى غرِق المنافق ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِك لا إِلَى هَؤلاء ولا إِلَى هَؤلاء﴾ والذى مكَث الكافر.

إنها عبارةٌ محكَمةٌ عظيمةُ الدلالة، قويةُ الإيحاءِ تعبِّرُ عن التردُّد والتحيُّر وعدمِ استقرارِ النفس أدقَّ تعبير، وتصورُ ما عليه أصحابُ القلوب غيرِ المطمئنة من قلقٍ أوضحَ تصوير، هؤلاء الذين يُشايعون كلَّ فريق، وينحازون إلى كل فِكْرٍ إنْ ظاهرًا وإن باطنًا، وإنك إذا رأيتَ إمَّعةً من الناس يُمسِى مع رأْى، ويُصبح مع آخر، ويُداهِنُ الأقوى وإنْ كان على باطل، ويبعثُه ضعفُه على إبطان أمرٍ وإظهارِ ما يناقضُه، إنك إذا قلتَ عن مثل هذا الإمَّعة: ﴿لا إِلَى هَؤلاء ولا إِلَى هَؤلاء﴾ فقد أصبتَ وأجدتَ التمثيل، ووضعتَه فى الإطار الذى يُحدِّد ملامحَ شخصيتِه، ويبرزُ سماتِها النفسيةَ بأجملِ لفظٍ، مع ما تُوحى به هذه العبارةُ الرائعةُ من حركةٍ وتضادٍّ بين الفريقين المُحيَّرِ بينهما مع خلخلةِ هذا المتحيِّرِ واضطرابِ نفسه، وسوءِ اختياره.

فيا حسرةَ من اختار الضلالةَ، وصَرَفَهُ ربُّه عن طريق الهُدى ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلن تَجِدَ لَه سبيلا﴾ أى: لا هادى له، ولا منقذ له مما هو فيه.

سبحانه وتعالى: لا مُعَقِّبَ لحُكمه، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون..

٢٥١- من أدب الإسلام: في الطعام والشراب

سُئل عليُّ بنُ الحسين بنِ واقدٍ هل جاء فى القرآن الكريم مِن عِلْم الطبِّ شيءٌ، وكان السائلُ طبيبَ هارون الرشيدِ الخليفةِ العباسيِّ فأجاب ابنُ الحسين: قد جمع اللهُ الطبَّ كلَّه فى نصف آيةٍ من كتابه العزيز، قال: وماهى؟ قال: قولُه تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]

فقال الطبيبُ وكان من أهل الكتاب: ولا يُؤْثَرُ مِن رسولكم شيءٌ فى الطب، فقال: قد جَمَع رسولُناﷺ الطبَّ فى ألفاظ يَسيرة، قال: وما هى؟ قال: قولُه: «المعدةُ بيتُ الداء والحِمْيَةُ رأسُ الدواء، وأَعْطِ كلَّ بَدَنٍ ما عَوَّدْته» فقال الطبيب: ما تَرَكَ كتابُكم ولا نبيُّكم لجالينوسَ طِبًّا(١)

إن الآية الكريمةَ أَجْمعُ وأوجزُ وأدقُّ وأبلغُ ما جاء فى الطبِّ الوقائى أباح اللهُ فيها لعباده الأكلَ والشربَ من الحلال الطيبِ وقَيَّد ذلك بالعدْل، والتوسُّط: «ولا تُسرِفوا» إذْ فى الإسراف كظُّ المعدةِ، وتحميلُها فوق طاقتِها، والجُنوحُ بالطعام والشرابِ عن الغاية منهما إلى ما قد لا تُحْمَدُ عُقباه.

وفى أدب النبوةِ الهاديةِ مايدلُّ أهلَ العقلِ والحكمةِ إلى ما ينبغى لهم فى طعامهم وشرابِهم، حتى يُجَنبوا أنفسَهم مساوئَ السَّرفِ والشَّرهِ، فعند الإمامِ أحمدَ عن المِقدام بنِ مَعد يكربَ أن رسول اللهﷺ قال: «ما ملأَ آدميٌّ وعاءً شرًّا مِن بطنه: حسبُ ابنِ آدمَ أَكلاتٌ يُقمن صُلْبَه، فإن كان فاعلا لا محالةَ، فَثُلثٌ طعامٌ، وثلثٌ شرَاب، وثلثٌ لنفسِه» وفى لفظِ

---

(١) جالينوس: يونانى أشهر من اشتغل بالطب قديما.

آخرَ «لُقَيْمات يُقمن صُلْبه، وإنْ كان لابدَّ فاعلا فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلث لنفَسه».

وفى التوجيه إلى عدم حرمانِ النفس والتشددِ فى التزام التقشف فى الملبس والمأكلِ نسمعُ قولَه تعالى: من سورة المائدة: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طيِّبات مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُم**﴾ [الآية: ٨٧]

ذلك أنَّ الله يُحب أن يَرى أثر نعمتِه على عبده مع البُعد عن الخُيلاء والعُجبِ ولزومِ التوسطِ والاعتدال، كما جاء فى الأدب النبوىِّ فيما يَرويه عمرو بنُ شعيب عن أبيه عن جدِّه أن رسول اللهﷺ قال: «كلوا واشربُوا والبسُوا وتَصدَّقوا فى غير مخيلةٍ ولا سرَفٍ، فإن الله يُحِب أن يرى أثر نعمته على عبده» [مسند الإمام أحمد]

ولفظه عند النسائى وابنِ ماجة: «كلُوا وتصدَّقوا والبسُوا فى غير إسرافٍ ولا مخيلة».

وجاء عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس بإسناد صحيحٍ قولُه رضى الله عنه: «أحلَّ اللهُ الأكلَ والشربَ ما لم يكن سرفًا ولا مخيلة»

وعند البخارى فى باب قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَن حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ**﴾ [الأعراف: ٣٢]

جاء قول ابن عباس: «كُل ما شِئتَ، والبسْ ما شئتَ ما أخطأتك خصلتان: سرفٌ ومخيلة».

والسرف: ـ بفتحتين ـ الإسرافُ ومجاوزةُ القصد، والمخيلةُ ـ بفتح الميم وكسر الخاء ـ الاختيالُ والكبر.

وفى الحث على الاعتدال فى الطعام والشرابِ وعدمِ إعطاءِ النفسِ كلَّ ما تشتهيه حرصًا على سلامتها جاء فى الأثر: «إن من السَّرف أن تأكلَ

كلَّ ما اشتهيتَ»

﴿إنَّه لا يُحبُّ المُسرِفين﴾ أى: فى الطعام والشراب، والغالين فيما أحلَّ أو حرَّم بإحلال الحرام، وبتحريم الحلال، ولكنه سبحانه يُحب أن يُحلِّلَ ما أحلَّ، ويُحرِّمَ ما حرَّم، وذلك هو العدلُ الذى أمر به.

ومن بركات تقليلِ الطعامِ واعتيادِ الأكلِ عند الحاجةِ والشعورِ بالجوع من بركات ذلك صفاءُ الذهن، والراحةُ فى النوم، وخفةُ حركةِ الجسم وإتاحةُ الفرصة لجودة الهضْم، والتقليل من الأبخرة والفضلات، وقل ما شئتَ من الفوائد النفسيةِ والصحيةِ، وإنَّ أكثر الناسِ أكلا يكون أشدَّهم خُمولا، وأكثرَهم ضيقًا فى التنفس، وأعظمَهم كسلا وميلا إلى النوم وأقلَّهم إقبالا على العمل وإجادةً له، وكأنما نُزِعَت البركةُ من وقته، وقد قال الأولُ: لا تدخلُ الحِكمةُ معدةً مُلئتْ بالطعام، ومَن قَلَّ طعامُه قَلَّ شرابُه، وخفَّ نومُه، وظهرتْ بركةُ عُمره، ومَن ملأَ بطنَه كَثُر شربُه وثَقُل نومُه ومُحِقَت بركةُ عمره.

وفى الحضِّ على التقلل من الطعام، والتنفيرِ من الشَّره والتهامِ ما تَشتهيه النفسُ حتى تمتلئَ المعدَةُ، ويَضيقُ النفسُ نتأمل قصةَ ابنِ عمرَ مع ضيفه كما يرويها نافعٌ واللفظُ فى البخارى قال: كان ابنُ عمرَ لا يأكل حتى يُؤتَى بمسكينٍ يأكلُ معه، فأدخلتُ رجلا يأكلُ معه فأكَلَ كثيرًا.

وفى رواية مسلم: «فجعَل ابنُ عمرَ يَضَعُ بين يديه، ويضعُ بين يديه فجعل يأكلُ أكلا كثيرًا» فقال ابنُ عمر: يا نافعُ، لا تُدْخِلْ هذا عَلَىَّ سمعتُ النبىَّ ﷺ يقول: «المؤمنُ يأكلُ فى مِعًى واحدٍ، والكافرُ يأكل فى سبعة أمعاء»

ونافع: هو مولى ابنِ عمرَ وخادمُه، وكان من أعلام الرواة، ومن

فضائل ابن عمرَ حُبُّه للمساكين وتواضعُه لهم، وحرصُه على ما يقربُه إلى الله بمؤاكلتهم، والتودد إليهم، والانبساط لهم، ومن فضائله أيضًا حرصُه على أدب النبوة، والنفورُ ممَّن يتصفُ بصفة الكافر، فقوله: «لا تُدخِلْ عليَّ هذا» ليس عن بُخل، وإنما لاتصاف الرجلِ بصفة الكافر التى جاء بيانُها فى قول الرسولﷺ من أن الكافر يأكلُ فى سبعة أمعاء.

وهذا من قبيل ضَرْبِ المثَل للبعث على التقلُّل من الطعام، والزهد فيما يُتخِمُ المعدةَ ويُحمِّلُها ما يسوءُ معه الهضمُ ويتبلدُ الذهن، فهو مثَلٌ ضُـرِب للمؤمن وزُهده فى الدنيا، والكافرِ وحرصِه عليها، فكأن المؤمنَ لتقلُّله من الدنيا يأكلُ فى معًى واحد، وكأنَّ الكافرَ لشدة رغبتِه فيها واستكثارِه منها يأكلُ فى سبعة أمعاء، إذ ليس المرادُ حقيقةَ الأمعاء، ولا خصوصَ الأكل، وإنما المرادُ بيانُ التقللِ من الدنيا، والاستكثارِ منها فكأنهﷺ عبَّر عن تناول الدنيا بالأكل، وعن أسباب ذلك بالأمعاء، هذا إلى جانب التنفيرِ من الإسراف فى الطعام، والتوجيهِ إلى القصْد والاعتدال.

وقال بعض شراح الحديث: إنَّ هذا الحديثَ خَرج مخرجَ الغالب وليست حقيقةُ العدَدِ مرادةً، وتخصيصُ السبعةِ للمبالغة فى التكثير والمعنى: أن من شأن المؤمنِ التقلُّل من الأكل لاشتغاله بأسباب العبادة ولعلْمه بأن مقصودَ الشرع من الأكل ما يسدُّ الجوعَ، ولخشيته من حساب ما زاد على ذلك، وإن الكافر تابعٌ لشهوة نفسه مسترسلٌ فيها غيرُ خائفٍ من تبعات الحرام، فصار أكلُ المؤمن إذا نُسِبَ لأكل الكافرِ كأنه بقدْر السُّبْع منه، ولا يلزمُ من هذا اطّرادُه فى حق كلِّ مؤمنٍ وكافر، فقد يكون من المؤمنين من يأكل كثيرًا، إمَّا بحسب العادة، وإمَّا بعارضِ مرضٍ - مثلا - ويكون فى الكافرين مَن يأكل قليلا، إمَّا لمراعاة الصحةِ وإما

للرياضة، وإما لضعف المعدة.

وقد قيل: إن الناس فى الأكل على ثلاث طبقات: طائفة تأكلُ كلَّ مطعوم عن حاجة وغيرِ حاجة، وهذا فعلُ مَن لا يقدِّرُ العاقبة، وطائفة تأكلُ عند الجوعِ بقدر ما يسدُّ الجوعَ حسب، وطائفةٍ يُجوِّعون أنفسَهم لقمع شهوةِ النفس أو إذا أكلوا أكلوا ما يسد الرمَق.

ثم ماذا؟

هذا ومن أدب الإسلام أن يبدأ المؤمنُ الأكلَ ببسم الله، وأن يأكلَ بيده اليمنى، ويأكلَ مما يقعُ فى جهته من الإناء لا يُدير يدَه هنا وهناك حتى لا يُقزِّزَ من يأكلون معه.

ومن تربية الرسولﷺ للمؤمنين فى هذا السياق ما رواه عمرُ بنُ أبى سلمة، واللفظ فى البخارى قال: كنتُ غلامًا فى حجْر رسولِ اللهﷺ وكانت يدى تطيشُ فى الصحفة، فقال لى رسولُ اللهﷺ: «يا غلامُ سَمِّ الله، وكلْ بيمينك، وكُلْ مما يَليك»

وكان فى حَجْره: أى فى كنفه وحمايته، وعمرُ هذا هو ابنُ أمِّ سلمةَ زوجِ النبيﷺ «وكانتْ يدى تَطيش» أى تُصيب مواضعَ فى نواحى الصحفة، أى لم يكن يأكل مِما هو فى جهته منها، والصحفةُ جمعُها صِحاف وهى كالقصْعة أو أصغر منها.

والتسميةُ سُنةٌ عند الأكل ويقاسُ عليه الشرب، وأقلُّها باسم الله وأكملُها: بسم الله الرحمن الرحيم، فإن تركها ولو عمدًا فى أوله قال فى أثنائه باسم الله أوله وآخره.. وفى التسمية طرْدٌ للشيطان، وجلبٌ للبركة، وليكونَ ذكرُ اللهِ عونًا للمرء على البُعد عن الحرام والمكروه فيما يريد أن يأكل منه.

وفى حديث عائشةَ رضى الله عنها عند أبى داودَ والترمذى قالت: قال رسول اللهﷺ: «إذا أكل أحدُكم فليذكُر اسمَ الله تعالى فإن نَسِى أن يذكرَ اسمَ اللهِ تعالى فى أوله، فليقل: باسم الله أولَه وآخرَه»

[قال الترمذى حسن صحيح..]

والأمرُ بالأكل باليمين قيل: للوجوب، لأن اليمينَ فى الغالب أقوى وأمْكن، وهى مشتقة من اليُمن بمعنى البركة، فهى وما نُسب إليها، وما اشتُق منها محمودةٌ لغةً وشرعًا، ولأن اليسار تعالِجُ النجاسة والقذارة.

الأكل بالشمال:

ومن العجيب أن تَناوُلَ الأكلِ والشرابِ بالشمال شائعٌ بين غير المؤمنين، وإنَّ الشيطان يتسلطُ عليهم فى ذلك وعلى من يقلدونهم فى ذلك تقليداً أعمى بلا بصيرة ولا رويَّة، وقد ورد الوعيد على الأكل بالشمال فى حديث سلمةَ بنِ الأكوع: أنَّ رجلا أكل عند رسولِ اللهﷺ بشماله، فقال: «كُلْ بيمينك» قال: لا أستطيع، قال: «لا استطعتَ» مامنعه إلا الكبرُ، فما رفعها إلى فيه بعد [أخرجه مسلم]

وقوله: «لا أستطيعُ» دالٌّ على العِناد والمكابرة، وقد أجاب اللهُ فيه دعوةَ حبيبهﷺ لعناده واستكباره.

وإذا كان فى الإناء لونٌ واحدٌ من الطعام أو مائعٌ ينبغى للمرء أن يأكلَ مما يَليه خصوصًا إذا كان يأكلُ مع غيره حتى لا يبدوَ فى نظرهم نَهِمًا غيرَ ذى مروءة فى مُزاحمته موضعَ يدِ صاحبه.

ومن أدب النبوة الهادية فى الطعامِ ما رواه أبو أمامةَ رضى الله عنه: أن النبىﷺ كان إذا رفَع مائدتَه قال «الحمدُ لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غيرَ مكفىٍّ، ولا مُودَّعٍ، ولا مُستغنًى عنه ربَّنا» [اللفظ فى البخارى]

أى كان إذا فَرَغَ من طعامه، ورُفِع إناؤُه من بين يديه حمد الله، وقوله «كثيرا» صفة لمحذوف أى: حمدًا كثيرًا.

و «غيرَ مكفى» أى أن الله هو المُطْعِمُ والكافِى غيرَه، وهو غيرُ مُطْعَمٍ ولا مَكْفىٍّ من غيره، لأنه مستغنٍ عن كل ما سواه.

وقيل الضمير للمتكلم نفسه: أى أقول ذلك حال كونى غيرَ مكفىٍّ بمَن سِواه عنه سبحانه وتعالى.

و «لا مودَّع» أى حال كون الحمدِ غيرَ متروك، أو حال كونِ اللهِ غيرَ متروكٍ الطلبُ منه والرغبةُ فيما عنده.

«ولا مستغنًى عنه» أى غيرُ مُعْرَضٍ عنه، بل يُحتاج إليه دومًا فهو تأكيدٌ لما قبله.

وقوله: «ربَّنا» أى: يا ربَّنا لا غِنى لنا عن فضلك وبركاتك.

ومن التوجيه النبوى عند الفراغ من الطعام ما رواه معاذُ بنُ أَنسٍ وأخرجه أبو داودَ والترمذى: «مَن أكَل طعامًا فقال: الحمدُ لله الذى أَطعمنى هذا ورزقنيه من غير حولٍ منى ولا قوة غُفر له ما تقدم من ذنبه»

[حديث حسن]

هذا بعضُ أدب الإسلام فى الأكل والشربِ فيه الوقايةُ والصحةُ والذوقُ الرفيع، وفيه التوجيهُ لأجيال المسلمين بضرورة العناية بتعليم وتعلُّمِ هذا الأدبِ العالى والحرصِ عليه.

❋ ❋ ❋

٢٥٢ - «قُل كُلٌّ يَعمَلُ على شاكلتِه»

هذه الحكمةُ القرآنيةُ فيها روعةٌ ودقةٌ، وفيها للمتدبر عظةٌ وعبرةٌ تردَعُ عن الشر، وتَبعثُ أهلَ الاستقامة على الثبات على طريق الخير، ولفْظُ الشاكلة: يُطلق على الشكل وعلى الناحية والنيةِ والطريقةِ والمذهبِ من قولهم: طريقٌ ذو شواكل أى: ذو طرقٍ تتشعبُ منه، مأخوذةٌ من الشكل - بفتح الشين - وهو المِثْلُ والنظيرُ يقال: لستُ على شكْله أو شاكلتِه ومن حكمة اللهِ عز وجل أن جعل الناسَ مختلفِى المشاربِ والاتجاهاتِ والنزعات، ولو شاء عز وجل لجعل الناسَ أمةً واحدة ولكنه سبحانه مكّنهم من الاختيار الذى هو أساسُ التكليف، فاختار بعضُهم الحقَّ وبعضُهم الباطلَ وتشعَّب الباطل، إلى طرق ومذاهبَ وفرقٍ شتى فتعددت شِيعُه وأحزابُه، ولا يزالون مختلفين إلا مَن رحمهم اللهُ فهداهم إلى الحق، ووفّقهم إلى الدين الذى رَضِيَه لعباده فاتفقوا عليه غيرَ مختلفين فيه.

لقد اقتضت الحكمةُ أن يُمكَّنَ الإنسانُ من النظر والتدبرِ والاستدلال ومن أن يَسمع ويعقِلَ وأن يختار بعد وضوحِ الحُجةِ وقيامِ البرهان، وعن الاختيار كان الاختلافُ ليثيبَ سبحانه مختارَ الحق بحسن اختيارِه ويعاقبَ مختارَ الباطل بسوء اختياره، ويشقَى من يشقَى عن بيِّنةٍ، ويَنْعَمَ من يَنْعَم عن بيّنة: ﴿وتَمَّتْ كَلِمَةُ ربِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِن الجِنَّةِ والنّاسِ أَجْمَعِين﴾ [هود: ١١٩]

(١٦٦٧)

لعِلْمه سبحانه بكثرة من يختار الباطل.

قال قتادة: أهلُ رحمة الله أهلُ الجماعة، وإن تفرَّقت ديارُهم وأبدانُهم، وأهلُ معصيته أهلُ فُرْقَةٍ، وإن اجتمعت ديارُهم وأبدانُهم.

وقال على بنُ أبى طلحة عن ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله سبحانه: ﴿فَمِنْهُم شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]

ولله الحكمةُ النافذة، والعلمُ التامُّ، والحجةُ البالغة، جعل الجنةَ لمن يستحقها، والنارَ لمن يستحقها، وقد وَهَبَ الإنسانَ العقل، والقدرةَ على التمييز والفهم، وأرسل الرسلَ وأنزل الكتُبَ، كيلا يكونَ للناس على الله حجةٌ بعد الرسل.

وقد جاء قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُل كلٌّ يَعْمَلُ عَلى شَاكِلَتِه﴾ من سورة الإسراء فى مساق الحديثِ عن ظهور الحق وزهوقِ الباطلِ وافتراقِ المكلَّفين إزاء أدلةِ القرآنِ وبراهينه، فمنهم من شفى القرآنُ نفسَه من الشكوك والريب، واطمأنَّ قلبُه إلى الحق وآياته، ومنهم من نَفَر واستعصى وازداد ضلالا وغيًّا، ولم تنفعه العِبرة، ولم ينجح معه الدواء، واختار الـمُقبِلُ طريقَ السداد والرشاد واستقام على منهج الحق والهدى، واختار الـمُعرِضُ طريقَ الضلال والهوى، وجاءت الحكمةُ القرآنيةُ الـمُحكَمةُ المركَّزةُ الموجَزةُ الغنيةُ بالمعانى والدلالات معبرةً أصدقَ تعبيرٍ وأدقَّه عن هذا الحال، وصارت مَثَلا سائرًا بعد نزولها وشيوعها فى المسلمين: «**قُل كلٌّ يعملُ على شاكِلَته**» أى: كلُّ واحدٍ من الـمُعرض والـمُقبل، أو مِن المؤمن والكافرِ يعمل على طريقته ومذهبِه الذى يشاكلُ حالَه ويَشابهُه فى الهُدى والضلال، والـحُسْنِ والقُبح. ومن إيحاءات هذه الحكمةِ القرآنية البشارةُ لأهل التوحيدِ والإخلاصِ بِحُسن العاقبة

٢٥٣ـ أـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم

سورةُ الكهفِ مكيةٌ، وهى مائةٌ وعشرُ آياتٍ فيها بيِّناتٌ وبراهينُ على كمال قدرةِ الخالق، وجليلِ حكمتِه، وعظمةِ سلطانه، وكمالِ علمِه وتدبيرِه وتفرُّدِه ـ سبحانه ـ بالإلهية، وتنزُّهِه عن الولد والشبيهِ والمثيلِ والشريكِ.

وفى هذه السورةِ الكريمةِ من القصص والأنباءِ والأمثالِ ما يُحبِّبُ الإيمانَ إلى النفوس، ويُزيِّنُ اليقينَ إلى القلوب، ويثبِّتُ الموحِّدين على طريق الاستقامة، ويزيدُ قلوبَهم إيمانًا وطمأنينة، وفيها من العِبَر والعظاتِ ما يشوِّقُ أهلَ المحبةِ إلى معالى الأمورِ ويَبعثُهم على التحلِّى بسامى الفضائل، وجميلِ الخِصال والشمائلِ، ويزجرُ عن الفساد والشرورِ والغرور.

وفى مطْلَع سورةِ الكهفِ لقَّن اللهُ عبادَه وعلَّمهم كيف يُثْنون عليه ويَحمدُونه على أجزلِ نعمائه عليهم وهى نعمةُ الإسلام، وما أنزل على عبده محمدﷺ من الكتاب الذى هو سببُ نجاتِهم وفوزِهم:

﴿الحَمْدُ للَّه الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْده الْكتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا۝قَيِّمًا لِيُنذرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١ـ٢]

واللام فى قوله ﴿الحمدُ لله﴾ للاستحقاق، أى: هو المستحقُّ للمدح والثناءِ والشكرِ كلِّه، لأَنَّ كلَّ شىء من نِعَمه، فلا مُنعمَ إِلا هو.

وقوله: «**على عبْده**» فيه إشعارٌ بأن شأنَ الرسولِ أن يكونَ عبدًا لِلمُرسِلِ لا كما زعمتْ النصارى فى حق عيسى ابنِ مريمَ عليهما السلام.

وقد تضمَّن الكتابُ الذى أُنزل على محمدٍ ﷺ سعادةَ الدارين، ومن خصائصه الكمال فى اللفْظ والمعنى وفى الحِكَم والأحكام، وهو كتابٌ مستقيمٌ لا اعوجاجَ فيه ولا زيْغ، بل يَهدى إلى صراط مستقيم، معتدلٍ لا إفراطَ فيه ولا تفريط، وهو مُصدِّقٌ لِمَا تقدَّمه من الكتب التى أُنزلت على المرسَلين شاهدٌ بصحَّتها، ناسخٌ لها، قائم بمصالح العبادِ وما لا بُدَّ لهم منه من الشرائع، والعِوَجُ فى المعانى كالعِوَج فى الأعيان: ﴿**وَلَمْ يَجْعَل لَّه عِوَجًا**﴾ أى: لم يجعلْ له شيئًا من العِوج، والمرادُ: نَفْىُ الاختلافِ والتناقُضِ عن معانيه ونَفْىُ خروجِ شىءٍ منه من الحكمة، ثم أكَّد نفْىَ العِوجِ عنه بإثبات الاستقامة له بقوله: «**قَيِّما**» والقَيِّمُ، والقيُّومُ والقَيَّامُ بِناءُ مبالغةٍ للقائم، أى: جعلَه مستقيمًا معتدلا، أو قيِّما بالمصالح الدينيةِ والدنيويةِ للعباد.

هذا الكتاب العزيزُ من كفَر به وزاغَ عنه هَلك، ومَن آمن به وصدَّقه واتَّبع الداعىَ إليه فازَ ونجَا: ﴿**لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْه وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا**﴾ [الكهف: ٢، ٣]

أى: للكافرين به المكذِّبين له عذابٌ شديدٌ من عند الله الذى لا يُعذِّبُ عذابَه أحدٌ، ولا يُوثِقُ وَثَاقَه أحد، أمَّا المؤمنون الصالحون فإنّ لهم الأجرَ الذى يَسُرُّ نفوسَهم، والنعيمَ الدائمَ الذى لا تَبْلَى جِدَّتُه.

ثم نَبَّه السياقُ إلى فساد مزاعمِ المُثَلِّثين، وبطلانِ عقائدِ المُشبِّهين الخالقَ بِخلْقه فى اتخاذ الولدِ والصاحبة، فخصَّهم بالإنذار تنبيهًا إلى

بشاعة ما يلْفظون به من الكلمة التى لا تستندُ إلى دليل، ولا يقومُ عليها بُرهان: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤]

كاليهود والنصارى ومشركى العرب، توعَّدهم بالهلاك إن أصرُّوا على معتقدهم هذا الذى لم يصدُر عن علم، ولكن عن جهْل مُفرطٍ وعن تقليدٍ للآباء، وقد استملتْه آباؤُهم من الشيطان وتسويله:

﴿مَالَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]

ذلك لأنَّ هذا القولَ ليس مِمَّا يُعْلَمُ لاستحالته، فهو فى نفسه مُحالٌ لا يستقيم تعلُّق العلْمِ به، لذا فظَّع السياقُ ما خَرج من أفواههم بأنَّ لله ولدًا، واستبشَعه وقَبَّحه غايةَ التقبيح، ونفاه نفيًا قاطعًا باتًّا، وأكَّد بُطلانَه غايةَ التأكيد بعبارة موجَزة قويةِ الوقْعِ على النفس، مثيرةٍ للتعجُّب من أمْر هؤلاء الذين تخرُج من أفواههم كلمةٌ فظيعةٌ لا قرارَ لها فى القلوب، ولا بُرهان فى العقول: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]

أى: عظُمتْ مقالةً شنيعة، و «كلمةً» تمييزٌ منصوبٌ مُفسِّرٌ للضمير المُبهَم فى «كَبُرت» وجملة: ﴿تخرجُ مِن أَفْواهِهم﴾ صفةٌ لكلمة فى محلِّ نصب تُفيد استعظامَ اجترائهم على التفوُّه بها، قال القاضى: عظُمت مقالتُهم هذه فى الكُفر لِمَا فيها من التشبيه والتشريك، وإيهامِ احتياجه إلى ولدٍ إلى غير ذلك من الزيْغ.

و «كَلِمة» المرادُ بها هنا الكلامُ التامُّ، وليس المرادُ اللفظَ المُفرَدَ، كما يقال: ألقى زيدٌ كلمةً واستمعْنا إلى كلمة المعلِّم التى تَضمَّنت نصيحتَه وقد أكَّد السياقُ أن كلمتَهم هذه ليس لها مُستنَدٌ سوى قولهم، ولا دليلَ عليها، بل هى مَحْضُ كذبٍ وافتراء: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]

تسليةُ النبى صلَّى اللهُ عليه وسلم:

ثم قال اللهُ مسلِّيًا رسولَه محمدًا ﷺ فى حُزنه على المشركين لتركْهم الإيمانَ وبُعدهم عنه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]

وباخعٌ: اسمُ الفاعلِ من بخَع أى: لعلَّك قاتلٌ نفسَك ومُهلكُها. قال فى القاموس: بخَع نفسَه أى قتَلها غـمًّا، و «**بهذا الحديث**» أى بالقرآن و «**أسفًا**» مفعولٌ لأجله، أى: لفَرْط الحُزنِ على إعراضهم عن القرآن والأسفُ معناه المبالغةُ فى الحُزن والغضَب، ويقال: رجلٌ أَسِفٌ وأَسيف.

لقد كان ﷺ شديدَ العنايةِ بقومه وبدعوتهم إلى الإسلام، وكان يَحْزَنُ أشدَّ الحُزنِ لعنادهم ونفورِهم، فَمَثَّل اللهُ فى هذه الآية الكريمة حالَه ﷺ وحالَهم حين تولَّوْا عنه ولم يُؤمنوا به وما تَداخَلَه من الوجْد والحُزنِ والأسف على إعراضهم عن الإيمان بالقرآن، وكمالِ التحسُّرِ عليهم بحالِ مَن فارَقَه أُحبَّتُه وأَعزَّتُه، فهو يتساقطُ حسراتٍ على آثارهم ويبخعُ نفسَه تأسُّفًا عليهم وتلهُّفًا على فِراقهم، وهذا منه ﷺ غايةُ الرحمةِ والشفقةِ على أُمته، ويدلُّ على كمال القيامِ بأداء حقوقِ الرسالة والإقدامِ على العبودية فوق الطاقة فقال له ربُّه: لا تُهلكْ نفسَك أسفًا وحُزنًا على صدودهم، وأَمَرَه أن يَرفُقَ بها كما جاء فى سورة الشعراء: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الآية: ٣]

وفى سورة فاطر: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [الآية: ٨]

وإنذارُ أهلِ الجحود والمصرِّين على المعاصى بسوء المُنقَلب، كما فى قوله تعالى فى ختام سورة هود: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ الرسلِ ما نُثَبِّتُ به فؤادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَذه الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤمنين﴾وَقُل لِّلَذين لا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُون﴾وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُون﴾
[الآيات: ١٢٠ـ١٢٢]

أى: قل يا محمدُ للمعاندين الذين لا يؤمنون بما جئتَ به من الحق والموعظةِ اعملوا على طريقتكم ومنهجِكم إنا ـ نحن المسلمين ـ عاملون على طريقتنا ومنهجنا، فستعلمون يا مَن انحرفتم وتشعبتْ بكم مسالكُ الشياطين مَن تكونُ له عاقبةُ الدار أو مَن الظالمون الهالكون؟ والأمرُ فى قوله: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مكَانَتِكُم﴾ ﴿وَانتظِرُوا﴾ للتهديد والوعيد.

إن لأهل الحقِّ طريقًا واحدًا مستقيمًا لاعِوَجَ فيه ولا انحراف، اللهُ ربُّهم، ومحمدٌ نبيُّهم ورسولُهم وقدوتُهم، والقرآنُ العظيمُ إمامُهم ونورُهم، لذا فهم على استقامةٍ فى العقيدة، وفى الخُلق، وفى العمل وفى المعاملات، وضَحَت لهم مسائلُ الحلال والحرام، وعرفوا الخيرَ وحرصُوا عليه، والشرَّ ونأَوْا عنه، واستعانوا بالله على طاعته والثباتِ على طريق الإسلام حتى يَلقَوه، وأهلُ الحق على شاكلةٍ واحدةٍ مهما تناءت الديارُ، واختلفت الألسنةُ، يُولّون وجوهَهم شطرً قبلة واحدة ويصومون شهرَ رمضانَ على نظام واحد، ويقصدُ القادرون منهم بيتَ الله المعظَّم فى مكةَ المكرمةِ لأداء العمرةِ والحجِّ حيث يلتقون فى المشاعر المقدسةِ فى أيام معلوماتٍ من العام على نحو يَهزُّ القلوب، كما أنهم إخوةٌ متحابون متعاطفون متراحمون يتعاونون على الخير، ويتواصَوْن بالحق والصبر، هذَّب الدينُ نفوسَهم، وصقَل ضمائرَهم، وأحيا قلوبَهم إن

زلَّت بهم القدمُ نَدِموا وأنابوا، وتابوا راجين خائفين.

أمَّا أهلُ الباطل فهم شِيعٌ متعارضة، وأحزابٌ متناقضة، ونِحَلٌ مختلفة، وطرائقُ متعددة، اتخذوا الهوى إلَهَا، فضلّوا وأضلّوا، تشعبت بهم المسالك، وفرقتهم الأهواءُ والمذاهب.

إن الحقَّ يعلو وما يُعلَى: برهانُه ساطع، ودليلُه قاطع، وحجتُه بالغة أما الباطلُ فغثاءٌ كغثاء السيل يأباه الذوقُ السليمُ ويرفضُه العقلُ المستقيم مآلُه إلى اضمحلال، ومصيرُه إلى زوال، ولاثباتَ له مع الحق ولابقاء:

﴿وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]

لقد شَفَى اللهُ صدورَ أهل الحق بالقرآن، وطهَّرها من الشك، والنفاق، وصانها من الزيْغ والشرك، قَوَّمَ القرآنُ نفوسَهم، وأصلَح قلوبَهم، وزادهم إقبالُهم على القرآن وتعاليمه سكينةً وطمأنينةً وحبًّا للخير وكراهيةً للسوء والشر، فكان القرآنُ لهم دواءً وشفاء ورحمة.

وقد نبه سياقُ الآيات من سورة الإسراء إلى فضل القرآن، فقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]

فكما هو شفاءٌ لِمَا فى الصدور من أدواء الريبِ وأسقامِ الأوهام ورحمةٌ للمؤمنين به لأنهم ينتفعون بما جاء فيه فى تقويم المسالك وتهذيب النفوس، فإنه لا يزيدُ الكافرين المكذِّبين به إلا هلاكًا وشقاءً بسبب جُحودهم له وإنكارِهم آياته، وإعراضِهم عن هَدْيه، مع كون القرآنِ فى نفسه شفاءً لأسقام النفوس، وأمراضِ القلوب، وكما يزيد الإيمانُ بزيادة الأدلة والآيات، فكذلك يزداد الكافرون بُعدًا عن الله مع زيادة إعراضِهم عن الآيات والبراهين، وبذلك يضاعَفُ لهم العذاب.

وفى الآية الكريمة إيماءٌ إلى أن الشُّبَهَ والشكوكَ بمنزلة الأمراض، وأن الاهتداءَ والاسترشادَ بالآيات بمنزلة الدواء والشفاء، وأنَّ ما بالكفرة من الجهل والعنادِ بمنزلة الخسارِ والهلاك، وتأمّل التضادَّيْنَ الحالين، والفرقَ بين المنزلتين، وبُعْدَ مابين الفريقين، فهذا مهتدٍ بنور القرآن، وذاك يتخبطُ فى ظلمات الإلحادِ والشرك، هذا يُحلِّقُ فى سماء الروحية الصافيةِ مطمئنَّ القلبِ لقضاء الله وقَدره، وذلك حائرٌ فى مسارب الشكوكِ والأوهام إن مَسَّه الشرُّ كان جزوعًا، وإن مسَّه الخيرُ بَطر واستكبر، وجَمع ومنَع، ولنتدبر هذه الصورة النفسيةَ لليائسين من رحمة الله المتعظِّمين على عباد الله فى قوله سبحانه: ﴿**وَإِذَآ أَنْعَمْنا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِه وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا**﴾ [الإسراء: ٨٣]

وهذا بيانٌ لحال مَن كان على هذه الصفة من بنى الإنسان، إذا امتحنه اللهُ بالرخاء والصحةِ ونال ما يريد من دنياه نَسِى رازقَه وخالقَه، وأعرض عن طاعته ونأى بجانبه عن إخوانِ الأمسِ مستكبرًا عليهم، بل ربما تَرفَّع وتعظَّم على أهله وأقربِ الناسِ إليه، وإذا نزلت به نازلةٌ، ووقَع له ما تعافُه نفسُه من فَشل أو مرض أو حاجةٍ أو نائبةٍ انزعج وضَجِرَ، ويئِسَ من رحمة الله عز وجل وفضله.

فهذا نموذجٌ من الناس لم ينتفع بدواء الوحْى الإلهى الذى يُصحِّحُ فكرَ الإنسان ونظرتَه إلى الحياة، ويملأُ قلبَه إيمانًا بقضاء الله وقدَره، فيعيشُ ساكنَ النفس على أىِّ حال، إن أصابتْه سَرَّاءُ شكَرَ المنعمَ الوهاب، وتواضع لعباد الله، واستخدم النعمةَ فى وجهها الصحيح، وإن أصابته ضراءُ صبَر راضيًا شاكرًا على أى حال، راجيًا عفوَ الله ورحمتَه لا يقنطُ من رحمة الله أبدًا، ذاكرًا ما جاء من الحكمة على لسان إبراهيمَ الخليلِ

فى الكتاب العزيز: قال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]

والضالّ بعيدٌ عن هداية السماء، لم يَذُق قلبُه طعمَ الإيمان وحلاوته.

وبهذا افترقت الطرائقُ بالناس: فمنهم مهتدٍ يسير على نور من إيمانه ومعرفته بعظمة الله عز وجل وسلطانه، ومنهم ضالٌّ يتخبطُ مختلَّ الموازين يَمضى فى حياته على غير بصيرة، يَهوِى فى مزالقِ الحياةِ الطينية بإنكاره أو إشراكه، وإصراره على معاصى الله وإكبابه عليها.

وإنك - أيها المؤمنُ البصير - حين يُزيِّن لك أحدُ أعوانِ الشيطان مسالكَ السوء والشر، ويدعوك إلى فِعل ما يُغضبُ الربَّ، ويحاول فتنتَك عن الحق والهدى، ثم تنصحُه بالخير فلا ينتصح فإنك تقول له: ﴿قُل كُلٌّ يعملُ على شاكلته فَربُّكُم أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلا﴾ [٨٤]

أو تقول له: ﴿لَكُم دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٥]

إنك حين تقول ذلك متمثلا بالآيتين الكريمتين تكونُ قد بينت حقيقةَ الحال أوضحَ بيانٍ مع الإيجاز والروعةِ والدقة، والتنبيهِ لسوء عواقبِ الضالين والغاوين الذين ينأَوْنَ بجانبهم عن الصراط المستقيم.

يقول صاحب روح البيان: فى قوله: «**قُل كُلٌّ يعملُ على شاكِلَته**» إشارةٌ إلى أنَّ الأعمالَ دلائلُ الأحوال، فمن وجَد نفسَه فى خيرٍ وطاعةٍ وشُكر، فليحمد الله تعالى كثيرًا، ومَن وجَدها فى شرٍّ وفِسق وكُفرانٍ ويأسٍ فليرجعْ قبل أن يخرجَ الأمرُ من يده.

فويلٌ لمن يغترُّ بالدنيا، وتُلهيه العاجلةُ عن الآجلة، ويتمادى فى غيِّه وإسرافه على نفسه، وطُوبى لأهل الحقِّ المستمسكين بالعُروة الوثْقى ومَن تاب وأناب تاب اللهُ عليه بفضله وإحسانه.

ونبذوا ما عليه أهلُ زمانِهم من الشرك والإلحاد، وقد أراد دقيانوسُ مَلِكُهم إكراهَهُم على الشرك، فأبَوْا، وهربُوا فرارًا بدينهم، مُؤْثِرين العُزلةَ فى غارٍ بعيدٍ عن الناس، مُفوِّضين الأمرَ لله وحْده، رافعين أكفَّ الضراعة إليه وحده: أن يُؤتِيَهم من خزائنِ رحمته الخاصة المكنونة «رحمةً» تَستوجبُ المغفرةَ والرزق، والأمنَ من الأعداء، وأن يُثبِّتَ قلوبَهم، وأقدامَهم على الطريق المستقيمِ الذى رَضِيَه لعباده الصالحين حتى يَظلُّوا راشدين مُهتدين، ولنتدبر تفاصيلَ هجرتهم، وما أسبغَ اللهُ عليهم من تأييده وحفظه: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٠-١٢]

يقصُّ علينا السياقُ بدايةَ رحلةِ الفرارِ من الفتنة، ولجوءِ الفتيةِ الموحِّدين إلى كهفٍ بجبلٍ اتخذوه مأوًى بعيدًا عن قومهم، وكان سلاحُهم الدعاءَ والتضرعَ يطلبون سلامةَ الدين، والأمنَ، وحُسنَ العاقبة، فكان من لُطف الله بهم أن ألقى عليهم النوم، فناموا فى الكهف سنين كثيرة لتكون قصتُهم آيةً على القُدرة، وكمال التدبيرِ والحكمة: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ أى: أنمناهم إنامةً ثقيلةً لا تُنبِّههم فيها الأصواتُ، على طريقة التمثيلِ المبنىِّ على تشبيه الإنامةِ الثقيلةِ بضرْب الحِجَابِ على آذانهم.

وكان البُعْدُ المكانىُّ لقصة إنامتِهم هو الكهفَ، والبُعْدُ الزمانىُّ سنين ذواتِ عددٍ بلغت ثلاثَمائة سنةٍ وتسعَ سِنين، ثم اقتضت حكمةُ العليمِ الخبيرِ أن يَبعثَهم بَعْدها من تلك الرقدةِ الثقيلةِ الشبيهةِ بالموت، ليُوضَعوا

ومعاصروهم فى هذه الفترةِ فى أول اختبارٍ حينما يَسألُ بعضُهم بعضًا عن المدى الزمنى الذى استغرقوه فى نومتهم تلك: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾.

والعلمُ هنا مَجازٌ عن الاختبار، فالمعنى بعثناهم لنعاملَهم معاملةَ مَن يختبرُهم و ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أى: أى الفَريقين المختلفين فى مدة لبثهم وكان الفتيةُ أنفُسهم قد اختلفوا فمنهم من قال: لَبِثنا يومًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ومنهم مَن فَوَّض الأمرَ إلى العليم الخبير، وقال: ربُّكم أعلمُ بما لَبِثْتُم لأنهم أدركُوا أنَّ لبثَهم قد تطاول، كما أن معاصريهم الذين عَلِموا بأمرهم تكلَّموا فى هذا الحادث العجيب، واختلفت آراؤُهم - أيضًا - فى تقدير مدةِ لبثِهم فى الكهف.

وإنَّ اشتراك هؤلاء جميعًا فى التفكير لتقدير المدى الذى استغرقوه فى نومتهم، يبعثُهم على التأمُّل فى هذه الحالة الغريبة ويُظْهِرُ للإنسان عَجْزَه ويدفعُه إلى التفويض، وإلى التفكر فيما صَنع اللهُ بهم من حِفظِ الأبدان والدِّين، فيزداد الفتيةُ أنفسُهم إيمانًا واعتبارًا، ويكونُ لُطفًا لمؤمنى زمانِهم وزيادةَ تثبيتٍ لهم، وآيةً بينةً لكُفَّارِه تَدعو إلى التبصُّر والتدبر، كما أن فى هذه القصةِ برهانًا من براهينِ الحكمةِ والقدرةِ لذوى الألباب والنُّهَى حتى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها.

ثم شَرَعَ السياقُ فى بَسْط قصةِ هؤلاء الفتيةِ وشرْحِها وما كان من لُطف اللهِ بهم، مع التنبيهِ إلى مواطنِ العبرة والدروسِ التى تنفعُ ذوى الألبابِ والنُّهى، وتُبَصِّرُهم بصراطِ الهُدى والرشاد، وتُضىءُ للعقل طريقَه، وترشِّدُ لَهُ فِكْرَه وتوجُّهاته.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۞ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِم إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣-١٤]

سببُ نزول الآيات:-

لقد سُئل الرسولُ محمدٌ ﷺ عن أصحاب الكهفِ وقصتِهم، كما سُئل عن الروح، وعن ذى القرنين، وكان ذلك بإيعازٍ من يهود للعرب، فلم يُجب عن شىء من ذلك حتى نزل الوحىُ بحقيقةِ الأمرِ فى كلِّ مسألة لأنه ﷺ كان أميًّا من أمة أُميَّةٍ لا عِلْمَ له بِمَا جاء فى التوراة والإنجيل وغيرِهما من الكتب السماويةِ، وكان الجوابُ على لسانه بعد نزولِ الوحْى بهذه المسائلِ الثلاث معجزةً من معجزاته ﷺ الدالةِ على صِدْقه فى أنه يُحدِّثُ عن ربِّه وبما يُوحَى إليه وفى أنه نبىٌّ مُرسَل، ولا ينطقُ عن الهوى، وإن الواجبَ على أهل العقلِ والحكمةِ أن يُذعنوا للحق بعد ظهورِ برهانه، وأن يُبادروا إلى الإيمان به ﷺ وتَرْكِ ما هم عليه، لأنَّ الإسلامَ هو دينُ اللهِ العامُّ الناسخُ لِمَا قبله من الأديان الإلهية، والمبطلُ لكل مظاهرِ الشركِ والوثنية، والداحضُ للإلحاد بقوّة آياته، وسطوعِ أدلته، لقد قال له ربُّه فى بيانِ قصةِ أصحابِ الكهف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ أى: نحن نُخبرك - يا محمدُ - حقيقةَ خبرِ أصحابِ الكهف والرقيم، ونقصُّه عليك قصًّا ملتبسًا بالحق والصِّدق، وفى هذا توطئةٌ تُنبِّهُ العقلَ والوجدانَ لتلقِّى هذا النبأ وما يَنطوى عليه من حوادثَ فيها عِبرٌ وآياتٌ، وما يقصُّ بالحق إلا ربُّ العباد ثم يأتى خبرُهم ملتبسًا بالثناء عليهم، ولطفِ اللهِ بهم: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ

﴿هُدًى﴾﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِم﴾ فهم فتيةٌ شبابٌ، والشبابُ أقبلُ للحق وأهدَى للسبيل، وقد ألهمهم اللهُ رشدَهم، وآتَاهم تقواهم، فآمنوا بربِّهم واعترفُوا له سبحانه بالوحدانية، وشَهِدوا أنه لا إلهَ إلا هو.

إنه الشبابُ الذى يفتحُ عقلَه على الكون من حوله، متأملا، متدبرًا فى بديع صُنع الله عز وجل، مستدلا بالمصنوع على وجود الصانع، ومستدلا بجمال الآياتِ الكونية وتناسقِها، وما تُؤديه من منافعَ تَجِلُّ عن الحصْر على وحدانية اللهِ وعلى كمالِ القدرةِ الإلهية، وكمالِ الحكمةِ والعلمِ والتدبيرِ، وعلى عدمِ الحاجةِ إلى الشريك والولدِ والصاحبة، إنه الشبابُ الذى يسعى بكل طاقاته وقدراته لكسب المعرفة التى تُسدِّدُ خطواته على الطريق الصحيح بلا إفراط أو تفريط، وبلا جُبن أو تهوُّر، ويَثْبُتُ على الحق مهما قَلَّ أنصارُه، ويكره الباطلَ مهما كثُر أعوانُه، ويجعلُ عملَه خالصًا لربه، ويُدْئِبُ جوارحَه فى الطاعة، ويَنأى بكل قُواه عن الشرِّ والسوء وأسبابِ الفتن.

﴿إِنَّهُم فِتْيَةٌ﴾ عبارةٌ جميلةٌ أخَّاذةٌ وسرٌّ جمالِها وقوتِها فى نَعْت هؤلاء الفتيةِ بقوله سبحانه: ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِم﴾ أى: إيمانًا صحيحًا ويقينًا صادقًا.

﴿وَزِدْنَاهُم هُدًى﴾ أى: وأعانهم سبحانه بالتوفيق والتثبيتِ على الدين الحق، وأظهر لهم مكنوناتِ محاسنه كما زادهم ربُّهم من فضْله بأن قَوَّى قلوبَهم حتى اقتحموا مضايقَ الصبر، ورضُوا بهجْر الوطن والدارِ والأهلِ مطمئنةً نفوسُهم، وفَرُّوا بالدين إلى بعض الغِيرانِ تجنبًا للفتنة وطلبًا لسلامة الدين.

ولقد صَوَّر لنا سياقُ الآية هذه المعانىَ تصويرًا بديعًا فى قوله:

وفى سورة النحل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [الآية: ١٢٧]

ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه جعل الدنيا دارًا لا بقاءَ لها، مُزيَّنةً بزينةٍ فانيةٍ وقد جَعلها دارَ اختبار للعبد لا دار قرارٍ فمَن عرف حقيقةَ الدنيا وعَمِل للدار الآخرة، ووجَّه همتَه لنيْل ما عند الله من الرحمة والنعيم الدائمِ فهو العاقلُ الحكيم، ولنتدبَّر: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]

ففى الأرض الحيوانُ والنباتُ والمعدنُ، وما يَسرُّ ويُبهِجُ وتميلُ إليه النفس، وقد أباح اللهُ لعباده الانتفاعَ بالحلال الطيب من المآكل والمشاربِ والثياب، وحَدَّ لهم حدودًا حتى لا يعتدِىَ أحدٌ على حقِّ أحد، وحرَّم عليهم أشياءَ، حفاظًا على نفوسهم من الـمُهلكات والمؤذيات، ليبلُوَهم ويعاملَهم معاملةَ من يُختَبَرُ حتى يظهرَ ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فى ترك الحرام، وعدمِ تعلقِ القلبِ بالدنيا، ومخالفةِ هوى النفس، وجعلِ الدنيا مطيةً للآخرة، طلبًا لمرضاة الربِّ، وحتى يظهرَ أيُّهم أقبحُ عملا فى الإعراض عن دين الله، والإقبال على الدنيا ومتاعِها الفانى، ونسيانِ العملِ للآخرة والغفلةِ عمَّا أعدَّ اللهُ للمارقين من عذاب أليم.

ثم زهَّد سبحانه وتعالى فى الميل إلى الدنيا ببيان خاتمةِ قصتِّها وأنها إلى زوال وانقضاء، حين تُمسك الأرضُ خيراتها، وتضنُّ ببركاتها وتزولُ زينتُها بأمر ربِّها: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨]

يعنى تصير مثل أرضٍ بيضاءَ، لا نبات فيها بعد أن كانت خضراءَ مُعشبةً تسرُّ الناظرين، والصعيدُ الجرُز: هو الترابُ الذى لا نباتَ فيه ولا

شجر، تقول: سنة جرُز: أى لا مطرَ فيها.

هذه هى قصةُ الدنيا من بدايتها إلى نهايتها: بهجةٌ وزينةٌ، ثم خرابٌ شاملٌ ودمار، يوم تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسمواتِ، وفى هذا تنبيهٌ لأهل العقلِ والحكمةِ ليتدبروا، ويتأملوا، ويجتهدوا فى العمل للباقية وما أحسنَ قولَ القائل:

يا صـــاحبى لا تغترَّ بالنِّعـــم ... فالعمرُ يَنفدُ والنعيمُ يـزولُ

وإذا حَمَلْتَ إلى القبور جنازةً ... فاعْلمْ بأنك بعْدَها مَحمولُ

وفى الآيتين الكريمتين تنبيهٌ لآية عظيمةٍ من آيات الله الكونية وهى: تزيينُ الأرض بما خَلَق سبحانه فوقها من الأجناس التى لا حصْر لها وإزالةُ ذلك كلِّه كأن لم يكن، وفى ذلك برهانٌ ناطقٌ بالوحدانية، وكمالِ القدرة.

ولـمَّا كانت قصةُ أصحابِ الكهفِ من أعاجيبِ الآياتِ الدالةِ على قدرة الخالقِ نبَّه اللهُ عبادَه إلى أن هذه القصةَ وإنْ كانت خارقةً للعادات فإن لِلَّه تعالى آياتٍ فى السماء والأرضِ والنفسِ البشرية أعجبَ وأعظمَ من أخبار أصحابِ الكهف وفيها للمتدبر عظةٌ واعتبارٌ ودليلٌ قاطعٌ وبرهانٌ ساطع، فطوبَى للمتدبر.

ونلتقى مع قصة أصحابِ الكهف بإذن الله.

❄ ❄ ❄

٢٥٤-ب-«إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ»

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]

الخطابُ فى الآية الكريمة للرسول ﷺ، والمرادُ أمتُه، و «أَمْ» منقطعةٌ بمعنى بَلْ، أى: بَلْ أَحَسِبْتَ وظننْتَ، بمعنى ما كان ينبغى أن يَحْتسبَ ولم حَسِبْتَ؟ والمعنى: يا محمدُ ليس أمرُ هؤلاء الفتيةِ عجيبًا فى قُدرتنا وسلطاننا، فإنَّ خلْقَ السمٰوات والأرض، واختلافَ الليلِ والنهار وتسخيرَ الشمسِ والقمرِ وسائرِ النجوم والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمةِ الدالةِ على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاءُ قادر، وأنه لا يُعجزه شىء، ذلك كلُّه: أعجبُ من أخبار أصحابِ الكهف.

قال مجاهد: قد كان من آياتنا ما هو أعجبُ من قصتهم، وفسَّره ابنُ عباس بقوله: الذى آتيناك - يا محمدُ - من العلم والكتابِ والسنةِ أفضلُ من شأن أصحابِ الكهف والرقيم [نقله ابن كثير عن تفسير الطبرى]

وفى تفسير ذلك بعموم الحُججِ القائمةِ على العباد يقول محمد بنُ إسحاق: ما أظهرتُ من حُجَجى على العباد أعجبُ من شأن أصحابِ الكهفِ والرقيم.

والمقصود: أن آياتِ الله الكونية، وآياته البيناتِ فى كتابه وما جاء به الوحْىُ حُجَجٌ قاطعات، وبراهينُ ساطعاتٌ، ودلائلُ شاهداتٌ بوحدانية الله عز وجل، وناطقاتٌ بكمال قدرته وسلطانه وعظمته، وهى أعمُّ وأدخلُ فى باب البرهانِ من قصة أصحابِ الكهفِ التى هى آيةٌ شاهدةٌ

بعظمة الخالق، وقدرته الكاملة، وسلطانه المطلَقِ سبحانه وتعالى، وفى ذلك ـ واللهُ أعلم ـ تنبيهٌ للعباد لئلا يغفُلوا عن التدبر والتأملِ والتفكرِ فيما جاء به الوحْىُ، وفى خلْق السموات والأرضِ وما يقعُ حولنا من الظواهر الكونيةِ وعجائبِ الصنعةِ والقدرةِ مِمَّا ينطقُ بلسانٍ فصيح: إنَّ لى خالقًا خَلقنى، وموجِدًا أوجدنى، على مُقتضى حكمته وإرادته، لا يشاركُه أحدٌ فى سلطانه، وهو غنىٌّ عن جميع عباده، وكلُّ العبادِ فى احتياج إليه، ولولا كمالُ رحمته لهلَك الخلق، وقد أرسل الرسلَ وأنزل الكتبَ لتكونَ الحجةُ قائمةً على ذوى العقول والأفهام.

أمَّا الكهفُ: فهو الغارُ الواسعُ فى الجبل، فإن لم يكن واسعًا فهو غار، والرقيمُ: اسمُ كلبِهم، ونَقَل غيرُ واحدٍ عن ابنِ عباسٍ أنَّ الرقيمَ وادٍ قريبٌ من مدينة أيلةَ، وهى على ساحل البحرِ الأحمرِ مِمَّا يَلى الشامَ أو هُو: القريةُ أو اسمُ الجَبلِ الذى فيه الكهفُ، وجاء عن علىٍّ بنِ أبى طلحةَ عن ابنِ عباس أن الرقيم: هو الكتابُ، وقال سعيدُ بنُ جبير: هو لوحٌ من حجارة كتبوا فيه قصصَ أصحاب الكهفِ ثم وَضعُوه على باب الكهفِ، وقيل: هو لوحٌ من رَصاص رُقِمَت فيه أسماؤُهم، وقيل: رَقَموا حديثَهم نقرًا فى الجَبل ذاته، فالرقيمُ فَعيل بمعنى مفعول، كما يقال: جريح بمعنى مجروح، واختار هذا المعنى ابنُ جرير، كما جاء عن عبد الرحمن بن زيد بنِ أسلم: الرقيمُ: الكتابُ، ثم قرأ:

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩]

وأصحابُ الكهف: هم فتيةٌ من أشراف الرومِ نظروا فى الآيات واستدلوا بالمصنوع على وجود الصانعِ، وبعظمة الكونِ واتساقه على وحدانية الخالقِ وتفرُّده بالإلهية فنزَّهوا اللهَ عن الشريك والولدِ والصاحبةِ

ومعنى: «**افترى**» اختلَق، يقال: افترى الكذب أى اختلَقه، ومنه الفِرية أى الكذب، وزيادة «**كَذِبًا**» مع أن الافتراء لا يكون إلا كذلك للإشارة إلى أنَّ ما نسبوه مع كونه افتراءً على الله هو كذبٌ فى نفسه.

ويدخل فى حُكم هؤلاء أيضًا من ادَّعى النبوةَ وأنه يُوحَى إليه ولم يُوحَ إليه شىء، وكذلك من سَخِر من القرآن وقالُوا لو نشاء لقلنا مثلَ هذا، وفى هؤلاء جاء قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿**ومَن أظلمُ ممَّن ٱفتَرىٰ علىٰ ٱللهِ كذبًا أوْ قَالَ أُوحِيَ إلىَّ ولمْ يُوحَ إليه شىءٌ ومَن قَالَ سأُنزِلُ مثْلَ ما أنزلَ ٱللهُ**﴾ [الآية: ٩٣]

ومن هؤلاء مسليمةُ الحنفىُّ الكذابُ صاحبُ اليمامة والأسودُ العنسىُّ صاحبُ صنعاء وأمثالُهما ممن ادَّعى النبوةَ وهم كذَّابون مُفترون كالقاديانى والبهائىِّ والبابىِّ فى العصور المتأخرة.

ومن المفترين على الله من يُحَرِّمُ ما لم يُحرِّمه اللهُ لِيُضِلَّ الناسَ بجهله عن الحق، ولنتدبر قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿**فمن أظلمُ ممَّن افترىٰ علىٰ ٱللهِ كذبًا لِيُضِلَّ الناسَ بغيْرِ عِلْمٍ إنَّ ٱللهَ لا يَهْدِى القومَ الظَّالمين**﴾ [الآية: ١٤٤]

وذلك فى سياق بيانِ ما كان يفعلُه الجاهليون من تحليلٍ وتحريمٍ فيما يُبيحون ويُحرِّمون من الأنعام من تلقاء أنفسِهم على غير هُدًى ولا كتابٍ مُنير، ومثلُ هؤلاء مَن يُحِلُّ ما حرَّمه الله، أو يناصرُ بِدعتَه بتأويلِ كلامِ اللهِ تعالى على مقتضَى هواه ورأيِه.

وفى سورة هودٍ بيَّن اللهُ عز وجل أن المفترين على الله كذبًا تُصَبُّ عليهم اللعنةُ يوم القيامة من الملائكة والنبيين والمؤمنين تبشيعًا لعملهم، وتحذيرًا من مسالكهم، ولنسمع الله عز وجل يقول: ﴿**ومَن أظلمُ ممَّن افترىٰ علىٰ الله كذِبًا أُولئكَ يُعرَضُون علىٰ ربِّهم ويقولُ الأشهادُ هٰؤلاء**

﴿الَّذين كذَبوا علىٰ ربِّهم ألا لعنةُ الله علىٰ الظَّالمين﴾ [الآية: ١٨]

وفى إطار هذه الحكمة القرآنية تستطيع ـ يا ذا اللب ـ أن تضع كلَّ ملحد ومبتدعٍ فى الدين وكلَّ دجَّال وضالٍّ ممن يَدَّعون علْم الغيب أو يقولون فى الدين بغير علم، أو يُحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، ويَصرِفُون الآياتِ عن وَجْهها الصحيح لينتصروا لمذاهبهم الفاسدة، ولضلالاتهم وفكرِهم المعوجِّ، أو ليرُضوا مخلوقًا رغبةً أو رهبة.

ولعل من المناسب هنا أن نُوردَ قولَ رسولِ الله ﷺ: «مَن قال فى القرآن بغيرِ علمٍ فليتبوأْ مَقْعدَه من النار» [أخرجه أحمد والترمذى وغيرهما ورواه ابنُ عباس] وفى رواية: «ومَن قال فى القرآن برأْيه» ويدخلُ فى هذا الوعيدِ هذه الأصنافُ الضالةُ التى تتخذُ الحقَّ وسيلةً لمساندة الباطلِ بالتأويل والتحريف والتمويهِ على عوامِّ الناس لِيُضلُّوهم عن سبيل الهُدى.

عود إلى الفتية:

رأَى الفتيةُ المؤمنون أن خروجَهم من الديار، وبُعْدَهم عن القوم المشركين فيه سلامةُ دينهم، وأمانٌ لأنفسهم من أسباب الفتنة، شأن من يَحرِصُ على النفيس الغالى ويضنُّ به على الضياع، ويبذلُ فى سبيل ذلك أقصى صبرِه وجلَدِه فى الرعاية والصيانة، وبعد المشاورة اختاروا أن يخرجوا إلى غارٍ متسعٍ فى جبلٍ بعيدًا عن عيون مناوئيهم المتربِّصين بهم ومعهم الكثرةُ والقوةُ، وآثَروا الغُربةَ بدينهم وأنفسِهم راجين من الله رحمتَه وإحسانَه ورضاه وأن يهيئَ لهم من الوسائل والأسبابِ ما يكون عونًا لهم على طاعته والثباتِ على الإسلام حتى يلقَوْه سبحانه.

وهيَّا نتدبر هذا الحوار الجميلَ المؤثرَ الذى يجعلُنا نعايشُ أحوالَهم النفسيةَ والفكرية، ونتصورُ رقةَ قلوبِهم، وسلامةَ نفوسِهم من الزيْف والغِشِّ والنفاق وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعتزلْتموهُم وَما يَعبدُون

﴿إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦]

والمرفَقُ: هو ما يُرتفَقُ به أى يُنتفَع به، و «يَنشُرْ» أى: يبسُطْ عليكم ويشملْكم، وهو مضارعٌ مجزومٌ بالسكون لأنه جوابُ شرطٍ محذوف دلَّ عليه الطلب، أى: فَأْووا فإن تأووا ينشر لكم. و «يُهيئْ» معطوف على ينشر مجزوم بالسكون.

والضمير «هم» فى «اعتزلتموهم» فى محلِّ نصبٍ مفعولٌ به، و«ما» اسمُ موصول معطوف على الضمير فى محل نصب، وجملة «يعبدون» صِلتُه لا محلَّ لها من الإعراب، والمعنى: وإذ اعتزلتم هؤلاء المشركين واعتزلتم معبوديهم، وقوله «إلا الله» كلامٌ معترِضٌ إخبارٌ من الله تعالى عن الفتية أنهم لم يعبدوا غيرَ الله، ويجوزُ أن يكونَ استثناءً متصلا على ما روى أن هؤلاء القومَ كانوا يُقرون بالخالق ويُشركون معه غيرَه، كما كان عليه حالُ أهلِ مكة، فقد كانوا يعتقدون بوجود الله، وأنه خالقُ كلِّ شىء، ويقولون: إنهم عبدوا الأصنام ليقربوهم إلى الله زُلفى. فوقعوا فى الإثم العظيم، والظلمِ الفظيع، ويجوز أن يكونَ الاستثناءُ منقطعًا أى: إننا نعتزل هؤلاء وأندادَهم ونثبتُ على عبادة الله وحده.

لقد جاء دعاؤُهم ورجاؤهم فى الآية بصيغة تدلُّ على اليقين والثقة فيما عند الله ﴿ينشُرْ لكُم ربُّكم من رحمته، ويُهيئْ لكم مِّن أمرِكم مرفقًا﴾ وما جزموا بهذا الرجاء إلا لخلوص يقينهم عن شَوْب الشك، وقوةِ وثوقهم بالله وعظيمِ رجائهم فى رحمته وتأييده، وهذا يُذكِّرنا بقول الرسول ﷺ «ادعو اللهَ وأنتم موقنون بالإجابة».

وقد أجاب اللهُ دعاءَهم، وبسَط عليهم من رحمته، وهيأ لهم ما أبقى عليهم سلامةَ الدين، وصحةَ اليقين. فماذا كان من أمرهم فى الكهف؟.

٢٥٦ - د - آيةٌ ناطقةٌ بكمال القدرة وشاهدٌ على أنَّ البعث بالروح والجسدِ معًا

إن قصةَ أصحابِ الكهف سِيقت للعظة والاعتبارِ وتنبيهِ الإنسانِ للمصير المحتوم.

لقد خرج هؤلاء الفتيةُ مهاجرين فى سبيل الله، وأَووا إلى كهفٍ فى جبل راجين أن يبسُطَ اللهُ عليهم من رحمته، وأن يحفظَهم من الفتنة فى دينهم، وأجاب الله دعاءهم، فناموا بفضله نومةً طويلة، وفى النوم أمنٌ وسكينة

وإذا العنايةُ لاحظتْك عُيونُها نَم فالمخاوفُ كلُّهن أمان

وبفضل اللهِ وعنايته ظَلَّ ماءُ الحياة يَجرى فى أجسادهم طَوال هذه المدة، وهُيئت لهم الأسبابُ التى تحفظُ أبدانَهم وملابسَهم من البِلَى والتآكل: فالشمسُ لم تقطع زيارتَها عن الكهف طالعةً وغاربةً دون أن يقعَ شعاعُها على أجسادهم: ﴿وَتَرَى الشمسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِم ذَاتَ اليَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِن آيَاتِ اللهِ﴾ [الكهف: ١٧]

فالشمسُ لا تبلغُ أجسادَهم كيْلا تُؤذيَهم، وتغيِّرَ ألوانَهم، وتُبلِىَ ثيابَهم، فهى تعدلُ عنهم وتَميلُ إلى جهةِ اليمينِ أولَ النهار، وهى تتركُهم وتعدِلُ عنهم إلى جهة الشمال عند الغروب، وهم نيامٌ فى فجْوة أى فى مُتَّسعٍ وسطَ الكهف ينالُهم رَوْحُ الهواء، ولا يُؤذيهم حرُّ الشمسِ ولا كربُ الغار، وتلك آيةٌ دالّةٌ على كمال القدرة، وعجيبِ الصنعة.

و﴿رَبطْنا على قُلوبِهم﴾.

قال فى الأساس: ربطتُ الدابةَ شددتُها برباط، ومن المجاز ربَط اللهُ على قلبه أى: صَبَّره، ولـمَّا كان الخوفُ والقلق يُزعِجُ القلوبَ عن مَقارِّها، قيل فى مقابلته: رُبِط على قلبه، إذا تمكَّن وثبَتَ، وهو تمثيلٌ: شَبَّه تثبيتَ القلوب بالصبْر بِشَدِّ الدوابِّ بالرِّباط.

وبعد أن نَبَّه السياقُ إلى ما كانوا عليه من قُوة اليقين، وسلامةِ الدِّين، وثباتٍ على الحق، وصبرٍ على الغُربة والبلاء، فَصَّل ما كانوا عليه من صبْرٍ وجَسارةٍ وحكمةٍ فى مواجهة أهلِ الشرك، وفى صَدْعهم بكلمة الحقِّ لإزهاق الباطلِ بالدليل والبُرهان.

والكلامُ متصل بإذن الله تعالى

❄ ❄ ❄

٢٥٥-ج - هجرةٌ فكريةٌ وبدنية وغُربة نفسيَّة فى سبيل الله

كان أصحابُ الكهفِ دعاةً إلى الحق، نُهاةً عن الباطل، مرشدين باللُّطف والإحسانِ إلى الطريق المستقيم، وإلى صحة النظرِ فى الكون وآياته الشاهدةِ بالوحدانية، وإلى براهينه الناطقة باستحالة أن يكونَ للخالق العظيمِ شريكٌ أو ولد، وقد واجه الفتيةُ قومَهم بالحق ودلائله وصدَعوا بالحق الذى آمنوا به عن صحةِ نظرٍ واستدلال: بأنَّ خالقَ السمٰواتِ والأرضِ وما فيهما ومَن فيهما رَبٌّ واحدٌ لا شريكَ له فى ملكه، وهو المتفرِّدُ بالإلهية فلا معبودَ بحق سِواه، ولا يجوزُ لعاقلٍ رشيدٍ أن يدعُوَ من دونه إلٰها، لأن اتخاذ الشريكِ والشفيعِ إمعانٌ فى الضلال ومجاوزةٌ للحق، وإسرافٌ على النفس فى الظلم.

وفى صَدْعِهم بعقيدتهم الصحيحة وإبلاغها لقومهم يقول الربُّ مخبرًا عنهم ومُثنيًا عليهم: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَ الأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤]

وتأمل قوةَ التعبير والجزْم والعزْم فى: ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا﴾ ولن: لنفى التأبيد، أى: لا يقع منا عبادةٌ لغير الله أبدًا حتى نلقاه سبحانه على التوحيد النقىِّ الخالص، واليقينِ الصادق.

والشططُ: مصدرٌ بمعنى مجاوزةِ القدْر فى كل شىء، ويفيدُ الإفراطَ فى الظلم والإبعادَ فيه، وقد جاء فى الآية وصْفًا لقولٍ محذوفٍ على سبيل المبالغة، أى: قلنا قولا ذا شَطط، أو قولا هو عينُ الشطط من شطَّ

يشِط - بكسر وسط المضارع - ويشُط - بضم وسط المضارع - شططًا وشُطوطًا أى: بعُد، و «إذا»: جوابٌ وجزاءٌ، أى: لو دعَوْنا من دونه إلهًا، فواللهِ لقد قُلنا قولا خارجًا عن حد العقل، مفرطًا فى الظلم مبعِدًا فى الكذب والاختلاق، إذ إن ادعاءَ الشريكِ لله محضُ افتراءٍ ولا أصلَ له أبدًا، إذْ لا وجودَ للشريك ألبتةَ، لهذا أشاروا إلى قومهم منكرين ومتعجِّبين ومُقرِّعين قائلين: ﴿هؤلاءِ قومُنا اتخذُوا مِن دُونه آلهةً لوْلا يأتُون علَيْهم بسُلطانٍ بَـيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]

والسلطانُ البين: هو الحجةُ الواضحةُ المقبولةُ، وعبارة: ﴿لوْلا يأتُون علَيْهم بسُلطانٍ﴾ المقصودُ بها التحدِّى والتعجيزُ والتبكيتُ وليس طلبَ بينةٍ أو حجةٍ على ما هم عليه من الشرك، لأنه لا حجةَ ولا بينةَ على ذلك أصلا، والمعنى: أن المشركين يعبدون آلهةً من دون الله لم يتمسكوا فى صحة عبادتها ببرهان سماوىٍّ، ولا لهم فيها علمٌ ضرورى، ولا دليلٌ عقلى، لذا فإن عملَ المشرك موضعُ سخريةِ العقلاءِ وتوبيخهم.

واسمُ الإشارة: «هؤلاء» مبتدأٌ فى موضعِ رفْعٍ بالابتداء، و «قومُنا» عطفُ بيانٍ منه مرفوعٌ بالضمة الظاهرة على الميم، و«نا» فى موضع جرٍّ مضافٌ إليه. أما خبرُ المبتدأ فهو جملة: ﴿اتخذُوا مِن دُونه آلهةً﴾

ولـمَّا كانت نسبةُ الشريك إلى الله بالغةَ الغايةِ فى الكذب، موغلةً فى الاختلاق والافتراءِ فقد ذُيلت الآيةُ الكريمةُ باستفهامٍ يقررُ أنهم بلغوا بذلك أقصى غاياتِ الظلم، ولنتدبر:

﴿فَمن أَظلمُ ممَّن افترى على الله كذبًا﴾ [الكهف: ١٥]

و: «مَن» اسمُ استفهام يفيدُ النفْىَ على معنى: ليس أحدٌ أولا أحدَ أظلم ممن يتخذُ من دون الله إلهًا.

وهذه العبارةُ من حِكم القرآنِ الغنيةِ بدلالاتها، الثريةِ بمعانيها، مع ما فيها من إيجاز وإعجاز وإحكامٍ وقوةِ إنذارٍ ووعيدٍ تهزُّ القلب، وتلفتُ للتدبر والتأمل، وقد اكتسبت هذه الحكمةُ صفةَ المَثَلِيةِ لقوتها فى الردْع والزجْرِ عن الكذب على الله، واختلاقِ ما لا أصل له، ونسبةِ ما لا يجوز أبدًا أن يُنسبَ إليه سبحانه جلَّت صفاتُه، وتعالى بجلاله وكماله عما يقول الملحدون والمشركون علوًّا كبيرًا.

والمتدبر للقرآن العظيمِ يجدُ أن هذه الحكمةَ النفيسةَ قد جاءت فى معارضَ شتَّى فى عدد من سوره، من ذلك على سبيل المثال والاعتبار قولُه تعالى من سورة الأنعام: ﴿وَمَن أَظلَمُ مِمَّنِ ٱفترىٰ علىٰ ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كذَّبَ بآياته إِنَّهُ لا يُفلِحُ الظَّالمون﴾ [الآية: ٢١]

وقوله من سورة الأعراف: ﴿فَمَن أظلمُ مِمَّنِ ٱفتَرىٰ علىٰ ٱللَّهِ كذِبًا أَوْ كذَّب بآياته أُولئكَ يَنالُهم نَصيبُهم مِّنَ ٱلكتابِ حَتىٰ إِذا جآءتْهم رسلُنا يَتوفَّوْنهم قالُوٓا أَين مَا كنتُم تَدْعُونَ مِن دونِ ٱللَّهِ قالُوا ضلُّوا عنَّا....﴾ [الآية: ٣٧]

وفى سياق ردعِ الذين قالوا للنبىﷺ: ﴿ائتِ بقُرآنٍ غير هَذا أَوْ بَدِّلْه﴾ [يونس: ١٥]

جاء قولُه تعالى من سورة يونس: ﴿فَمن أظلمُ مِمَّنِ ٱفتَرىٰ علىٰ ٱللَّهِ كذِبًا أَوْ كذَّب بآياته إِنَّه لا يُفلِحُ المجْرِمون﴾ [الآية: ١٧]

وقد تَمَّ توجيهُ الوعيدِ فى هذه الآياتِ لكل من افترى على الله الكذبَ ولمن كذَّب بآياته سبحانه، ولمن اختلق من تلقاء نفسه كلامًا وقال هو من عند الله، أو بدَّل بعضَ آياته وحرَّف الكلِمَ عن مواضعه، هؤلاء أظلمُ من كلِّ ظالم، ولا يفوزون بِرَوح ولا رَيحان.

والرجْمُ فى الأصل: الرمْىُ بالرجْم وهو الحجارةُ الصغيرة، استُعير للتكلم بما لا علْم به، ولا اطلاع عليه لخفائه، تشبيها له بالرمى بالحجارة التى لا تُصيب المرمَى.

ثم أرشد اللهُ نبيَّه والمؤمنين إلى أن الأفضلَ فى مثل هذا الأمرِ رَدُّ العلم إليه تعالى، وعدمُ الخوض فيه: ﴿قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فإذا أَطْلَعَنا اللهُ على أمره قُلنا به، وإلا وقفنا، وثبوتُ الأعلميَّة له تعالى لا يُنافى علمَ قليلٍ من الناس به، وهو قوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُم إِلا قَلِيلٌ﴾ وكان ابنُ عباس يقول: أنا من هذا القليل، وكان قد عَلِم بِعدَّتهم من رسول اللهﷺ بعد نزول الوحى بقصَّتهم.

ثم أرشد السياقُ إلى أن الجدالَ فى شأن أصحابِ الكهفِ مع الخائضين فيه والمجادلين إنما يكون بذكْرِ ما قصَّ اللهُ فى شأنهم، كما لا يُسأل أحدٌ من أهل الكتابِ فى هذا الأمرِ لأن فيما جاء به الوحْىُ غنًى وكفايةً: ﴿فَلا تُمارِ فِيهِم إِلاَّ مِرآءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]

وذلك سدًّا لباب التعمُّقِ فى الجدال المؤدى إلى مجافاة القلوب.

توجيه وتربية:

إن الرسولﷺ حين سُئل عن أهل الكهف، وعن الروح وعن ذى القرنين قال لهم: «ائتونى غدًا أُخبِرْكم» ولم يقل إن شاء اللهُ، فأبطأ عليه الوحىُ بضعةَ عشرَ يومًا حتى شَق عليه، فأرشده اللهُ إلى ذلك بقوله: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۞ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]

وفى هذا تأديبٌ لأهل الإيمانِ أن يُقرنوا المشيئةَ بكل أمرٍ عَقدوا عزمَهم

على فعله.

ثم أخبر سبحانه بمدة لبثهم فى الكهف وهو ثلاثُمائة سنةٍ وتسعُ سنين قمرية، وهو الحقُّ الصحيحُ الذى لا شكَّ فيه، لأن العلم بالغيب لله وحده يُوحى به إلى من يشاء من عباده، وهو سبحانه لا يَغيب عن بصره وسمعه شىء، لا يحجبُه شىء، ولا يتفاوتُ عنده لطيفٌ وكثيف، وصغيرٌ وكبير، وخَفىٌّ وجَلىّ: ﴿وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا﴾

[الكهف: ٢٥ـ٢٦]

وكان العلمُ بهذا وتبليغُه إحدى معجزاتِ الصادق الأمينِ ﷺ.

٢٥٧ - الحجةُ قائمةٌ على الإنسان ولا عُذرَ لمكلَّف

قال الحق تبارك وتعالى من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۞ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الآية: ١٧٢-١٧٤]

فَطَرَ اللهُ الإنسان على قبول الحقِّ واتباعه، وَهَيَّأَ لإدراك دلائلِ توحيدِ الإله، والإيمانِ بربوبيته، وتنزيهه عن الشريك والندِّ والمثيل، إذا خُلِّي ونفسَه دون أن تعترضَه الأهواءُ والوساوس، ودون أن تصلَ البيئةُ المحيطةُ به بوسائلها الضاغطةِ على الفكر والنفسِ إلى طمس نورِ الفطرةِ في نفسه.

وأمدَّ اللهُ الإنسانَ بكل ما يُبصِّره ويُعينُه على تحقيق رسالةِ وجودِه وتكليفه كيلا يكونَ لأحد عذرٌ أو حجةٌ إن هو انحرف عن منهاج الفطرة، وأبى قبولَ الحق واتباعَه، أمدَّه بنافذتين هما غايةٌ في الدقة والروعةِ والإعجازِ يَصلانه بكتاب الكونِ من حوله مرئياته ومسموعاته وهما: السمعُ والبصرُ، ومن ورائهما قلبٌ ذكيّ، وعقلٌ ألمعيّ، وفكرٌ جوّال، وأرسل سبحانه الرسلَ، وأنزل الكتبَ فيها أمرُه ونهيُه، ووعدُه ووعيدُه، والدلائلُ والآياتُ الناطقاتُ بوحدانيته لهداية العقلِ وإرشادِه حتى لا يضلَّ ولا يزلَّ، فإن كُتبت للقلب والعقلِ السلامةُ من الحجاب المانع من وصول الحقِّ ببراهينه الساطعة، ودلائله الشاهدةِ كان ذلك أمارةَ

النجابةِ والفلاح، وإنَّ فاقِدَ الانتفاعِ بهاتين النافذتين فى نجاة رُوحه، وتخليصِ مُهجتِه من عذابٍ مقيمٍ لهو أعظمُ الناسِ ظُلمًا، وأكثرُهم خُسرانًا، ولنتدبر من سورة يونس: ﴿وَمنهُم مَّن يَسْتَمعُونَ إليكَ أفأنتَ تُسْمِعُ ٱلصمَّ ولَو كَانُوا لا يَعْقِلُون * وَمنهُم مَّن يَنظُر إلَيْكَ أَفأنتَ تَهْدى ٱلعُمْىَ ولَو كَانُوا لا يُبصِرُون* إن ٱللهَ لا يَظْلِمُ ٱلناسَ شيئًا ولٰكنَّ ٱلناسَ أنفسَهم يَظلمون﴾ [٤٢: ٤٤]

نعم: هم الذين يظلمون أنفسَهم بانحرافهم عن منهاج الفطرة، وبعماهم عن تدبر الآيات الكونية، وصَمٍّ آذانِهم عن سماع ما جاء به الرسل واختيارِهم الضلالة، وإعراضِهم عن الهداية والطريقِ المستقيم، ولذا مَثَّلَهم بالصُّمِّ والعُمى.

لقد أشهد اللهُ عز وجل بَنِى آدم على أنفسهم وأرسل الرسلَ كيلا يكونَ لأحدعذرٌ عند الحساب.

وإن ابن كثير فى تعليقه على قوله: «**وإذ أخذ ربُّك من بَنى آدمَ . .**» الآيات قال: يُخبِرُ اللهُ تعالى أنه استخرج ذريةَ بنى آدمَ من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربُّهم ومليكُهم، وأنه لا إلٰهَ إلا هو كما أنه تعالى فَطرهم على ذلك وجَبلهم عليه، قال تعالى من سورة الروم: ﴿فَأَقمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنيفًا فِطْرَةَ ٱللهِ الَّتى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لَخلْقِ اللهِ﴾(١) [الآية: ٣٠]

وفى الصحيحين عن أبى هريرةَ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «كلُّ مولود يُولَد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانِه ويُنَصِّرانه ويُمَجِّسانِه، كما تُولد البهيمةُ

(١) الفطرة: قابلية الدين الحق والتهيؤ لإدراكه، أو هى دين الإسلام والتوحيد وقد خلق الله الناس قابلين له غير نابين عنه، إذا خلُوا وأنفسهم دون أن تعترضهم الأهواء والوساوس.

لقد هُدوا إلى الصراط المستقيم فثبَّتهم الله، وآمَنهم من الخوف جعلَهم آية، ومن هَداه اللهُ فهو الموفَّقُ للسعادتين، ومَن أضلَّه فهو لخذولُ الشقىُّ المحروم، ولذا ذُيِّلت الآيةُ بحكمة خالدة هاديةٍ لقاعدة حليلةٍ يُتَمثَّلُ بها فى الأحوال المشابهة: ﴿من يهدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن ضلِلْ فَلَن تَجدَ لَه ولـيًّا مُّرشدًا﴾ [الكهف: ١٧]

وكيف يَجدُ الضالُّ ناصرًا ينصرُه، أو مرشدًا يَهديه بعد خذلانِ الله له وفيها: أنَّ كلَّ مَن سلك طريقَ المهتدين الراشدين فهو الذى أصاب فلاح، واهتدى إلى مَراقِى السعادة.

وكما لم يُحرَمُوا من فوائدِ الشمسِ ظلَّت عيونُهم على هيئة الناظرِ لم نطبق لتبقى ظاهرةً للهواء سالمةً إلى ما شاء الله، كما كانوا يُقَلَّبون فى قْدتهم مرةً ذاتَ اليمين، وأُخرى ذاتَ الشمال، كيلا تأكلَ الأرضُ ما ليها من أجسادهم مع توالى السنين، وما نزل بهم من الخير والبركةِ شَملِ كلبَهم الوفىَّ فلحِقَه من العناية ما لحقهم، وهذا من بركات صحبةِ صالحين الأخيار، وقد كان الكلبُ أيضًا أمام بابِ الغارِ فى هيئة لحارسِ اليقظ الأمين: ولنتدبر صورتَهم وهيآتِهم فى الآية الكريمة: ﴿وتَحسبُهم أَيقاظًا وَهُم رُقُودٌ ونُقَلِّبُهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ وكَلبُهم اسطٌ ذِرَاعيْه بالوَصيدِ لَو اطَّلعتَ عَليْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنهم فِرارًا ولَمُلِئْتَ منهُم عبًا﴾ [الكهف: ١٨]

فقد أكسبهم اللهُ هيبةً ورهبةً بحيث لو اطَّلع أحدٌ عليهم لولَّى مذعورًا رجُف قلبُه رعبًا وفزعًا.

إنها آياتٌ بيناتٌ ناطقاتٌ بأن لهذا الكونِ خالقًا مدبرًا حكيمًا عليمًا له مالُ السلطان يختص بعضَ عباده الصالحين بكراماتٍ على منهاج خَرْقِ

العادة لحكمة وغاية، فيها عظةٌ واعتبارٌ لأُولى الألباب[1].

وأرى اللهُ أولياءَهُ أصحابَ الكهفِ آيةً فى أنفسهم زادتهم إيمانًا ويقي
إذ أيقظهم من نومتهم الطويلة، ليتساءلوا عن أحوالهم ومدة لُبثهم، عن
أولِ وهلةٍ من يقظتهم: ﴿وَكذلكَ بَعثْناهم ليتَساَءلُوا بينهمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُ
كَم لَبِثْتُم قَالُوا لَبِثْنا يَوْمًا أَوْ بعْضَ يَومٍ قَالُوا رَبُّكم أعْلَمُ بِما لَبِثْتُم﴾
[الكهف: ١٩

وكان الجوابُ فى أول الأمرِ مبنيًّا على الظن الغالب، فلمَّا تمعَّنوا ف
هيئاتهم استبعد فريقٌ منهم هذا الرأىَ وقالوا: ﴿ربُّكم أعلمُ بما لَبِثتُم
أى: أنتم لا تعلمون مدةَ لُبثكم فى الكهف لأنها متطاولةٌ ومقدارُها مُبْهَ
وعِلْمُ ذلك عند الله وحده، وكان لهم فى ذلك آيةٌ على البعث بعد الموت.

﴿فَابْعَثُوا أَحدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إلى المدينَةِ﴾ [الكهف: ١٩]

قالوا ذلك إعراضًا عن التعمق فى البحث عن مدة لُبثهم، وإقبالا عل
ما يُهِمُّهم بحسب الحال، والحاجةِ العاجلة، والوَرِقُ: الفِضَّةُ مضروبةٌ أ
غيرُ مضروبة، بَعثُوا بها أحدَهم إلى المدينة ليشترِى لهم قوتَ يومه
ذلك، وأوصاه أن يبتاعَ من طيِّب الطعامِ وحلاله وأرخصه، كما أوص
بالرفق فى الشراء واللُّطْفِ فى إخفاء أمرِه لئلا يُعْرَفَ فَيَشِيعَ خبرُهم ف
المدينة عن غير قصد منه، ويلحقَهم أذًى من أهل الشرك والإلحاد
﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهآ أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتكُم برِزْق مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بكُ
أَحَدًا۝إِنَّهُم إن يَظْهَروا عَلَيْكُم يَرْجُمُوكُم أَوْ يُعِيدُوكُم فِى مِلَّتِهِم وَلَ

(١) ومن معجزات الأنبياء أنه سبحانه حفظ إبراهيم الخليل وسط نار تتلهب، وحفظ خات
رسله وصفيَّه أبا بكر فى غار ثور والمناوئون أمام بابه ينظرون، وصان موسى وقومه وس
أطواد من موج هادر، وأبقى على حياة نبيه يونس فى ظلمات البحر وظلمات جوف
الحوت، وعلى جميع الأنبياء أتم الصلاة والتسليم، ورضى سبحانه عن أوليائه الصالحين.

﴿تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ١٩، ٢٠]

أى إن فُتنتم عن دينكم ودخلتُم فى دينهم فلن تفوزوا بخيرٍ لا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

خاتمة وبداية:

وكانت تلك خاتمةَ مرحلةٍ من قصتهم العجيبةِ وبدايةَ مرحلةٍ أخرى كانت لها آثارٌ عميقةٌ فى نفوس مَن عاصروها، وهم جيلٌ غيرُ الجيل الذى عاصر لجوءَهم إلى الكهف، فقد مَلَكَ المدينةَ رجلٌ مسلمٌ صالح وشاءت الأقدارُ أن تكشفَ الفضةُ المضروبةُ فى عهد دقيانوسَ أمرَهم لدى التاجرِ الذى طيَّر الخبرَ إلى وليِّ أمرِ المدينة، فلمَّا عَلِم من الفتى نبأَهم خرج ومن معه إلى الكهف، ورأوا رأْىَ العَيْنِ آيةً من آيات القدرةِ وكمالِ العظمةِ والسلطان، فازداد المؤمنون إيمانًا ويقينًا، واعتبر أولو النُّهى، وكان الناسُ وقْتَها بين مُلحد، ومُنكرٍ لبعْث الأجساد، ومؤمنٍ بأن البعث يقعُ للروح والجسدِ معًا، وكان اطلاعُهم على أحوال الفتية وقد أيقظهم اللهُ عز وجل بعد نومةٍ استغرقت أجيالا مُثبِتًا ودالا على أن الله يبعثُ الناسَ للحساب والجزاءِ بأرواحهم وأجسادِهم معًا: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١]

ذلك أن مَن شاهد هذه الحالةَ العجيبةَ عَلِم يقينًا أنه تعالى يَتوفَّى نفوسَ جميع الناس، ويُمسِكها، ثم يردُّها إلى أبدانها يوم الحشرِ لتلقَى كلُّ نفسٍ جزاءَ ما قدَّمت فى دنياها.

وبعد أن عايَن وَلىُّ أمرِ المدينةِ والذين معه الكهفَ، وتحدَّث إلى الفتية، وتحدَّثوا إليه فاضت أرواحُهم، وتركوا دنيا البشرِ تموجُ بالأفكار والمذاهبِ وكلُّهم على باطل إلا من وحَّد ربَّه، وصدَّق رسلَه، وعَمِل لما بعد الموتِ

على سنة نبيِّه متبعًا ما جاء به الوحْى، وتَركتْ تلك الخاتمةُ فى نفوس الناسِ أثرًا نفسيًّا هزَّ قلوبَهم ومشاعرَهم، فتنازعوا بينهم: ماذا يصنعون لمواراة هذه الأجساد الطاهرة، وتَبادَل المؤمنون وغيرُ المؤمنين الرأى: ﴿إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُم فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١]

ومضت السنون، وتعاقبت الأجيال، وبُعث خاتمُ الأنبياء، ونَزل الوحىُ عليه بخبر الفتيةِ وعِدَّتهم، وعَلِم ذلك أصحابُه منه ﷺ، وكان بعضُ أهلِ الكتاب يقولون: هم ثلاثةٌ ورابعُهم كلبُهم، وفريقٌ يقول: هم خمسةٌ وسادسُهم كلبُهم، وتلك أقوالٌ صدَرت عن ظنٍّ وتخمينٍ لا عن علْم ويقين، أما المسلمون فقالوا: هم سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم، وكان كلامُهم عن هذا الغيبِ مُستقًى من الوحى فَصَدَقُوا وأصابوا، ولنتدبر فى ذلك قولَه تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رابعُهم كَلْبُهم ويَقولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهم كَلْبُهم رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُون سَبْعَةٌ وثَامنُهم كَلْبُهم﴾ [الكهف: ٢٢]

والضمائرُ فى الأفعال الثلاثة تعودُ لمَن اختلفوا فى تقدير عَددِهم من أهل الكتابِ والمؤمنين، وقد أَتْبَعَ القولين الأولين وهما لغير المؤمنين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالغَيْب﴾ أى قولا بلا عِلْمٍ ولا اطلاع، فَدلَّ على بُعدهما عن الصواب، وحكى الثالثَ وهو للمؤمنين، وأعقبه بقوله: ﴿وَثَامِنُهم كَلْبُهم﴾ فدلَّ على أنه الواقعُ فى نفس الأمر، وإنما استُفيد منه التقريرُ لأن الكلامَ قد تَمَّ عند قوله ﴿ويقولُونَ سبعةٌ﴾ ثم عطف عليه قوله ﴿وثامنُهم كَلْبُهم﴾ والثامنُ لا يكون ثامنًا إلا بعد سابع أى: هم سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم.

بهيمةً جمعاء، هل تُحِسُّون فيها من جَدْعاء».

«بهيمة جمعاء» أى سليمةٌ من العيوب مجتمعةُ الأعضاء كاملتُها فلا كىَّ ولا جَدْعَ أى قطْع.

وفى صحيح مسلم روى عياض بنُ حمار أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله: إنى خلقتُ عبادى كلَّهم حنفاءَ فجاءتْهم الشياطينُ فاجتالتْهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم» . «واجتالتْهم» يعنى استخفَّتهم فجالُوا معها فى الضلال.

ثم قال ابن كثير: وقد وردت أحاديثُ فى أخذ الذريةِ من صُلب آدمَ عليه السلام، وتمييزِهم إلى أصحابِ اليمين وأصحاب الشمال، وفى بعضها الاستشهادُ عليهم بأن الله ربُّهم.

وأورد ابنُ كثير منها عدةَ أحاديثَ من ذلك ما رواه كلثومٌ عن سعيد بنِ جبير عن ابن عباس رضى الله عنهم، أن النبى ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاقَ من ظهْر آدمَ عليه السلامُ بنعمانَ ـ يعنى عرفة ـ فأخرج من صُلبه كلَّ ذريةٍ ذَرأها فنثَرها بين يديه، ثم كلَّمهم قبلًا ، قال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، شَهِدنا، أن يقولُوا يومَ القيامة إنا كنا عن هذا غافِلين، أو يقولوا.. إلى قوله «المبطلون».

أخرجه أحمد فى مسنده ورجَّح ابنُ كثير وَقْفه على ابن عباس، وبيَّن أنه رُوى بطرقٍ أُخرى موقوفًا كما قال بذلك ابنُ أبى حاتم. وقبلًا: أى: عِيانًا ومُقابلةً لا مِن وراء حجاب.

وحديثٌ آخرُ نقله عن ابن جرير الطبرى عن مجاهد عن عبد الله بنِ عمرو رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «وإذْ أَخَذَ ربُّك مِن بَنى آدمَ مِن ظُهورهم ذُرِيَّتَهم «قال: أُخِذوا من ظَهْره، كما يُؤخَذُ بالمشط من

الرأس، فقال لهم: «ألستُ بربِّكم؟ قالوا: بلى» قالت الملائكةُ: «شَهِدنا أن يقولُوا يومَ القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» ورجَّح ابنُ كثير وقْفه على ابن عمرو.

ثم قال ابنُ كثيرٍ بعد التمهيد: فهذه الأحاديثُ دالةٌ على أن اللهَ عز وجل استخرج ذريةَ آدمَ من صُلبه، وميَّز بين أهلِ الجنةِ وأهلِ النار، وأمَّا الإشهادُ عليهم هناك بأنه ربُّهم فما هو إلا فى حديث ابن عباسٍ وابنِ عَمرو وقد بَيَّنا أنهما موقوفان لا مرفوعان، ومن ثَم قال قائلون من السلف والخلف: إنَّ المرادَ بهذا الإشهادِ إنما هو فَطْرُهم على التوحيد، كما جاء فى حديث أبى هريرة وعياض بنِ حمار المجاشعى، وقد فَسَّر الحسنُ البصرى الآيةَ بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿**وإذْ أخَذَ ربُّك مِن بَنى آدمَ**﴾ ولم يقُل: من آدم، وقال: ﴿**مِن ظُهورهم**﴾ ولم يَقُل: «**من ظهْره**» و «**ذُرياتهم**»[1]: أى: جعل نَسْلَهم جيلا بعد جيل، وقرنًا بعد قرن.

ثم قال: ﴿**وأَشْهَدَهُم عَلَى أَنفُسِهم أَلستُ بِربِّكم قالوا بلى**﴾ أى: أوجدهم شاهدين بذلك، قائلين له: حالا وقالا، والشهادةُ تارةً تكون بالقول كما قال: ﴿**قَالُوا شَهِدْنا عَلَى أنفُسنا**﴾ وتارةً تكون حالا كما قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشرِكينَ أَن يَعْمرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهم بِالْكُفر**﴾ [التوبة: ١٧]

أى بدلالة الحال، حالُهم شاهدٌ عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك كما أن السؤال تارةً يكون بالقال، وتارةً يكون بالحال، أى: بدلالة الحالة.

هذا ملخصُ تعليق ابنِ كثير فى تفسيره.

وجاء فى أنوار التنزيل وأسرارِ التأويل قولُ العلامة الشيرازى

---

(١) ذرياتهم: قراءة بالجمع

البيضاوى: ﴿وأشهدهُم على أنفسهم ألستُ بربّكم قالوا بلى﴾ أى: نَصَب لهم دلائلَ ربوبيته، وركَّب فى عُقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة مَن قِيل لهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، فَنزَّلَ تمكينَهم من العِلْم بها، وتَمكُّنهم منه بمنزلة الإشهاد، والاعتراف على طريق التمثيل، ويدلُّ عليه قولُه: ﴿أن تَقُولُوا يومَ القيامةِ﴾ أى: كراهةَ أن تقولوا ﴿إنَّا كُنَّا عَن هَذا غافلين﴾ لم نُنَبَّهْ عليه بدليلٍ، «أوْ تَقولُوا» عطفٌ على أن تقولُوا «إنما أشْرَكَ آباؤُنا مِن قَبلُ وكُنَّا ذريَّةً مِن بَعْدهم» فاقتدينا بهم، لأن التقليدَ عند قيامِ الدليل، والتمكُّنِ من العلم به لا يصلحُ عُذرًا: ﴿أفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُون﴾ يعنى آباءَهم المُبطلين بتأسيس الشرك.

ثم قال البيضاوى وقد قيل: إنه لـمَّا خلق اللهُ آدمَ أخرج من ظهره ذريةً كالذَّرِّ، وأحياهم، وجعل لهم العقلَ والنطقَ، وألهمهم ذلك.

[الحديث رواه عمر كما قال البيضاوى]

والزمخشرىُّ فى كتابه الكشاف علَّق على الآية الكريمة بقوله: هذا من باب التمثيل، ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى نَصَب لهم الأدلةَ على ربوبيته ووحدانيته، وشهدتْ به عقولُهم وبصائرُهم التى ركَّبها فيهم وجعلها مُميِّزةً بين الضلالة والهُدى[1].

فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقرَّرهم، وقال لهم: ألستُ بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى، أنت ربُّنا شَهِدنا على أنفسنا، وأقررنا بوحدانيتك، ثم قال: وبابُ التمثيلِ واسعٌ فى كلام الله تعالى، وكلامِ رسولهﷺ وفى كلام العرب.

وقد تعقبه العلامةُ ابنُ المنير الإسكندرى المالكى فقال: إن القاعدةَ

(١) معلوم أن تمييز العقل بين الضلال والهدى إنما يأتى بمعونة الوحى وإرشاده وأنه لا غنى للعقل عن الوحى يأخذ بيده ويقوده ويسدده.

مستقرةٌ على أن الظاهرَ ما لم يُخالف المعقولَ يَجِبُ إقرارُه على ما هو عليه، فلذلك أقرَّه الأكثرون على ظاهره وحقيقته، ولم يجعلوه مثالا وأمَّا كيفيةُ الإخراجِ والمخاطبةِ فاللهُ أعلمُ بذلك.

وقال الشيخ إسماعيل حَقِّى فى كتابه روحِ البيان: نَزَّلَ تَمكينهم من العِلْم بربوبيته بِنَصْبِ الدلائلِ الآفاقيةِ والنفسيةِ، وخَلْقِ الاستعدادِ فيهم منزلةَ الإشهاد، فلم يكن هناك أخذٌ، وإشهادٌ وسؤالٌ وجوابٌ، أى كان ذلك على سبيل التمثيل، ثم قال الشيخُ فى نفس الموضع: إن الأكثرَ على أن المقاولةَ المذكورةَ فى الآية حقيقةٌ، لِمَا رُوى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه لَمَّا خلَق اللهُ آدمَ عليه السلام مَسَحَ على ظهره فأخْرج منه كلَّ نسمةٍ هو خالقُها إلى يوم القيامة، فقال: ألستُ بربكم، قالوا: بلى، فنُودى يومئذ: جَفَّ القلمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة.

وهذا هو الميثاقُ الأول، وطَرح حقىٌّ سؤالا قال فيه: فإن قيل: كيف يكون الميثاقُ حجةً على الكفار من بنى آدم، وهم لا يذكرون ذلك حين أخرجهم من صُلب آدم؟، ويُجيب عنه بقوله: لـمَّا أرسل اللهُ الرسلَ فأخبروهم بذلك الميثاقِ صار قولُ الرسلِ حجةً عليهم، وإن لم يَذكُروا ألا ترى أن مَن ترك من صلاته ركعةً، ونَسِى ذلك، فَذكرتْ له الثقاتُ ذلك كان قولُهم حجةً عليه؟.

قالو أبو السعود: والمعنى: فعلْنا ما فعلْنا من الأمر بِذكْرِ الميثاقِ وبيانه كراهةَ أن تقولوا أيها الكفرةُ يومَ القيامةِ إنا كنا غافلين عن ذلك الميثاقِ لم نُنَبَّه عليه فى دار التكليف، وإلا لعملنا بموجبه.

ولابن كثيرٍ اتجاهٌ فى إخبار الرسولِ بذلك جاء فيه: فإن قيل: إخبارُ

الرسولِ به كافٍ فى وُجُودِه، فالجوابُ أن المكذِّبين من المشركين يُكذِّبون بجميع ما جاءتْهم به الرسلُ من هذا وغيرِه، وهذا جُعِلَ حجةً مستقلةً عليهم، فدل على أنه على الفطرة التى فُطروا عليها من الإقرار بالتوحيد، ولهذا قال: «**أن يقولُوا**» أى لئلا يقولوا يوم القيامة ﴿**إنا كُنَّا عن هذا**﴾ أى: التوحيد ﴿**غافلين*أو يقولُوا إنما أشرك آباؤُنا**﴾ الآية.

وفى كتاب صفوة البيانِ لمعانى القرآن أَجْمَلَ الشيخُ حسنين مخلوف رأىَ القائلين بالمجاز والقائلين بالحقيقة فقال: ذَهب جَمْعٌ من العلماء إلى أن الكلام على سبيل المجاز التمثيلىِّ لكونهم فى مبدأ الفطرةِ مستعدِّين جميعًا للنظر المؤدِّى إلى التوحيد، ومضمونُ ما قالوه: أنه تعالى نَصَبَ للناس فى كل شئٍ من مخلوقاته ومنها أنفُسهم دلائلَ توحيدِه وربوبيتِه وركَّز فيهم عقولا وبصائرَ يتمكَّنون بها تمكُّنًا تامًّا من معرفتها ومن الاستدلال بها على التوحيد والربوبيةِ حتى صاروا بمنزلة مَن إذا دُعِى إلى الاعتراف بها سارع إليها دون شكٍّ أو تردُّد.

أمَّا مَن قال بعدم التأويلِ من أهل السنة: فقد ذهب إلى أن الله تعالى أخرج من ظَهرْ آدمَ ذريتَه كالذَّرِّ، وأحياهم، وجعل لهم العقلَ والنطق وألهمهم الإقرار لحديث عمر رضى الله عنه الوارد فى ذلك.

تلك خلاصةٌ لأقوال أهل العلم وتعليقاتهم على الآية الكريمة.

ولا شكَّ أن كلَّ إنسان مكلَّفٍ مسؤولٌ عن اختياره، فمن اختار الهُدى كانت له الكرامة، ومَن اختار الضلالةَ كانت له الشقاوةُ والإهانة، وقد أقام الله عز وجل أدلةَ توحيده وبراهينَ وجودِه وربوبيته فى الكون وفى النفس، وأرسل سبحانه الرسل، وأنزل الكتبَ، وبَسط على الناس رحمتَه بأن أَشْهَدهم على أنفسهم: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى، وفطَرهم

على سجيةٍ نقيةٍ تَقبلُ الحقَّ وتُؤمِنُ بالتوحيد، وأمدَّهم بالعقل والفهمِ والتمييز، وقد فَعل اللهُ عز وجل ما فَعل لكيْلا يقولَ المجرمون يوم القيامة: إنا كنَّا عن وحدانية الربوبيةِ وأحكامِها غافلين لم نُنَبَّهْ عليها، أو يقولَ المبطلون إنما أشرك مَن سبقونا، واخترعوا الضلالَ وهم سَنُّوه مِن قبلِ زماننا، وكنا نحن ذريةً مِن بعدهم لا نَهتدى إلى السبيل، ولا نَقدر على الاستدلال بالدليل فاقتدينا بالمشركين من الآباء، أتؤاخذُنافَتُهلكنا بما فعل المبطلون من الآباء المضلين؟.

إن ما بيَّنه الله عز وجل من استعدادهم الكاملِ يسدُّ عليهم بابَ الاعتذار﴿**وكذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ وَلَعَلَّهُم يَرْجِعُون**﴾ أى مثلُ ذلك التفصيلِ البليغ المستتبعِ للمنافع الجليلةِ نوضِّحُ ونفصِّلُ هذه الآياتِ ليرجعوا عما هم فيه من الإصرار على الباطل وتقليد الآباء.

والله أعلمُ، وهو أعدلُ العادلين وأحكمُ الحاكمين..

❊ ❊ ❊

٢٥٨ - قصة هابيل وقابيل صارت مَثلاً فيه عظةٌ وعِبْرةٌ

إن قصةَ ولَدىْ آدمَ عليه السلامُ قابيلَ وهابيلَ خُلِّدت فى القرآن العظيم لتكونَ مثلا قائما أمام الناسِ حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها فيه للمتدبر عظةٌ وعِبرة، وقد أشار الحبيبُ المصطفىﷺ إلى ذلك لينبِّهَ أمتَه إلى التأمل والتفكر فيها فقال: «إنّ ابنى آدمَ عَلَيْهِ السَّلام ضُرِبَا لِهَذِهِ الأمة مَثَلا فَخُذُوا بِالْخَيْرِ مِنْهُما» وهو حديث مُرسَل نقله الطبرى عن عبد الرزاق ورواه الحسن، ورواه ابن المبارك عن الحسن بلفظ: «إنّ اللهَ ضَرَبَ لَكُمُ ابْنَىْ آدَمَ مَثَلا، فَخُذوا مِنْ خَيْرِهِمْ، وَدَعُوا الشَّرّ».

نعم: إنما ضُربت الأمثالُ فى القرآن العظيم، وفى السنة النبوية، لتُنبِّهَ الناسَ إلى خيرٍ فيلتزمَه أهلُ العقلِ والحكمة، أو إلى شرٍّ فيجتنبوه، وإن البصيرَ الكيِّس هو مَن تدبر واعتبر.

إن قصة ابنى آدمَ عليه السلام جرت حوادثُها مع الخطوات الأولى التى سُنَّتْ لعمارة الأرض، ونِيطَتْ أعباؤها بأولاد آدمَ من صُلبه، ومن أجل تنظيمِ حياتِهم، وتكثيرِ النسل شُرِعَ لهم ما يناسبُ ضرورةَ الحال.

وقد اقتضت الحكمةُ أن يولدَ لآدمَ من زوجه فى كل بطْن ذكرٌ وأُنثى وأَوحى اللهُ إلى آدمَ أن يزوِّجَ كلَّ واحدٍ من الذكور تَوْأَمةَ الآخر، فكان عليه السلامُ يزوجُ أُنثى هذا البطنِ لذكَرِ البطنِ الآخَر، وهذا أمرٌ واجبٌ يُطَاع، ولا يُعْصَى، وشاءت الأقدارُ أن يكون ذلك مبدأً نُشُوءِ الصراعِ بين الشرِّ والخيرِ فى بنى الإنسان.

لقد كان قابيلُ أكبرَ من أخيه هابيلَ، وكانت توأمتُه مليحةً وَضيئةً

وتوأمةُ أخيه أقلَّ ملاحةً وحُسنًا، ووُضِع الشابان مَوضِعَ الاختبار فى مقامٍ يقتضى منهما الطاعةَ والإذعان والرِّضى والشكر، ولكنَّ قابيلَ غلَبه هواه فحسد أخاه لأن الأختَ الأجملَ ستكون من نصيبه، وسَخط، وأَبَى وقال: هى أختى وُلِدَت معى، وهى أحسنُ من أختك التى وُلِدت معك وادَّعى أنه أحقُّ أن يَتزوَّجَ بها، وأصرَّ على أن يستأثرَ بها على أخيه.

وبدأ الحسدُ يعمل عملَه فى نفس نموذج من البشر بعد ما أهلك إبليسَ ودَمَّره وأشقاه دنيا وآخرة، وسَرى إلى نفس قابيلَ يأكلُها أكْلا، ويُوقِدُ نارَ الحِقد، ويباعدُ بين الأخِ وأقربِ الناسِ إليه وأبرِّهم به، وأراد الأبُ الرحيمُ الحانى أن يُدخلَهُما فى تجربة لعلها تُطفئُ نارَ الحسد فى قلب قابيل، فقال لهما: قَرِّبَا قُربانًا، فَمن أيكما تُقُبِّلَ فهو زوجُها، فَقُبِلَ قربانُ هابيلَ بأن نزلت نارٌ فأكلته، ولم يُقْبَل قُربانُ قابيلَ، فازداد حسدًا وسُخطًا وتوعَّد أخاه بالقَتْل، فكان من أمْرِهما ما قصَّ الله فى سورة المائدة: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ لَئِن بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٢٧ـ٢٨]

أى: واقصُصْ عليهم خبرَ ابنى أبى البشر «**بالحق**» أى: تلاوةً مُتلبِّسةً بالصدق والحق والصحة، أو اتلُ عليهم نبأً متلبسًا بالصدق، وبالغرض الصحيح وهو تقبيحُ الحسد، لأن المشركين وأهلَ الكتابِ كانوا يحسُدون رسولَ اللهﷺ، ويبغُون عليه.

والقُربان: اسمُ ما يُتقرَّبُ به إلى الله من نسيكة أو صدقة، وكانت

القرابينُ إذا كانت مقبولةً نزلت من السماء نارٌ فأكلتْها، وإن لم تكن مقبولةً لم تنزل النارُ وتُركَتْ، وقوله: «**لأقْتُلَنَّكَ**» تهديدٌ مقترنٌ بتأكيد العزم على ذلك، لأن المضارعَ أُكِّد بالقسَم وبنون التوكيد الثقيلة أى: واللهِ لأقتلنَّك، فاللامُ لامُ القسَم دخلتْ على المضارع الدالِّ على الاستقبال، والواقعِ فى جواب القسَم، فأُكِّد بالنون، وهذا التأكيدُ بالنون واجبٌ فى هذه الحالة.

وتأمَّل جوابَ الأخ الحكيم الصالح وهو يقول لأخيه وهو فى فَوْرة غضبه وسخطه لِقَبُول قُربَانِ أخيه، وخِذلانه هو ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الـمُتَّقِينَ**﴾ وكأنه قال: ما ذنبى؟ إذ أخزاك الله فى هذا الاختبار، وإنما أُوتيتَ من قِبَلِ نفسِك لانسلاخها من لباس التقوى، لا مِن قبلى أنا، فَلِمَ تقتلنى؟ وما لك لا تعاتِبُ نفسَك، ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول؟ فأجابه هابيلُ بكلام حكيم مُختصرٍ جامع لِمَعانٍ، وفيه دليلٌ على أن الله تعالى لا يقبلُ طاعةً إلا من مؤمن مُتَّقٍ، وقد أفادت «**إِنَّمَا**» هذا الحصرَ وجعلت العبارةَ قويةً والمعنى مؤثرًا.

إنها حكمة نَفِيسَة سامية المقصد صارت بعد نزولها مثلا سائراً يبعثُ المتدبرَ على الإخلاص، ويزجرُ عن إرخاء الحبلِ فى الزهوِ والباطل ويردعُ عن الرياء والمباهاة، ويدعو إلى التفكر فى أحوال النفسِ حتى لا تسترسلَ فيما يُسخط الله، وقد تَمثَّل بها أبو الدرداء رضى الله عنه، وهو يرجو ربَّه قبولَ صلاته فقال: «لأن أستَيْقِن أنّ اللهَ قَدْ تَقَبَّل منى صلاةً واحدةً أحَبُّ إلىّ مِنَ الدُّنْيَا ومَا فِيها، إنّ اللهَ يقولُ: «إنّما يَتَقَبّلُ اللهُ مِنَ الـمُتَّقِين»»(١)، وجاء فى الكشاف أن عامر بنَ عبدالله بكى حين حضرته

---

(١) نقله ابن كثير عن ابن أبى حاتم ورواه ابن مالك المقرى عن أبى الدرداء.

الوفاة، فَقيلَ له: ما يُبْكيكَ؟ فقد كنتَ وكنتَ، قال: إنى أسمعُ الله يقول: ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الـمُتَّقين﴾.

وقد سأل بعضهم معاذَ بنَ جبل رضى الله عنه: ما المتقون؟ فأجاب: قومٌ اتّقوا الشّركَ وعبادةَ الأصنامِ، وأَخْلَصُوا العِبَادةَ، فَيَمُرّونَ إلى الجنّة»(١).

لقد نصحه هابيلُ بهذا الأسلوبِ البليغ لعله يراجعُ نفسَه، ويعودُ إليه رشْدُه، فيُقلع عما هو مُصِرٌّ عليه من الشر والسوء، وقطيعة الرحم وسنّ جريمة القتلِ فى الأرض، ثم زاده تنبيهًا وزجرًا بقوله: ﴿لَئِن بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾. أبدى له ما تقتضيه الحكمةُ من بسْط اليد بالرحمة والخير والمودة وكفِّها عن الشر والأذى، مُبينًا أنه اختار هذه الفضيلةَ لنفسه لأنها الأليقُ والأَزْيَنُ للإنسان ثم بين له العلة فى هذا التسامح والتَحَرّجِ من مقابلة الأذى بمثله بقوله: «إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِين» وإن الخوف من غضب الله أعظمُ رقيبٍ على العبد فى سره وعلانيته وأقوى مهذّب للنفوس، وموجِّه فى طريق السداد والصلاح.

إن هذه السماحة لمْ تطفئ نار الحسد فى قلب قابيل، فزاده أخوه نصحًا وتخويفًا من عاقبة قتل نفس مؤمنة بغير حق، فيحمل وزرها مع ما حملت نفسُ القاتل من أوزار أخرى، لعل هذا التذكير يردعه ويكفه عن النية السيئة فقال له: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآية: ٢٩]

قال ابن عباس: أى: تبوء بإثم قتلى وإثمك الذى عليك قبل ذلك

(١) رواه أبو عفيف عن أصحاب معاذ [ابن كثير]

وقال رضى الله عنه: خَوَّفَهُ النارَ فلمْ يَنْتَه، ولمْ يَنْزَجِرْ.

لقد أعماه الهوى وأضله الحسد: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الآية: ٣٠]

أى: فحسّنت وسوّلت وسهلت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فأقدم على جريمته، فخسر دينه، وخسر دنياه، أما الدنيا فإنه أَسْخَطَ والديه وبقى مذموما إلى يوم القيامة، وأما الآخرة فهو العقاب الأليم، وأى خسارة أعظم من هذه؟.

قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه، قال رسولﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إلا كان عَلى ابْنِ آدَمَ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأنّه كان أَوّلَ مَنْ سَنّ القَتْل»

[أخرجاه فى الصحيحين وعند أحمد والنسائى وابن ماجة]

وقد وردت الآثار بما يدل على أن هابيل أول قتيل وأول ميت على وجه الأرض من بنى آدم، ولما قتله ظل حائرا لا يدرى ما يصنع واقتضت الحكمة تعليمه لتكون سنةً تُتَّبع فى مواراة أجساد الموتى تكريما للآدمى فبعث الله غرابين فاقتتلا، فَقَتَلَ أحدُهما الآخر، فحفر له بمنْقَاره ورجليه ثم ألقاه فى الحفرة، ثم حثى عليه: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [الآية: ٣١]

أى عورة أخيه، وما لا يجوز أن ينكشف من جسده، وكان قابيل يرى ما يفعل الغراب، فتعجب من أمر نفسه وتحسر فقال ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [الآية: ٣١]

تعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغرابُ، والمتأمل فى هذا يجد حِكمًا بديعة منها عجز الإنسان عن إدراك كل ما يصلح به حاله

فمن الغراب تعلم كيف يُدفَنُ الميت وتُوَارى جثته، ولذا ينبغى للإنسان دوما أن تتقاصر إليه نفسه وألا يغتر بعلم علمه ولا بقوة، وأن يتواضع لطلب المعرفة والتزود بما ينفعه.

أما قوله: «**فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِين**» فهو الندم على ما كان منه من حيرة مدة طويلة، وتفتيشه عن كيفية يوارى بها جسد أخيه، كما ندم لما تبين له عجزه وأنه صار تلميذًا للغراب، مع ما جلبه على نفسه من سخط أبيه، وما ملأ قلبه من القلق والهم، وتغير الأحوال من حوله فى الأسرة الكريمة التى نِيطَتْ إليها أشرفُ المهام، وأكرمُ المسؤوليات وقد دخل عليها العبوس والألم والحزن، ولم يكن ندمُه ندمَ التائبين ولا لخوفٍ من الله لارتكابه هذه الخطيئة البشعة، فباء بخسران عظيم.

من أجل ذلك علّم الله عباده ولفتهم الى أن مَن تجاسر على قتل نفس بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا، حتى ترتدعَ النفوس عن غيّها، وقد أوحى الله بذلك إلى موسى عليه السلام زجرًا عن الإقدام على مثل ذلك ولنتدبر: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِيٓ إِسْرَٰٓئِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**﴾ [المائدة: ٣٢]

والمقصود من التشبيه المبالغة فى تعظيم أمر القتل بغير حق، والحرص على كفّ الجوارح عن الإقدام على هذا العمل الذى يجلب سخط الرب، ولقد بين الرسل ووضحوا، فطوبى لمن وُعظ فانتفع.

❋ ❋ ❋

٢٥٩-أ- الترهيب من الكسب الحرام

يا أهل العقلِ والحكمة:

الإسلامُ نورٌ ورحمة: نورٌ للقلوب والبصائرِ والعقول، ورحمةٌ عامةٌ بالناس، يَحميهم من الأهواء والضلال، ويصونُهم من الشبهات ويحفظُهم من الشهوات الدنيئة، ويدفعُ بهم فى مدارج الكمالِ الإنسانى بِقُوَّتيه الروحيةِ والمادية، ويأخذُ بأيديهم فى طريق الأمنِ والاستقرارِ والتعاطف، ويُجنبهم مزالقَ الشرور، وأسبابَ الانحلالِ والضياعِ إنْ هُم أسلمُوا قيادَهم لهذا الدينِ القيِّمِ الذى رَضِيَه اللهُ لعباده ليحققَ لهم ما تَصلُح به أمورُ دنياهم، ويُهيِّئَ نفوسَهم للسعادة الأخروية.

وفى سورة المطففين تبصيرٌ وإرشاد، ودعوةٌ لتسديد الخُطَى على الطريق الصحيح، لِتسلمَ للمرء عقيدتُه، ويصحَّ دينُه، ويُطهِّرَ مالَه الذى هو قِوامُ حياتِه، وأحدُ دعائمِ قوةِ الأمة، وسببٌ لا غِنى عنه لعمارة الأرض ولتحقيق الكفايةِ والرخاءِ للفرد والجماعة، وإذا طُهِّر المالُ من شوائبِ الحرامِ كان خيرًا وبركة، وقد أَرشدت السورةُ الكريمةُ إلى العدل والإنصافِ فى المعاملات، وحَثَّت على تَحرِّى الحلالِ والتسويةِ فى الأخذ والعطاءِ بلا جَور، ولا حَيف، ولا تَطلُّعٍ إلى ما ليس لك بحق، وبهذا يَسلَمُ للمرء دينُه، وتبرأُ ذمتُه من التبعات الماليةِ التى سيُسأل عن القليل منها والكثيرِ، والحقيرِ والجليل: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]

أى: وإن كان العملُ قد بلَغ من القلة والحقارةِ وزنَ حبةٍ من خردل وهى مَثَلٌ فى الصِّغر والضآلة ﴿**أتينا بها**﴾ أى وُضِعَت فى ميزانه.

لقد أنذرت السورةُ الكريمةُ بالويل والثبور الذين لا يُقيمون العدلَ فى الكيل والوزن، وجاء مطلعُها قويًّا يَهزُّ القلب، وينبِّهُ العقل، ويوقظُ الشعورَ، ويَلفتُ إلى قضيةِ هؤلاء المطففين الذين سُلِّط عليهم هذا الضوءُ القوىُّ ليتنبهَ التجار فى كل زمانٍ، وليُحَذِّرَ كلَّ متعاملٍ بالمكيال والذرعِ والميزان، وليتعرَّفَ عليهم كلُّ إنسانٍ ويجتنبَ مسالكَهم، ولتدبر قولَه سبحانه: ﴿**ويلٌ للمطففين**﴾ وينشأُ فى النفس عند سماعِ هذا الإنذارِ سؤالٌ عن هؤلاء الذين يَنتظرُهم فى الآخرة هلاكٌ وشرٌّ عظيم: مَن هم؟ ويأتى الجوابُ بأبلغ عبارةٍ وأوضح بيانٍ وأدقِّ لفظ: ﴿**الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾ أى: هم الذين إذا كان لهم عند الناسِ حقٌّ فى شىء يُكال أو يُوزن، وأرادوا أخْذَه منهم لا يأخذونه إلا تامًّا وافرًا كاملا، ولهذا عُدِّى «اكتالوا» بالحرف على، فقال ﴿**اكتالوا على الناس**﴾ ولم يقل منهم، لأنَّ ما يأخذونه حقٌّ لهم على الناس يَستوفونه منهم أو لأنه اكتيالٌ يُتَحامَلُ فيه عليهم، فقد يَسعون لأخْذ زيادةٍ فيحتالون لملءِ المكيال وتحريكه ونحوِ ذلك من وجوه الحيل عند الشراء، أمَّا عند البيعِ والوفاء بما للناس عندهم من حقٍّ فى مكيل أو موزون أو غيرِهما، فإنهم يُعْطُون هذا الحقَّ مع النقْص والخسار مع أنَّ وضْعَ الكيلِ والوزن، إنما هو للتسوية والتعديل: ﴿**وَإِذَا كَالُوهم أَو وَّزَنوهُم يُخسِرون**﴾ أى: إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم على حذف اللام، وإيصالِ الفعلِ بالضمير، فإنهم يُنقِصُونهم حقوقَهم ويَقتحمون حدًّا من حدود اللهِ على عمًى وضلال مُتجرِّئين على أسباب

عذابِ جهنمَ وبئس المصير.

تلك هى الصورةُ المحدِّدةُ لملامح المطففين تَبرزُ أمامنا بخطوطها واضحةً جلية: فهناك اكتيالٌ وهناك اتزان، وهناك أطرافُ التعاملِ، ولو أنَّ كلَّ الأمور سارت فى نور توجيهِ القرآنِ وإرشادِه بالحرص على العدل فى خُذْ وَهات، ورغبةِ كلِّ طرفٍ فى أن يُعامِلَ الناسَ كما يُحب أن يعاملوه لسادت الثقةُ، واستقرت للناس الأمورُ، وانعدمت أسبابُ الشرور وبُورك لأطراف المعاملةِ فى معايشهم وأرزاقِهم وأموالِهم وأولادِهم، ولَنعِمتْ النفوسُ بالسكينة والطمأنينة، ولقد كان من أبرز أسباب هلاكِ قومِ نبىِّ اللهِ شُعيب عليه السلامُ هو حرصُهم على بَخْس الناسِ أشياءَهم والسرقةِ عند الكيل والوزنِ والذرع، وقد نُصحوا، وزُجروا، وبُيِّن لهم ولم يَقبلُوا نصيحةَ الناصحِ الأمينِ عليه السلام لغلبة الطمعِ والحرصِ على نفوسهم المريضة، وقد صارت قصتُهم مع نبيِّهم مثلا ينبهُ الناسَ إلى سوء مصيرِ أهلِ الظلم والتعدِّى على الحقوق.

التاجر الناجح:

إن التاجر: الصدوقَ الأمينَ مع النبيين والصديقين والشهداءِ والصالحين يومَ الدين، إنه التاجرُ الذى يُؤدى واجبَه نحو ربِّه، ويطهُر مالَه بالزكاة والصدقة، ويتحرَّى الكسبَ الحلالَ ما استطاع، ويراقبُ العاملين معه، ويأمرُهم بالعدل والتسوية، وإعطاءِ كلِّ ذى حقٍّ حقَّه غيرَ منقوصٍ ولا مبخوس ولا مغشوش، وإذا كان له أَخَذَ مَالَه، وتَرَكَ ما لا حقَّ له فيه، ويتقى الشبهاتِ حتى لا يدخلَ السحتُ إلى بطنه وبطونِ أولاده، إذ إنَّ الحرامَ يَنزِعُ البركة، ويزرعُ الشقاوة، ويؤدى إلى الارتياب، ويرفعُ الثقة والسكينة.

وقد نَبَّه القرآنُ العظيمُ وأنذرَ وبيَّن لئلا يكونَ لأحد حُجة:

﴿**ويلٌ للمطفِّفين*ٱلَّذين إِذَا اكتالُوا علَىٰ ٱلناسِ يَستوفُون*وإِذا كالُوهم أو وَّزنُوهُم يُخسِرون**﴾ [١-٣]

«**ويلٌ**» أى: شدةُ الشرِّ أو الهلاك، وهو مبتدأٌ وإن كان نكرةً لوقوعه فى موقع الدعاءِ «**للمطففين**» أى الباخسين حقوقَ الناسِ فى المكيال والميزان، فإنَّ التطفيف: هو البخسُ فى الكيل والوزنِ والنقصُ والخيانة فيهما، بألا يُعْطَى المشترى حقَّه كاملا تاما، والأصل: الطفيفُ: وهو الشىء القليلُ التافهُ وإن ما يُبْخَسُ من المكيل والموزونِ شىءٌ طفيف حقيرٌ، يتمُّ على وجْه الخِفْية، وفيه دلالةٌ على دناءة الكيَّالِ والوزَّانِ وخستِهما، ولا يفعل ذلك إلا غافلٌ مخذولٌ متجاسرٌ على اقتحام أبوابِ جهنم، غير مبالٍ بالحساب والجزاء، لذا زاد السياقُ أهلَ العقلِ تنبيهًا وتحذيرًا من هذا المسلكِ الدنىء: ﴿**ألا يَظُنُّ أولَٓئكَ أنهم مَّبْعُوثُون*لِيومٍ عَظِيم*يومَ يقومُ ٱلناسُ لربِّ ٱلعالمين**﴾ [٤-٦]

أى: وكأنهم لا يخطِرُ على بالهم، ولا يظنون ظنًّا ولو ضعيفًا، أنهم سيحاسبون على الصغير والكبيرِ أو على مقدار الذرةِ والخردلةِ أمامَ جبارِ السمواتِ والأرضِ الذى لا يَغيبُ عنه شىء، إذ إنَّ مَن فى نفسه أدنى إدراكٍ وشعورٍ بأنه سيُبعث وسيُحاسب وسيُجازى فإنه لا يتجاسرُ على أمثال تلك القبائح، فكيف بمن يتيقن البعث والجزاء. وفى هذا تمثيلٌ دقيقٌ لحال المصرِّين على تطفيف الكيل وعلى السرقةِ من الميزان وَغشِّ المشترى وبخسِ حَقِّه بأىِّ وجْهٍ من الوجوه، فقد نُزِّل المطففُ منزلةَ مَن لا يظنُّ مجردَ الظنِّ أنه سيُبعَث للوقوف بين يدى ربِّ العالمين الذى لا يضيعُ عنده حقُّ أحد، ومُثِّلَ بـمَن يُنكر البعثَ لذا فهو سادر فى غَيِّه، مستمرٌّ

فى معصيته، ماضٍ فى مطامعه غيرُ قانعٍ بالحلال الطيب.

وهمزةُ الاستفهامِ الداخلةُ على لا النافية فى قوله: «**ألا يظنُّ**» تُعطى معنى الإنكار والتوبيخ والتعجبِ من اجتراء المجترىءِ على هذا العملِ البالغِ الغايةَ فى السوء والشر، ويعلقُ صاحبُ الكشاف فيقول: «وفى هذا الإنكار والتعجيبِ، وكلمةِ الظنِّ، ووصفِ اليوم بالعِظَم، وقيامِ الناسِ فيه لله خاضعين، ووصْفِه ذاتَه بربِّ العالمين ـ فى هذا كلِّه ـ بيانٌ بليغٌ لعِظَم الذنب، وتفاقمِ الإثمِ فى التطفيف، وفيما كان فى مثل حاله: من الحيْف، وتركِ القيامِ بالقسط، والعملِ على السوية، وترك العدلِ فى كل أخذ وعطاء، بل فى كل قولٍ وعمل».

وكأنَّ صاحبَ الكشاف يُومئ إلى أن هذه الحِكَمَ القرآنيةَ النفيسةَ اكتسبت صفةَ الأمثال، إذ يُزجَرُ بها الغوىُّ فى مواقفَ متعددة، وعلى سبيل المثال: فإنك إذا سمعتَ شخصًا يُثنى على نفسه، ويحقِّرُ من جُهدِ غيرِه، ويحطُّ من شأنه فقلتَ له: «**ويلٌ للمطفِّفين**» أو ألمحتَ له فقلتَ: ﴿**ألا يظنُّ أولئكَ أنَّهم مَّبعُثون*ليومٍ عظيمٍ*يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمين**﴾ فإنك تكونُ قد وعظتَ، وأصبتَ، وزجرتَ، ونبَّهتَ، وعَلَى هذا فإن الحطَّ من القِيم سواءٌ كانت معنويةً أو ماديةً يندرجُ تحت هذا الإنذارِ البليغِ المُعجز.

لقد رُوى أن ابنَ عمَر رضى الله عنهما قرأ سورةَ المطففين، فلمَّا بلغ إلى قوله تعالى: ﴿**يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالَمين**﴾ بكى نحيبًا برفْعِ الصوت، وأمسك عن قراءة ما بعده من ملاحظته الحسابَ والجزاء وغلبةِ البكاء، وكان رضى الله عنه يمر بالبائع ويقول له منبهًا وناصحًا: **اتق اللهَ وأوفِ الكيل فإن المطففين يُوقفون يوم القيامة لعظمة**

الرحمنِ حتى إن العرقَ ليُلجِمُهم.

يا ويلَ آكلِ الحرام:

وإذا كان المطففُ قد توجَّه إليه هذا الوعيدُ الشديدُ فى أخْذ القليلِ فما ظننا بمن يتجرأُ على الرشوة، والنهبِ، وأكلِ الأمانات، والجورِ فى الحدود، والسرقةِ ونحوِ ذلك من الكبائر؟ نسأل الله السلامة.

جاء فى الحديث الذى رواه ابن عباس ورفعه وأخرجه الطبرانى فى الكبير: «خَمسٌ بخَمْس: ما نَقض قومٌ العهدَ إلا سَلَّط اللهُ عليهم عدوَّهم، وما حكموا بغير ما أنزل اللهُ إلا فشا فيهم الفقرُ، وما ظَهرت فيهم الفاحشةُ إلا فشا فيهم الموت، ولا طَفَّفوا الكيلَ والميزانَ إلا حُبِس عنهم القطر» وينصح قتادة فيقول: «أوفِ يا بنَ آدمَ كما تُحب أن يُوفى لك، واعدِل كما تحب أن يُعدل لك».

إن المطففَ واحدٌ من آحاد الفجارِ الذين يُكذِّبون بيوم الجزاءِ سواءٌ كان التكذيبُ بجحْد الخبرِ به مباشرة، أو كان بعدم المبالاةِ بما يكون فيه من عقاب وثواب.

وإن عدمَ المبالاة ـ كما يقول الشيخ محمد عبده ـ هو التكذيبُ المستبطنُ فى النفس الذى تَجرِى عليه فى أعمالها وإن كانت لا تُظهِره فى أقوالها، وأعظمُ دليلٍ على عدم المبالاة هو الإصرارُ على الجرائم والمداومةُ على اقتراف السيئات.

لقد بدأت السورةُ الكريمةُ بتوجيه الإنذارِ إلى المطففين، ورسَمت لهم صورةً واضحةً فى عبارات بليغة موجَزةٍ قويةٍ تُنفر من الظلم والتعدِّى وتَبعثُ على العدل والتسوية، ثم أنذرت الفجارَ ومنهم المطففون، وفى هذا مزيدُ عنايةٍ بأمر العدلِ فى المعاملات، والتأكيدُ على سوء فعل

المطففين وعاقبتهم، فقد خُصُّوا بالذِّكر، ثم ذُكروا مع الفجار المدَّونة أسماؤُهم فى سِجِّين: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتابَ ٱلفُجَّارِ لَفِى سِجِّين۞وَمآ أَدْراكَ مَا سِجِّين۞كتَابٌ مَّرْقُوم﴾ [٧ـ٩]

ثم بينت سوءَ منقلَب المكذبين بيوم الدين:

﴿ويلٌ يَومئذ للمكذِّبين۞ ٱلذينَ يُكذِّبونَ بيوْمِ ٱلدِّين۞وما يُكَذِّبُ بِهٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتدٍ أَثِيم۞إِذَا تُتْلَى عَلَيْه آيَاتُنا قالَ أَسَاطيرُ الأَوَّلين﴾

[١٠ـ١٣]

* * *

٢٦٠ - ب - السِّجِّينُ: والحَجْبُ عن رؤية ربِّ العالمين أعظمُ خَسارة

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [٧-٩]

كلا: كلمةُ ردعٍ وزجْر، ومعناها: انتهِ لا تَفعلْ، وهى هُنا للردْع عمَّا كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن ذكرِ البعث والحساب، وَنَبَّههم على أنه مِمَّا يجبُ أن يُتابَ عنه، ويُندَمَ عليه، ثم أَتْبَعَه وعيدَ الفجارِ على العموم، وإن المطففين بعملهم هذا يُعَدُّون من الفجار، والفجارُ سيُحاسبون على أعمالهم لا يُغْفَلُ منها شىء، فإنَّ لهم كتابًا تُحصَى فيه أعمالُهم: خَفِيُّها وجَلِيُّها، حقيرُها وعظيمُها، وهذا الكتابُ يُسمَّى بِسجِّين وهو عَلَمٌ لكتابٍ جامع هو ديوانُ الشرِّ، دُوِّنَت فيه أعمالُ الشياطين وأعمالُ الكفرةِ والفسقةِ من الجِن والإنسِ، وسِجِّين فى الأصل: وصْفٌ مشتقٌّ من مصدر الفعل سَجَنَ يَسجُن سَجْنًا، أى: حَبس يَحْبِس حَبْسا ثم نُقِل من الوصفية إلى العَلَمِيَّة، كما نُقل: صابرٌ وشاكر وحمَّاد ونحو ذلك، والسَّجْنُ: يعنى الحبسَ والتضييق، وسُمى ديوانُ الشرِّ سِجِّينًا: لأنهُ سببُ الحبسِ والتضييقِ فى جهنَّمَ، أو لأنه - كما رُوى - مطروحٌ تحت الأرض السابعة فى مكانٍ مظلمٍ موحش، وهو مسكنُ إبليسَ وذريته استهانةً به، وتَشهَدُه الشياطينُ المدحورون، كما يَشهد ديوانَ الخيرِ الملائكةُ المقرَّبون، فالسجِّين على هذا مبالغةُ المسجونِ أى المحبوسِ، والمعنى: أنَّ كتابَ الفجَّار الذين من جُملتهم المطفِّفون وما يُكتب من أعمالهم لفى

ذلك الكتاب المُدوَّن فيه قبائحُ ومعاصى المذكورين.

إنه كتابُ الأشقياءِ المطرودين من رحمة ربِّ العالمين لتمرُّدِهم على أمره، وخروجِهم عن طاعته، وإصرارِهم على معصيته، ومنها نهبُ أموالِ الناس، والطمعُ فيما ليس لهم بحقٍّ، لذا فهو كتابٌ فظيعٌ غايةَ الفظاعة، لا تبلغُه درايةُ أحدٍ مهما بَذلَ الجُهْدَ فى التصور والتخيل ويُفيدنا ذلك الاستفهامُ فى قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّين﴾ وهو لتهويل أمرِه واستفظاعِه، وفى ذلك تخويفٌ وردعٌ لمن تُحدِّثه نفسُه بمعصية، أو اختلاسٍ من المكيل والموزون.

وهو: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُوم﴾ أى: مسطورٌ بيِّنٌ الكتابةِ واضحُها بحيث كلُّ مَن نظَر إليه اطَّلع على ما فيه دون حاجةٍ إلى دقةِ نظرٍ وإمعان، من رقَم الكتابَ: إذا أعْجمه وبيَّنه، أو هو كتابٌ مُعلَّم، يعلمُ مَن رآه أنه لا خيرَ فيه لأصحابه بل هو شرٌّ كلُّه، أى: هو مشتملٌ على علامات دالةٍ على شقاوة كلٍّ منهم وكونه من أصحاب الجحيم، من رقَم الكتابَ إذا جعل له رَقْمًا، أى علامةً يُعرَف بها، ولقد قَرَّبت إلينا الآياتُ صورةَ هذا الكتابِ الذى تُدوَّنُ فيه أعمالُ المجرمين وأسماؤُهم بما تُطيقه عقولُنا للترهيب من أعمال الخاسرين الذين سيُزجُّ بهم فى الجحيم.

وإن العاقلَ الحكيمَ لا يَرضى لنفسه أن يكونَ اسمُه فى سِجل المجرمين وإن الله عزَّ وجل يَقبل العبدَ إذا تاب وأناب وأقلعَ عمَّا يُسخطُه سبحانه وأخلَص الطاعة فَمن أصرَّ على غيِّه، ولم يرجُ بعثًا ولا حسابًا، ولم يبالِ بجزاء ولا عقوبة، فيا حسْرتَه ويا طولَ ندَمه، يومَ تُنشر صحائفُ عمله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِين﴾ أى: هلاكٌ عظيمٌ لهؤلاء يومَ يقومُ الناسُ لرب العالمين، ثم وصَفهم بصفةِ ذمٍّ: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين﴾ أى: بيوم

الجزاءِ الذى يُدانُ فيه كلُّ امرىءٍ بعمله، وما يُكَذِّب بهذا اليومِ إلا كلُّ إنسانٍ متجاوزٍ عن حدود النظرِ والاعتبارِ غالٍ فى التقليد حتى استقصر قدرةَ الله وعلْمَه فاستحال منه الإعادة: ﴿**وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**﴾ فهو مع إبائه النظرَ فى أدلة القيامةِ، وتدبُّرِ البراهين القائمةِ على صدقها، وأنَّ القادرَ على البدء قادرٌ على الإعادة، إن المكذبَ مع ذلك «أثيم» أى منهمكٌ فى شُبهاته وشهواته الدنيئةِ بحيث ألهتْه عمَّا وراءها وحملتْه على عدم المبالاة، والجَسارة على حدود الله.

وإنَّ الكافر المكذِّبَ المُعرضَ عن الحق وأدلته إذا سَمع آياتِ الله تُتلى، بادر إلى الإنكار من فرط جهْله، وسفاهة عقله: ﴿**إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ**﴾، فلا تنفعُه شواهدُ النقل، كما لم تنفعْه دلائلُ العقل، والأساطيرُ: أحاديثُ لا نظام لها، أى هو كلام ينقلُه الخلَفُ عن السلف من الحكايات المبنيةِ على الأباطيل، ضَربوا لكتاب الله المثلَ بأساطيرِ الأولين ليصدُّوا الناسَ عن الاستماع له وتدبرِ آياته فضلُّوا وأضلُّوا.

ولذا جاء الردعُ والزجرُ عن هذا الغىِّ والقولِ الباطلِ مع بيانِ أسبابِ جحودهم: «**كَلَا**» ردعٌ للمعتدى الأثيم، عن قوله، أى: انتهِ عن هذا القول، فإنَّ هذه الآياتِ ليست بأساطيرَ تُسطر، وأقاصيصَ من وضْع الناسِ تُحكى وتُنقلُ من سلَف إلى خلَف، وتُؤْثَرُ وتُعاد كما زعمتم زوراً وبهتانًا، بل هى الحقُّ الذى لا مراءَ فيه، وقد تدبره ذوو العقول الراجحة فآمنوا وأذعنوا وصدَّقوا لسطوع البرهان، وظهورِ الحجةِ والدليل، أمَّا أسبابُ إعراضِ المعرضين فهو ما غطَّى على قلوبهم، وغلَب عليها ممَّا كانوا يكسبُونه من الكفر والانهماكِ فى المعاصى، حتى صارت كالصدأ

فى المرآة، فحال ذلك بينهم وبين معرفةِ الحق: ﴿بَل رَّانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الآية: ١٤]

والرَّيْنُ: صدأٌ يعلو الشيءَ الجليَّ، وران ذنبُه على قلبه رَيْنًا أى غلَب وفى الحديث الذى أخرجه أحمدُ وبعضُ أصحابِ السنن: «إن العبدَ إذا أذْنبَ ذنبًا نُكتتْ فى قلبِه نكتةٌ سوداءُ، فإن تاب ونَزع واستغفر صُقِل قلبُه، وإن عاد زادتْ حتى تعلُوَ قلبَه، فذلك الرانُ الذى ذَكَر اللهُ...» أى: ركِبَ قلوبَهم كما يركبُ الصدأُ، وعلا عليها، وهو أن يُصِرَّ على الكبائر، ويُسوِّفَ التوبة، حتى يُطبعَ على قلبه، فلا يقبلَ الخيرَ، ولا يميلَ إليه.

إنَّ هؤلاء الأشقياءَ المخذولين سَيُحرمون من الرَّوْحِ والرَّيحان، وسيُحجبون عن أعظمِ منةٍ لله على عباده الصالحين، وهى تَجلِّيه لهم فى جناتِ النعيمِ لينعَموا برؤية وجهه الكريم، وهى النعيمُ الذى ليس فوقه نعيم: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [الآية: ١٥]

الآية الكريمة من أدلةِ الرؤية:

أى: إنهم أحقاءُ بالحرمان من هذا الفضل العظيمِ والحجْبِ عن هذا الفوزِ المُبين برؤية وَجْه الربِّ الكريم حين التجلِّى الأعظمِ فى رياض جنة الخلد، لأن المكذبين سيكونون يومَ القيامة فى المكان الدُّون، وموقف الهُون، فى دركات جهنمَ وبئس الدارُ والمُنقلَبُ، ولا يَحجُبُ الربُّ الكريمُ عن رؤيته إلا المخذولَ المرذولَ، الذليلَ المَهين، لأنهم بأعمالهم القبيحةِ صارت مرآةُ قلوبهم ذاتَ صدأ، فلم تصلُح مَحلًّا لنور التجلِّى بخلاف المؤمنين فإنهم يَرونه تعالى لصفاء قلوبِهم بأنوار الإيمانِ

والأعمالِ الصالحة وأكلِ الحلال الطيب، وقد سُئل الإمامُ مالكٌ عن هذه الآية، فقال: لـمَّا حُجِب أعداؤُه فلم يَرَوْه، لابدَّ أن يتجلَّى لأوليائه حتى يروه، ومعنى ذلك أن الإمامَ مالكًا احتجَّ بهذه الآيةِ على مسألة الرؤية من جهة دليلِ الخطاب، وإلا فلو حُجِب الكلُّ لم يبقَ للتخصيص فائدة وبهذا قال الشافعي: لـمَّا حَجَب قومًا بالسخط، دلَّ على أن أقوامًا يَرونه بالرضى، وقال حسينُ بنُ الفضل: كما حَجَبهم فى الدنيا عن توحيده حَجَبهم فى الآخرة عن رؤيته، فالموحِّدُ غيرُمحجوبٍ عن ربه.

إن الحجابَ هو الغايةُ فى البُعد والطرد، وفى ذلك تنبيهٌ من الغفلة وإيقاظٌ من نومِ التسويف والتمنى دون توبةٍ نَصوح وعملٍ صالح، وفى الحجاب عن الرب كنايةٌ عن الطرد من رياحين الرحمةِ، والحرمان من الرؤية عند التجلى الأعظم الذى هو زيادة على ما فيه أهلُ الجنةِ من النعيم فتكون الرؤيةُ لهم أسمى من كل ما فى الجنة من النعيم، وأفضلُ تشريفٍ وتكريم، فهى الرضى كلُّ الرضى عن عباده الصالحين لا يسخطُ عليهم سبحانه بعدها أبدًا بفضله وإحسانه.

ويَرى صاحبُ الكشاف أن الحجبَ هنا على سبيل التمثيل مُعلِّلًا ذلك بقوله: «وكونُهم محجوبين عن ربهم تمثيلٌ للاستخفاف بهم وإهانتِهم لأنه لا يُؤذَنُ على الملوك إلا للوجهاء المكرَّمين لديهم، ولا يُحجَب عنهم إلا الأدنياءُ المهانون عندهم» وتَعقَّبه الإمامُ ابن المنير الإسكندرى فى الحاشية بقوله: «هذا عند أهلِ السنة على ظاهره من أدلة الرؤية، فإن الله تعالى لـمَّا خَصَّ الفجارَ بالحجاب دلَّ على أن المؤمنين الأبرارَ مرفوعٌ عنهم ـ هذا ـ الحجاب، ولا معنى لرفع الحجاب إلا الإدراكُ بالعين وإلا فالحجابُ على الله تعالى بغير هذا التفسيرِ مُحالٌ، هذا هو الحقُّ، وما

بعد الحقِّ إلا الضلال».

ونَقل صاحب روح البيانِ ردَّ المفسرين عليه، وهو قولُهم: جَعْلُ الآيةِ تمثيلا عدولٌ عن الظاهر، فإن ظاهرَ قولهم: هو محجوبٌ عن الأمير يُفيد أنه ممنوعٌ عن رؤيته وهو أكبرُ سببٍ للإهانة، فالآيةُ من جملة أدلة الرؤية».

ومع كون هؤلاء الأشقياءِ محجوبين عن رؤية الربِّ الكريم، مطرودين عن أبواب الكرامةِ فإنهم يُقذف بهم حيث لا يَلْقَون إلا الأسفَ والندامة، يُقذف بهم فى الجحيم يَصْلَونها ويُقاسون حرَّها، ويُشوَوْن بلهيبها من غير حائلٍ ولا حجاب: ﴿ثُمَّ إِنَّهم لَصَالُوا ٱلْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ﴾ [١٦-١٧]

أى: يقال لهم تبكيتًا وتوبيخًا وتقريعا وزيادةً فى التنكيل والإيلام: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [١٧]

أى فذوقوه وعيشوا مرارتَه وأهوالَه وشدائده.

لقد خَوَّف السياقُ من مطلع سورةِ المطففين إلى الآية السابعةَ عشرةَ ورهَّب، وأنذَر، وحذَّر من عاقبة التمادى فى الباطل، والإسرافِ على النفس بالانغماس فى المعاصى، والجراءةِ على الحرام، والجسارةِ فى التعدِّى على أموال الناسِ وحقوقهم، وجاءت الأساليبُ متنوعةً بين الخبر والإنشاء، مع الجزالة والقوة، ومتانةِ التراكيب، وتلاحمِ الألفاظِ وشدتها والإيجازِ والإعجاز والانتقالِ من الخاصِّ إلى العامِّ ليشملَ الخاصَّ مرةً أخرى زيادةً فى التحذير والنكيرِ والتنبيهِ خصوصًا فيما يتعلقُ بالأموال وقد أعلى هذا التحذيرُ من شأن حقوقِ العباد سواءٌ كانت معنويةً أو مادية مِمَّا يُبيِّن لكل ذى بصيرة أن الإسلامَ عند تطبيقه يصونُ حقوقَ الناس: أموالَهم وأعراضَهم وكرامتَهم ومساجدَهم وبِيَعَهم وكنائسَهم، ويرعاه

ويعاقبُ على المساس بها، ولنتدبر: ﴿وَيلٌ لِّلْمطفِّفين۞ ٱلَّذين إذَا اكتالُوا على ٱلناس...﴾ فَعمَّت الآيةُ ولم تخصَّ أهلَ الإيمان، فكراماتُ الناسِ محفوظةٌ فى الإسلام، كما تُحفَظ أموالُهم ومعابدُهم، ودورُهم وأعراضُهم فى ظلال رحمته، حيث يعيشُ فى الأمة الإسلاميةِ جميعُ الناسِ فى طمأنينةٍ وأمنٍ وسكينة ما دام الإنسانُ ملتزمًا الآداب والقوانينَ المرعيةَ فى الأمة، إذ لا عقوبةَ إلا بذنب.

تأمل هذا وتمعَّنْهُ ـ ياذا اللب ـ وجُلْ بفكرك فيما يدور ويَجرى من انتهاكٍ متعمَّد للحرمات، والأعراض، ونَهْبٍ للأموال وسَلْب للدور والديارِ تحت سمْعٍ وبصرٍ بل ورضى مدنيةِ عصرنا التى تَتشدَّقُ بالحقوق والواجباتِ والحريةِ والمساواة، وعلى كل ذى بصيرةٍ أن يُحكِّم عقلَه ويختارَ خيرى الدنيا والآخرة بقبول الإسلام دينًا ومنهجًا..

وبعد الترهيب والتحذيرِ انتقل السياقُ إلى الترغيب والتشويق.

❄ ❄ ❄

٢٦١ - ج - «وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ»

الأبرارُ: جمْعُ بَرٍّ، وهو المؤمنُ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله وباليوم الآخرِ والحسابِ والجزاء، الراضى بقضاء الله، المؤدِّى الفرائضَ، الباذلُ من ماله ما استطاع فى وجُوه البرِّ والخير، الذى يصبرُ فى الشدائد والمحنِ، الصادقُ فى قوله، الأمينُ فى معاملاته، الوفىُّ بعهوده، المراقبُ ربَّه فى سرِّه وعلانيته.

والأبرارُ أحباءُ الله، لأنهم يُحبون ما أحبَّ الله، ويُبغضون ما أبغضَ الله، ويجعلون هواهم تبعًا لما جاء به نبىُّ الله محمدٌ ﷺ، وهؤلاء أهلُ كرامة، ورفعة، وشرف، تُسطَّر أعمالُهم فى صحائف أصحابِ اليمين وَتُدوَّن فى علِّيين، وفى سورة المطففين جاء الثناءُ عليهم ترغيبًا لذوى البصائر والنُّهى ليسلكوا مسالكَهم: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۞ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [١٨-٢١]

و«**كتابُ الأبرارِ**» أى ما يُكتَب من أعمالهم الحسنةِ مُثبَتٌ فى علِّيين، الذى هو عَلَمٌ لديوان الخيرِ الجامعِ لأعمال الملائكة، وصلحاءِ الجنِّ والإنس.

وَعِلِّيون: اسمُ عَلَم منقول من جَمْع عِلِّىٍّ - بتضعيف وسطه - على وزن فِعِّيل، مأخوذٌ من العلوِّ، وهو يقابل سِجِّينَ المأخوذَ من السَّجْن، وهو عَلَمٌ لديوان الشرِّ، وقد سُمِّى ديوانُ الخيرِ بعلِّيين إمَّا لأنه سببٌ فى الارتفاع إلى أعلى الدرجاتِ فى الجنة، وإمَّا لأنه مرفوعٌ فى السماء السابعةِ حيث يسكنُ خواصُّ الملائكةِ تكريمًا له وتشريفًا.

والاستفهامُ فى: ﴿ومآ أدراكَ ما عِلّيون﴾ لتفخيم شأنه وتعظيمه، أى هو خارجٌ عن دائرةِ درايةِ الخَلْق، وهو: ﴿كتابٌ مرقومٌ﴾ أى مسطورٌ بيّنُ الكتابــة، يُقرأُ بلا تكلُّف، ويشهدُه الملائكةُ المقرَّبون، ويحفظونه.

بعد أن أكَّد السياقُ إحصاءَ أعمالِ الأبرار، وأنَّ إحصاءَها فى كتابٍ رفيعٍ مُكرَّمٍ جليل، أخذ يُفصِّل ما ينالونه من الجزاء على البرِّ والإحسان.

ولنتدبر: ﴿إنَّ الأبْرارَ لَفى نَعيم﴾ [٢٢]

والنعيمُ والنعماءُ والنعمةُ كلماتٌ تدلُّ على طيبِ العيشِ ودَعَته، وعلى كل ما فيه راحةٌ وخالٍ من الألم والعناء، فهم يُمتِّعون أنفسَهم، ويُدخلُون عليها السرورَ بِمدِّ النظرِ إلى ما يشاءون من مناظرِ الجنة ومباهجِها وألوانِ الجمالِ والبهاءِ فيها، فتنشرحُ صدورُهم، وتبتهجُ قلوبُهم بما أولاهم اللهُ من النعمة والكرامة: ﴿علَى الأرآئكِ يَنظُرون﴾ [٢٣]

وقد علَت وجوهَهم آثارُ النعمة، وبهجةُ الرضى والسكينة: ﴿تَعرِفُ فِى وُجوهِهِم نَضْرَةَ النَّعِيم﴾ [٢٤]

إذ الوجهُ مرآةٌ تَعكس ما يدورُ فى النفس، وما يؤثرُ فيها، فإذا نظرتَ أدركتَ من مظاهرِ السرور والرونقِ أنَّ النفوسَ راضية، وأنها تفيضُ بالسعادة والرَّوح.

ومن ألوان النعيم ما يُقدَّم لهم من الشراب النقىِّ اللذيذِ الصافى الذى لا يكدِّره شىء: ﴿يُسقَوْنَ من رَّحيق مَّخْتُوم۝خِتَامُه مسْك﴾ [٢٥-٢٦]

فإذا كان الرحيقُ خمرًا، فهى خمرٌ لا تَذْهَبُ بعقل شاربها خاليةٌ من سوء رائحةِ خمرِ الدنيا وخُبثِها، قد خُتِمت أوانى هذا الرحيقِ وسُدَّت بالمسك تطييبًا وزيادةَ تشريف، وقيل: إن الكلامَ على التمثيل لكمال نفاسةِ الرحيق، فكأنه قد خُتمت أوانيه إذ لا يَمسُّه غبارٌ ولا ذبابٌ ولا

تَمتدُّ إليه يَدُ خيانة، فليس ثمةَ شيءٌ فى الجنة يُحوِجُ إلى خَتم الآنية.

ويجوز أن يكونَ المرادُ بـ «ختامُه مسْك» أن الشاربَ يجدُ منه رائحةَ المسك بعد أن يشربَه، كالأشربة الـمُمسَّكة فى الدنيا، فإنه يُوجَد فيها رائحةُ المسكِ عند خاتمةِ الشرب.

وعن أبى الدرداء: أن الرحيقَ شرابٌ أبيضُ مثلُ الفضة، يَختِمون به آخرَ شُربهم، ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يدَه فيه ثم أخرجها، لم يبقَ ذو روحٍ إلا وَجَد طيبَ ريحه.

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [٢٦]

أى: وفيما ذُكر من أحوال الأبرارِ فليرغبِ الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله عز وجل، والأمرُ للتحضيض والترغيب.

وأصل التنافس: التغالُب فى الشىء النفيس، وهو الذى تَحرِص عليه النفوسُ، وتريدُه كلُّ نفس، يقال: نَفِسَ عليه الشىءَ - كفرح - نفاسةً، أى: ضَنَّ به، ولم يره له أهلا.

ومن أمارات التنافسِ فى هذا الميدان الكريم: تعلُّق القلب بالله وحسنُ التوكلِ عليه، والتباعدُ من مجالس البطالين، والأنسُ بكتاب الله عز وجل والتدبر فى آياته، والإقبالُ على حلاوة الذكر، وتَلقِّى النعمِ بالفرح والشكر، والثقةُ فيما عند الله من الرحمة، والبكاءُ على ما سلف من التقصير والمعاصى، والمواظبةُ على المناجاة، والاقتداءُ بنبى الهُدى ﷺ.

إنها حكمةٌ عالية، فيها توجيهٌ نفيس، وإرشادٌ قيمٌ، وقد اكتسبت هذه الحكمةُ القرآنيةُ الساميةُ الهدف، العظيمةُ الدلالةِ على المقصود صفةَ المثلَيةِ بعد نزولها وشُيوعها فى المسلمين، وصارت تُضرَب فى المواقف والأحوالِ التى تقتضى بَعْثَ الهِمم على المسابقة فى المبرات وحَفْزَ

النفوسِ لنيل المكرماتِ، والتعلقِ بمعالى الأمور، والحثَّ على ترك التقاعسِ عن منافسة أصحابِ المروءات.

تلك صورةٌ تقربُ لنا نعيمَ الأبرار، وهم أصحابُ اليمين، وهذا شرابُهم الصافى الخالى من الكدورات، ولا غَوْلَ فيه ولا تأثيم، ويُمزج من ماءِ عينٍ تُسمَّى «تَسنيم» مرتفعةِ المكان، رفيعةِ الشراب، تَجرى من جنة عَدْن، ومن «تَسنيم» يَشرب الـمُقرَّبون وهم السابقون السابقون يشربون ماءَها صِرفًا، ويمزجُ ويخلطُ لسائر أهلِ الجنة، لأنهم لم يشتغلوا بغير الله: ﴿وَمزاجُه مِن تَسنيم۞عَيْنًا يَشْرَبُ بِها الْمقرَّبون﴾ [٢٧-٢٨]

وانتصاب «عينًا» على المدح والاختصاص أو على الحال من تسنيم وجملةُ ﴿يشربُ بها المقرَّبون﴾ صفةٌ لعين فى محلٍّ نصب، أى: يَشرب ملتذًّا بها المقرَّبون الذين أخلصوا وصدقوا فى طريق السلوك إلى الله:

على نفسه فَلْيبكِ مَن ضاع عمرُه وليس له منها نصيبٌ ولا سَهم

لقد كان أكابرُ المجرمين المشركين يسخرون من المسلمين وهم فى مكةَ المكرمةِ، ومن فقرائهم، ويتغامزون عليهم مستهزئين، وكان من أغراضهم تنفيرُ الناسِ من اللحاق بركب النور، والدخولِ فى صفوف الأبرارِ والمقرَّبين من أصحاب النبىِّ الأمينِ ﷺ، هذا حالُهم فى الدنيا، وفى الآخرة يَرَوْنَ نِعَمَ اللهِ سابغةً على المؤمنين فيزيدُهم ذلك عذابًا وألـمًا وندمًا على ما فرط منهم فى الدنيا من العناد والصدِّ عن دينِ الله.

وفى ختام سورة المطففين يقدِّمُ السياقُ صورةً حيةً لحال هؤلاء الأشقياءِ وأولئك الذين أنعم اللهُ عليهم بنعمة الإيمانِ فى الدنيا، والتثبيتِ والفوزِ فى الآخرة تشويقًا لذوى الأفهام لاختيار طريق الناجين الفائزين ولنتدبر:

﴿إِنَّ ٱلذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ۞وَإِذَا مَرُّوا بِهِم

يَتَغَامَزُونَ﴿وإذَا انقَلَبُوا إلَىٰ أَهْلِهِم انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴿وإذَا رَأَوْهُم قَالُوا إنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ﴿وَمَا أُرسِلُوا عَلَيهِم حَافِظِينَ﴾ [٢٩ـ٣٣]

أى إن عتاةَ مُجرمى المشركين كانوا فى الدنيا يستهزئون بالمسلمين وبفقرائهم، وإذا مرَّ بهم مسلمٌ وهم فى أنديتهم وأماكنِ جلوسِهم يَغمزُ بعضُهم بعضًا، ويُشيرون بأعينهم ويَعيبونهم، والتغامزُ: الإشارةُ بالجفْن والحاجب، ويكون بمعنى العيب ـ أيضا ـ وإذا عاد الكفارُ إلى بيوتهم عادوا مُتسلِّين ومسرورين بِذكْر ما فعلوه مع المسلمين من السخرية والاستهزاء، وكان المشركون فى هذه المرحلةِ إذا رأوا المسلمين قالوا عنهم: إنهم فارقوا دينَ آبائِهم، وتركوا الأصنامَ وعبادتَها، ودخلوا مع محمدٍ فى دينه راجين جناتٍ فى اليوم الآخر، وهم بذلك ضلُّوا وساروا فى طريق المشقة، وتركوا التنعمَ بسبب طلبِهم الثوابَ فى الآخرة: ﴿وَإذَا رَأَوْهُم قَالُوا إنَّ هؤلاء لَضالُّون﴾

ونبَّه السياقُ إلى أن هؤلاء المشركين ليسوا أهلا لأن يشهدوا برشْد المؤمنين أو ضلالهم، وليسوا موكَّلين بهم يحفظون عليهم أمورَهم، ويُهيمنون على أعمالهم، وإنما هم مأمورون بإصلاح أنفسِهم، والاشتغالِ بعيوبهم: ﴿وَمَا أُرسِلُوا عَلَيهم حَافِظِين﴾ وفى هذا تهكمٌ بهم، لأنهم لا نفعَ لهم فى تَتبُّع أحوالِ غيرِهم، وهم غارقون فى الضلال والشرك.

وفى اليوم الآخرِ يُساق المجرمون فى الأغلال إلى جهنم، وبئس المصير ويَرى المؤمنون أحوالَهم. ويندمُ النادمون بعد فوات الأوان، ولنتدبر هذه الصورةَ الحيةَ لأحوال المؤمنين فى يوم الدين: ﴿فَاليومَ الذِينَ آمنُوا مِنَ الكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [٣٤]

أى: على ما هم فيه من المهانة والذلةِ وسوء المصير، بعد أن كانوا فى

غرورٍ وزهوٍ وكبرياءَ وغفلةٍ عن هذا اليومِ والمجازاةِ فيه بما كانوا فيه من نعيم فانٍ، ومتاعٍ زائل.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [٣٥]

أى: حالَة كونَ المؤمنين على كراسيِّهم مُكرَّمين مُشرَّفين ينظرون ويُقارنون ويزدادون نعيمًا وحمدًا. ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٣٦]

أى: هل جوزى الكفارُ بأفعالهم وإجرامِهم بسبب عنادِهم واستهزائِهم بأولياء اللهِ الصالحين وضَحكِهم منهم، والتثويبُ والإثابةُ: المجازاةُ استُعمل فى المكافأة بالشر، والتثويبُ فى القرآن لم يَجِئ إلا فى المكروه وفى القاموس «التثويبُ» التعويضُ.

وفى هذا تسليةٌ للمؤمنين، بأنه سيَنقلِبُ الحال، ويكون الكفارُ مضحوكًا منهم، واللهُ عز وجلَّ ينتقمُ لأوليائه، ويُذِلُّ أعداءَه، وينبغى للعاقل أن ينأى عن طريق أهلِ الجهلِ فلا يسخرُ من أحد، ولا يستهزئُ ولا يغمزُ، فالخائضُ فى مثْل هذا فيه من خصال المجرمين ما فيه.

ومن الله العصمةُ ومنه التوفيق

❄ ❄ ❄

كلمة فى :

الآيـة والآيات ودلالتها فى الكتاب العزيز

الآيةُ فى كلام العرب هى العلامةُ الظاهرةُ . .

ولـمّا كانت الجملةُ التامةُ من القرآن علامةً على صِدْق الآتى بها وعلى عَجز الـمُتَحدَّى بها سُمِّيتْ آية، وقيل سُميت آية، لَمّا كانت جملةَ وجماعةَ كلام، كما تقول العرب: جِئنا بآياتنا أى بجماعتنا، وقيل: لـمّا كانت علامةً للفصل بين ما قبلها وما بعدها سُميت آية.

قال تعالى: ﴿منه آياتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أمُّ الكِتاب﴾ [آل عمران:٧]

وقال سبحانه: ﴿الَرَ تِلْكَ آياتُ الكتابِ الحكيم﴾ [يونس:١]

وقال: ﴿تلك آياتُ الكتاب المبين﴾ [يوسف:١]

وقال عز وجل: ﴿وإذا بَدّلْنآ آيةً مَّكانَ آيةٍ واللهُ أعلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوآ إنما أنت مُفْتَرِ بَلْ أكثرُهم لا يَعْلَمُون﴾ [النحل:١٠١]

فالآيةُ هنا بمعنى طائفةِ حروفٍ من القرآن الكريم أى الجملةُ التامةُ منه.

وبمعنى العلامة والمعجزة:

أمّا الآية بمعنى العلامةِ ففى مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّى آية﴾ [مريم: ١٠]

وقولهِ: ﴿إنَّ آيَةَ مُلْكِه أن يأتيكم ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكم....﴾ [البقرة:٢٤٨]

وقولهِ: ﴿يَوْمَ يأْتِى بَعْضُ آياتِ ربِّكَ لَا ينفعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تكُنْ آمَنَتْ مِن قَبلُ أوْ كَسَبَتْ فِىٓ إيمانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام:١٥٨]

(١٧٣٣)

وفى قوله تعالى: ﴿ولقَدْ تَرَكْنَامنها آيةً بيِّنة لقومٍ يَعقلون﴾ [العنكبوت: ٣٥]

وتأتى الآية بمعنى المعجزة الدالة على صدقِ الداعى وعلى أنه مرسلٌ من ربه، وهى الأمر الخارقُ للعادة، ولا يمكن لبشرٍ أن يأتى بمثلها. يقول الله تعالى: ﴿ولقد آتينَا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بيِّنات فاسْألْ بَنىٓ إسرآئيلَ إذ جآءَهُم فقالَ له فِرعونُ إنى لأظنُّك يا موسَى مَسْحُورا﴾ [الإسراء: ١٠١]

أخبر الله عز وجل أنه بعث موسى بتسع آياتٍ بيِّنات وهى الدلائلُ القاطعةُ على صحة نبوَّته وصدْقه فيما أخبر به عن ربه، وهى: العصا واليدُ البيضاء وأخذُهم بالسنين، وفَلْقُ البحر، والطوفانُ، والجرادُ، والقُمّلُ، والضفادعُ والدمُ، آيات مفصلات كما قال ابن عباس، ومنهم من يجعل انبجاسَ اثنتى عشرةَ عينا من الحجر آيةً بدلا من السنين، وفى الآية بمعنى المعجزة أيضا جاء قوله تعالى: ﴿اذهبْ أنت وأخوك بآياتى﴾ [طه: ٤٢]

وقولُه تعالى: ﴿فأرسلْنا عليهِم الطوفانَ والجرادَ والقُمَّلَ والضفادعَ والدَّمَ آياتٍ مفصَّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قومًا مُّجرمين﴾ [الأعراف: ١٣٣]

وفى قوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جَهد أيمانهم لئن جآءتْهُم آيةٌ ليُؤمِنُنَّ بها قُل إنما الآياتُ عند الله وما يُشعرُكم أنها إذا جآءتْ لايُؤمنون﴾ [الأنعام: ١٠٩]

وفى قوله تعالى: ﴿وقالُوا لولآ أُنزِل عليه آياتٌ من ربِّه قُل إنّما الآياتُ عندَ اللهِ وإنّمآ أنا نذيرٌ مُّبين۞أولم يَكْفِهم أنَّآ أنزلنَا عليكَ الكتابَ يُتلى عليهم إن فى ذلك لرحمةً وذِكرى لقَوْمٍ يُؤمنون﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١]

وقولهِ عزَّ وجل: ﴿وإن كانَ كبُر عليكَ إعراضُهم فإن ٱستطعتَ أن تَبْتغِىَ نفَقًا فى ٱلأرضِ أو سُلَّما فى ٱلسمآء فتأتيَهم بآية ولو شآءَ اللهُ لجمعهُم علَىٰ الهُدى فلا تكونَنَّ من الجاهلين﴾ [الأنعام: ٣٥]

وفى قوله سبحانه لموسى: ﴿وأَدْخِلْ يَدَكَ فى جَيبك تخرجْ بيضآءَ من غيرِ سُوءٍ فى تسع آيات إلىٰ فرعَونَ وقَومه إنَّهم كانُوا قومًا فاسقين*فَلمَّا جآءتْهُم آياتُنا مُبصِرةً قالُوا هٰذا سِحرٌ مُّبين*وجحَدُوا بِهَا واستيقَنتْها أنفسُهم ظُلمًا وعلوًّا فانْظُر كيفَ كانَ عاقبةُ الـمُفسدين﴾ [النمل: ١٢ـ١٤]

والآيةُ المبصرةُ هى المعجزةُ الواضحةُ البِّينةُ التى لا يمكن نُكرانُها ولكن المعاندين على عادتهم يصدّون عن الحق، ويجحدون بالآيات البيِّنات مع تَيقُّنهم أنها من عند الله وأنها ليست سِحرًا، ولكنّ الكبرَ دائمًا يُهلك صاحبه ويمنعُه عن الخير والرشاد، ويوقعه فى عذاب أبدىٍّ لا يموت فيه ولا يحيا حياةً فيها شىءٌ من الراحة إنما هو الشقاءُ الدائم والنارُ التى تتلهبُ فى الداخل وتشوى الظاهر، ولا حول ولاقوة إلا بالله.

﴿وجحدوا بها واستيقنتْها أنفسُهم ظلما وعلوّا...﴾ولنتدبر: ﴿فاستكْبَروا وكانُوا قومًا مُّجرمين﴾ وفى الآيات بمعنى المعجزاتِ جاء قولُه تعالى: ﴿وما مَنَعَنآ أن نُّرسل بالآيات إلَّا أن كذَّب بها الأوَّلُون وآتينا ثمودَ الناقةَ مُبصِرةً فظلمُوا بِها ومَا نُرسِلُ بالآياتِ إلَّا تَخْويفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]

وقد نزلت هذه الآيةُ حين سألت قريشٌ رسولَ اللهﷺ أن يدعوَ ربَّه ليجعلَ لهم الصفا ذهبًا وأن ينحِّىَ الجبالَ عن مكةَ فيزرعوا فإذا رأوا الآياتِ آمنواْ بهﷺ، جاء فى حديث ابن عباس أن النبىﷺ قال: «وتفعلون»؟ قالوا: نعم، قال: فدعا، فأتاه جبريل، فقال: إن ربك يقرأُ عليك السلام، ويقول لك: إن شئتَ أصبح الصفا لهم ذهبا، فمَن كفر منهم بعد ذلك عذبتُه عذابا لا أُعذّبه أحدا من العالمين، وإن شئتَ فتحتُ لهم بابَ التوبة والرحمة، فقالﷺ: بل بابَ التوبةِ والرحمة» [مسند الإمام أحمد]

ولقد سأل الأولون أنبياءَهم آياتٍ ثم كذّبوا بها بعدما سألوها وقد

جرتْ سُنةُ الله فيهم وفى أمثالهم أنهم لا يؤخَّرون إذا كذّبوا بعد نُزولها كما سألت ثمودُ نبيَّهم صالحا آية، وطلبوا ناقةً تَخرج من صخرة عيَّنوها، فدعا صالحٌ ربّه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا: «فَظَلموا بها» أى كفروا بـمَن خلقها، وكذّبوا رسولَهم، وعَقَروا الناقة، فقال:

﴿تَمتَّعُوا فى داركم ثلاثةَ أيَّامٍ ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب﴾ [هود: ٦٥]

لقد كانت الناقةُ آيةً بيّنةً على وحدانية الله عز وجل وقدرته وعلى صدق نبيِّه الذى أُجيب دعاؤه فيها، ولكنهم جَحدوا وعاندوا وكابروا ومنعوها شِربَها وعقروها فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخْذَ عزيز مقتدر: ﴿فأخذتْهُم الرَّجفةُ فأصبحُوا فى دارِهم جاثمين﴾[الأعراف: ٧٨]

وما أكثرَ العبرَ فى حياة الأمم السابقة مـمّا فيه عِظةٌ لأمة الإسلام ولكل ذى عقل وبصيرة، إذ الانطلاقُ وراء الشهواتِ والغفلةُ عن الآخرة من أعظم أبواب الشرّ على الأفراد والأمم.

وكما تأتى الآيةُ بمعنى طائفةِ الحروف من القرآن الكريم، وبمعنى العلامةِ، وبمعنى المعجزةِ، فإنها تأتى أيضا بمعنى العبرة والعظة والبرهان والدليل سواء أكانت خارقةً للعادة وهى المعجزاتُ أم غير خارقةٍ لها.

وإن آيات الله عز وجل فى الكون فيها دلائلُ ساطعات، وبراهينُ قاطعات على وحدانية الله سبحانه وتعالى، وعلى عظيم قدرته، وسعة رحمته بعباده، وعلى كمال حكمته، ومن تفكَّر متأملاً فى آفاق النفس البشرية وجال بنظره وفكرِه متدبرا كلَّ آية فى الكون يقعُ عليها حسُّه لهتف من قلبه وشعوره وعقله ووجدانه قائلا: لا إلَـهَ إلا اللهُ، سبحان اللهِ الذى تفرّد بالإلـهية ولا شريك له ولا نِدَّ، ولا نظيرَ، ولا مثيلَ، ولكن أهل الغفلة والعنادِ يرون ولا يفكرون فيما اشتملت عليه هذه الآياتُ من

دلائلِ القدرة وبراهينِ الوحدانية والعظمة، لذا فهم عمى البصائر أمواتُ القلوب، وإن أخذوا بالأسباب الدنيوية، ووصلوا إلى أعلى المراتب المادية بالصعود فى الفضاء، والغوصِ فى أعماق الماء، وبتحقيق التقدم المادىِّ والعقلى إذ إن هذا كلَّه لا يحقق للإنسان سكينَته وطمأنينتَه الحقة لأن أسمى ما فى الإنسان روحه، وإن حاجات الروح تتحققُ بالإيمان الصحيح واتّباع الدينِ الحق الذى جاء به محمدٌ ﷺ.

وبمعنى الدليل والبرهان:

ومن الآيات الكونيةِ الشاهدةِ لأولى الألبابِ بوحدانية الخالق المدبر وحكمته: ﴿إن فى خلْقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولى الألباب﴾ [آل عمران: ١٩٠]

ولنتدبر: ﴿إن فى اختلافِ الليلِ والنهارِ وما خلقَ اللهُ فى السمواتِ والأرضِ لآياتٍ لقوم يتَّقون﴾ [يونس: ٦]

ولنسمع الله عز وجل يقول للعباد: ﴿ومن آياته الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمرُ لا تسجدوا للشمسِ ولا للقمرِ واسجدُوا للهِ الَّذى خلقهُنَّ إن كُنتم إيَّاه تَعبدون﴾ [فصلت: ٣٧]

ولنتدبر: ﴿وسخّر لكم الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ والنجومُ مسخراتٌ بأمره إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يعقِلون*وَمَا ذَرأ لكُم فى الأرضِ مختلفًا ألوانُه إن فى ذلك لآيةً لقوم يَذَكَّرونَ﴾ [النحل: ١٢-١٣]

والله عز وجل يقول: ﴿سنُريهم آياتِنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يَتبيَّن لهُم أنَّه الحقُّ أوَ لَمَ يَكفِ بربِّك أنّه على كلِّ شىء شَهيد﴾ [فصلت: ٥٣]

ومن آيات اللهِ فى النفس البشرية قولُه تعالى: ﴿ومن آياتِه منامُكم بالليلِ والنهارِ وابتغاؤُكم مِّن فضله﴾ [الروم: ٢٣]

ولنتدبر: ﴿ومن آياته خلقُ السموات والأرضِ واختلافُ ألسِنَتِكم وألوانِكم إنّ فى ذلك لآياتٍ للعالِمين﴾ [الروم: ٢٢]

ومن الآياتِ التى أجراها اللهُ على يد الإنسان وهيأ له أسبابَهاتسخيرُ البحر لتجرِىَ فيه السفنُ وهدايةُ الإنسان إلى صنعها واستخدامِها فى أغراضه: ﴿ومن آياته الجَوارِ فى البحْرِ كَالأعْلامِ﴾ [الشورى: ٣٢]

﴿وآيةٌ لهم أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَتَهُم فى الفُلْك المشْحُون﴾ [يس: ٤١]

ففى هذه الآياتِ وأمثالِها: فى الكون، وفى النفس البشريةِ، وفيما هَدَى اللهُ الإنسانَ إليه كالسفن ونحوها فيها عبرٌ وعظات، وأدلةٌ وبراهين، إذا العاقلُ تأمّل وتدبَّر ازداد المؤمنُ إيمانًا، وتنبه الغافلُ، وآمن الجاحدُ إذا أُريد به الخيرُ، وكان من أهل السعادةِ حقا.

وبمعنى الأحكام:

وتأتى الآيات بمعنى الأحكام التى بينها الله عز وجل لعباده ونزل بها الوحْىُ على نبيه محمدﷺ، كما فى قوله تعالى فى ختام الآية التى أباح اللهُ فيها للصائم الرفثَ إلى زوجته ليلةَ الصيام، قال سبحانه ﴿كذلكَ يُبيِّنُ اللهُ آياتِه للناسِ لَعَلَّهم يَتَّقُون﴾ [البقرة: ١٨٧]

أى كما بَيَّن الصيامَ وأحكامَه وشرائعَه وتفاصيلَه كذلك بيّن سائرَ الأحكام على لسان نبيِّهﷺ، وفى ختام الآية التى بيّن فيها أحكامَ الأَيمانِ من سورة المائدة جاء: ﴿كذلكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُم آياته لعَلَّكم تَشْكُرون﴾ [المائدة: ٨٩]

فالآيةُ هنا بمعنى حُكم من أحكام اللهِ عزَّ وجلَّ.

فالآية تكون بمعنى العلامة، وبمعنى طائفةِ الحروفِ من القرآن، وبمعنى المعجزةِ الدالةِ على صِدْقِ النبىِّ فيما جاء به من ربه، وبمعنى العبْرةِ والعظةِ والدليل والبرهانِ، وبمعنى حكمٍ من أحكام الله عز وجل. «والله أعلم»

وطوبى لأهل التدبر والتفكر فيما ينفعهم.

(١٧/٢٨)

نصيحة :

لصاحب القرآن «وَاجِبُه - منزلتُه»

«يقال لصاحب القرآن - يوم القيامة -: اقْرَأْ وارْقَ، وَرَتِّلْ كما كُنتَ تُرتِّلُ فى الدنْيا، فإنَّ منزِلتَكَ عند آخرِ آيةٍ تَقْرَؤُها»

[حديث شريف أخرجه البخارىُّ والترمذىُّ والراوى عبدُ الله بنُ عمرَ]

إن أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ تبارك وتعالى، قد أفلح مَن زيَّنه الله فى قلبه، فأخلص له الحب، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسنُ الحديث، وأبلغُ الكلام.

أحبه الصالحون من كل قلوبهم، وتعلَّقت به أفئدةُ أهل المحبة: لا يملُّون تلاوتَه، ويتدبرون معانيَهُ، ويجتهدون فى تعلُّمه، ويتفهَّمون أسراره، وينتفعون بأمثاله، ويخضعون لحُكمه، ويعملون بأحكامه ويهتدون بهدْيه، وتَلينُ قلوبُهم عند زواجرِه ووعيده، وتُشرقُ نفوسُهم بالرجاء عند وعْده وبشارته للتائبين والعابدين والركَّع السجود.

إن أهل القرآنِ يحبون الله من كل قلوبهم، ويُحبون رسولَه، ويحبون صحابةَ رسولهﷺ، ويحبون لله، ويُبغضون لله، ويحبون ما أَحبَّ الله.

إنَّ القرآنَ نورٌ، وهُدًى، ورشادٌ، وموعظةٌ من ربنا، وشفاءٌ لِمَا فى الصدور من أدران الريبِ والشكِّ، وهو رحمةٌ للمؤمنين.

وإن صاحبَ القرآنِ كما يُخلص فى محبَّته، وفى تعلُّمه، فإنه يأخذُ نفسَه بقراءته فى ليله ونهارِه، فى الصلاة، وفى غير الصلاةِ كيلا ينساه.

الرسول صلى الله عليه وسلم

يوصى صاحب القرآن:

ومن وصيته ﷺ قولُه: «إذا قام صاحبُ القرآنِ فقرأه بالليل والنهارِ ذَكَرَه، وإن لم يَقُم نَسِيَه» [رواه ابن عمر وأخرجه مسلم]

وقد أكَّدت تجاربُ أهلِ القرآنِ فى كل جيلٍ منذ العصر الأول أن الغفلةَ عن تَعاهُدِ المسلمِ ما يَحْفظُه من القرآن الكريم تكون سببًا فى تفلُّته من صدْره، وتَفَصِّيه عن قلبه، ومع طول الغفلةِ عن التلاوة يكون النسيانُ، والندمُ، والحاجةُ إلى بذل الجهد ومعاودةِ التشميرِ عن ساعد الجِدِّ لِتَذكُّرِ ما أُنسِىَ، وإعادةِ نورِ الآيات بِلفْظها ومعناها إلى الصدر.

وإن قدوةَ المعلِّمين، وأسوةَ المُربِّين يُنَبِّهُ أهلَ القرآن إلى ذلك، ويدعوهم إلى تَعاهُدِ القرآن أى: بالمراجعة، والمعاودة، والمداومة على تلاوته فيقول ﷺ: «تَعَاهَدُوا القُرآنَ، فوالذى نفسُ محمدٍ بيده لَهو أَشدُّ تَفلُّتًا من صُدور الرجالِ من الإبل فى عُقُلها» [رواه أبو موسى وأخرجه البخارى]

وفى رواية: «استَذْكِرُوا القرآنَ، فإنَّه أَشدُّ تفصِّيًا من صدور الرجالِ من النَّعَمِ» أى من عُقُلها.

وفى ذلك تمثيل يُقَرِّبُ المعنى المراد، ويوضِّحه ويجعله كأنه ماثل أمام الحسِّ، مما يدعو إلى الحرص على مداومة التلاوة، وعدم الغفلة عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار.

لقد يَسَّر اللهُ عزَّ وجلَّ بفضله وإحسانه حِفْظَ القرآنِ للراغب فى حِفْظه، المجتهدِ فى ذلك، وإن الناسَ فى هذا المجال من جميع الأعمار سواء، وإن كان المرءُ فى أول حياته، وفى فترة صباه، وخُلوِّ باله من شواغل الدنيا وصفاء ذهنه، أسرعَ حِفظًا. وأكثرَ صبرًا ونشاطًا، واللهُ عز

وجل يقول من سورة القمر ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

وفى هذا حَثٌّ وترغيبٌ فى الإقبال على مائدة الرحمنِ وما أعظمها وما أنفعها، وما أبركَها، وإن الحبيبَ المصطفى ﷺ يدعونا من جميع الأعمار للإقبال على كتاب الله: نتلُو، ونتعلَّم، ونحفظُ، ويَأْخذُ كلٌّ منا بنصيبه حسب اجتهادِه، فيقول: «إنَّ هذا القرآنَ مأدُبَةُ الله، فَتعلَّموا من مأدُبتِه ما استطعتُم»

وفيه تشبيهُ القرآنِ بصنيعٍ يصنعُه اللهُ عز وجل للناس لهم فيه خيرٌ ومنافعُ، ثم دعَاهُمْ إليه، لأن فيه: الشفاءَ النافعَ، والعصمةَ لمن تمسَّك به، والنجاةَ لمن اتَّبعه، وهو النورُ للقلب وللعقل، لا يَضِلُّ المُهتدِى به، ولا يَهْتدِى تاركُه الجافى عنه.

بُشْرى لَمَن يتعاهَدُ القرآن:

وقد بَشَّر الحبيبُ المصطفى ﷺ المُقبِلَ على تلاوة القرآنِ وحِفْظِه والصابرَ على مَشقَّة الطريقِ، الدائبَ على ترقية حاله فى الإجادة والتلاوة وحُسْنِها شيئًا فشيئًا، ففى الحديث الذى رواه مسلمٌ وبعضُ أصحاب السُّنن نجدُ هذه البشرى: «إنَّ المؤمنَ الذى يتعاهَدُ هذا القرآنَ، ويَشْتدُّ عليه له أَجران» أى أَجرُ التلاوةِ وأجرُ ما يَجِدُه من المَشقَّة وهو فى بداية الطريق، مع صَبْره ومُثابرته على التعلُّم.

أَمَّا الماهرُ بالقراءة، الحافظُ المُجيدُ للتلاوة فمنزلتُه أَرقى، ومكانتُه أَسمى لأنَّه صَبَر وثَابَر، ووقَّر مُعلِّميه وأطاعهم حتى سَهُلتْ عليه القراءةُ وأجاد التلاوةَ، وفى تمام هذا الحديث يقول ﷺ: «والذى يَقرؤُه وهو خفيفٌ عليه مع السَّفَرةِ الكِرام البَرَرة» وفيه تشبيهُ الحافظِ جيِّدِ القراءةِ حَسَنِ الترتيلِ بالملائكة.

وفى روايةِ عائشةَ رضى اللهُ عنها عند البخارى: «الذى يقرأُ القرآنَ وهو ماهرٌ مع السفَرَةِ الكرامِ البَرَرةِ، والذى يقرأ القرآن ويَتَتَعتَعُ فيه، وهوَ عليه شَاقٌّ له أَجْرَان». والسفرةُ: هم الملائكة. والتتعْتُع: هو التردُّدُ فى الكلام أى وجود مَشقَّة فى بداية التعلُّم والحِفْظ.

نصيحةٌ من صحابىٍّ جليل:

نَصح عبدُ اللهِ بنُ مسعود رضى الله عنه قارئَ القرآنِ وأوصاه بفضائلَ جليلةٍ، وخلالٍ عظيمة، فقال: «ينبغى لقارئ القرآنِ أن يُعْرَفَ بليْله إذ الناسُ نائمونَ، وبنَهاره إذ الناسُ مُستيقظون، وببكائه إذ الناسُ يضحكُون، وبصمْته إذ الناسُ يخوضُون، وبخشُوعه إذ الناسُ يختالون، وبِحُزنه إذ الناسُ يَفرحُون»

إنَّ صاحبَ القرآنِ فى جَوْفه أَطهرُ وأَغْلَى كلام.

فلا ينبغى له أن يخوضَ مع الخائضين فى الَّلغو والَّلهوِ والهَزْل والذى يَليق به دَوْمًا أَنَّه إذا تَحدَّث تَحدَّث فيما يرجو ثوابَه، وأَن يكونَ طويلَ الصمْت، دائمَ الفِكْر فى آياتِ اللهِ، وأن يقولَ للناس حُسْنًا، ويكُفَّ جوارحَه عن معاصى الله ويُدْئبَهَا فى طاعته وخدمته سبحانه وتعالى.

ومن أخلاق صاحبِ القرآنِ توقيرُ مجالسِ القُرآن، وتعظيمُ كلامِ اللهِ ومراعاةُ حُرْمَته، والخشوعُ عند تلاوته، والاجتهادُ فى إعطاءِ كلِّ حَرْفٍ حَقَّه من الأداءِ إذا قرأً، والسؤالُ عَمَّا يَجهلُ من معانيه، واحترامُ مُعلِّميه وشيوخِه.

وإنَّ صاحبَ القرآنِ يُحافظُ على النظافة والطهارة، ويُعْنَى بنظافة الفَمِ لأنَّ منه يَخْرجُ كلامُ اللهِ، ويُعِينُه على ذلك المضمضةُ، واستخدامُ السِّواكِ ونحوِه.

وصاحبُ القرآن يَحرِص على أداء الفرائضِ الخمسِ فى أوقاتها، وعلى حضورِ الجماعاتِ.

منزلةُ صاحب القرآن:

حسبُه شرفًا ورِفْعةً وسُؤددًا أنه يحفظُ كلامَ الله، والحبيبُ المصطفىﷺ يقول: «خَيرُكم من تَعلَّم القُرآنَ وعَلَّمَه» [أخرجه البخاريُّ والراوى عثمانُ بنُ عفَّانَ] ولفْظُه عند الترمذيِّ وغيرِه: «إن أَفْضَلَكُم مَن تَعلَّم القرآنَ وعَلَّمه».

وفى مُسند الإمامِ أحمدَ قال أَنسٌ: قال رسولُ اللهﷺ: «إن للَّـه أَهْلين مِن النَّاس، قِيل: مَن هُم يا رسولَ الله؟ قال: أهلُ القرآنِ هُم أَهلُ اللهِ وخاصَّـتُهُ». وما أعظَمَها من منزلة.

اللهمّ اجعلنا من أهل القرآن بفضلك وإحسانك.

❊ ❊ ❊

كشّاف الكتاب الخامس

الرقم	البيان	الصفحة
	تمهيد	٥ (١٥١٣)
	فى ظلال سورة نوح عليه السلام:	
١ -	٢٢٨ - أ - آدم الثانى	
	وعبر مِن قصته مع قومه	٧ (١٥١٥)
٢ -	٢٢٩ - ب - وأصروا واستكبروا	١٣ (١٥٢١)
٣ -	٢٣٠ - ج - ما لكم لا تَرجون لله وَقارًا	١٩ (١٥٢٧)
٤ -	٢٣١ - د - رَبِّ إنهم عَصَوْنى	٢٦ (١٥٣٤)
٥ -	٢٣٢ - أ - لا تثريب عليكم اليوم	٣٤ (١٥٤٢)
٦ -	٢٣٣ - ب - آياتٌ وعبرٌ للسائلين	٤٠ (١٥٤٨)
٧ -	٢٣٤ - ج - إطلالةٌ من نافذة	
	نفوسٍ بشرية «أخاك أخاك»	٤٧ (١٥٥٥)
٨ -	٢٣٥ - د - الحسود لا يسود	٥٤ (١٥٦٢)
٩ -	٢٣٦ - هـ - فى سيرتهم قدوةٌ	٦١ (١٥٦٩)
١٠ -	٢٣٧ - و - وجوانب من القدوة	
	فى سيرة يوسف وأخلاقه	٦٧ (١٥٧٥)
١١ -	٢٣٨ - لا إيمان لِمن لا أمَانَةَ له	٧٣ (١٥٨١)
١٢ -	٢٣٩ - صار قارون عبرةً وقصته مثلا	٨٠ (١٥٨٨)
	من سورة الفرقان:	
١٣ -	٢٤٠ - نموذج من الناس سما بخلقه وعمله	٨٧ (١٥٩٥)
	من سورة سبأ:	
١٤ -	٢٤١ - وما يُبْدِئُ الباطل وما يُعيدُ	٩٤ (١٦٠٢)

الرقم	البيان	الصفحة
١٥ ـ	من سورة الأنفال:	
١٦ ـ	٢٤٢ ـ دروس من سورة الأنفال	١٠٠ (١٦٠٨)
	٢٤٣ ـ أ ـ لقمان	١٠٦ (١٦١٤)
	في ظلال سورة لقمان:	
١٧ ـ	٢٤٤ ـ ب ـ دعوة إلى التدبر	١١١ (١٦١٩)
١٨ ـ	٢٤٥ ـ ج ـ أُوتى لقمانُ خيرًا كثيرًا	١١٧ (١٦٢٥)
١٩ ـ	٢٤٦ ـ د ـ الوصية بالوالدين وأحكام متعلقة بها	١٢٣ (١٦٣١)
٢٠ ـ	٢٤٧ ـ هـ ـ إحياء الوازع الديني وتنميتُه فيه صالح الفرد والجماعة	١٢٩ (١٦٣٧)
٢١ ـ	٢٤٨ ـ و ـ تكميل النفس بالعلم والعمل وزينتها التواضع والاعتدال	١٣٥ (١٦٤٣)
٢٢ ـ	٢٤٩ ـ الله الصمد	١٤١ (١٦٤٩)
	صورة نفسية لقلوب مريضة:	
٢٣ ـ	٢٥٠ ـ «لا إلى هؤلاءِ ولا إلى هؤلاء»	١٤٧ (١٦٥٥)
٢٤ ـ	٢٥١ ـ من أدب الإسلام: في الطعام والشراب	١٥٢ (١٦٦٠)
٢٥ ـ	٢٥٢ ـ «قل كلٌّ يَعْملُ على شاكلتِه»	١٥٩ (١٦٦٧)
	دروس من سورة الكهف:	
٢٦ ـ	٢٥٣ ـ أ ـ «كبرت كلمةً تخرجُ من أفواههم»	١٦٥ (١٦٧٣)
٢٧ ـ	٢٥٤ ـ ب ـ «إنهم فتيةٌ آمنوا بِربِّهِم»	١٧١ (١٦٧٩)
٢٨ ـ	٢٥٥ ـ ج ـ هجرةٌ فكرية وبدنيةٌ وغربة نقية في سبيل الله	١٧٨ (١٦٨٦)
٢٩ ـ	٢٥٦ ـ د ـ آيةٌ ناطقةٌ بكمال القدرة وشاهدٌ على أن البعث بالروح والجسدِ معًا	١٨٤ (١٦٩٢)

الرقم	البيان	الصفحة
٣٠ -	٢٥٧ - الحجةُ قائمةٌ على الإنسان ولا عُذرَ لمكلَّف	١٩١ (١٦٩٩)
٣١ -	٢٥٨ - قصة هابيل وقابيل	
	صارت مثلا فيه عظة وعبرة	١٩٩ (١٧٠٧)
	فى ظلال سورة «المطففون»:	
٣٢ -	٢٥٩ - أ - الترهيب من الكسب الحرام	٢٠٥ (١٧١٣)
٣٣ -	٢٦٠ - ب - السِّجِّينُ ، والحجْبُ عن رؤية	
	ربِّ العالمين أعظمُ خَسارة	٢١٢ (١٧٢٠)
٣٤ -	٢٦١ - ج - «وفى ذَلِك فَلْيَتَنَافَس الْمُتَنافِسُون»	٢١٩ (١٧٢٧)
٣٥ -	كلمة فى :	
	الآية ، والآيات	
	ودلالتها فى الكتاب العزيز	٢٢٥ (١٧٣٣)
٣٦ -	نصيحة:	
	لصاحب القرآن	
	«وَاجبُه - منزلتُه»	٢٣١ (١٧٣٩)

هذا الكتاب

يُقدِّمُ أمثالًا ونماذِجَ بشريةً من القرآن العظيم . وفيه نجدُ : استقامةَ الفِكْر ، ووضوحَ المعاني ، والعظةَ ، والعِبْرَةَ ، والحُكْمَ ، والحِكْمَةَ ، والمَثَل ، والدليلَ والبرهانَ ، والتحليلَ النفسيَّ ، واللغةَ ، والإعرابَ ، والبيانَ ، والإشاراتِ التاريخيةَ مع سهولةِ العَرْضِ ، وسلامةِ المَنْهَج .

إنَّ المَثَل القرآنيَّ : يُغَذِّي العقْلَ ، ويُمْتِعُ النفسَ ، ويُنِيرُ القلبَ ، ويصحِّحُ العقائدَ ، ويربِّي الضمائرَ ، ويهذِّبُ الأخلاقَ ، ويُقَوِّمُ المسالِكَ ، ويُنَمِّي في الإنسانِ عواطفَه الشريفةَ ، ويدلُّنا علىٰ أسبابِ السكينةِ والسعادةِ في الدنيا ، والفوزِ والنجاةِ في الآخِرة .

إنَّ هٰذه الأمثالَ مِن أعظمِ وسائلِ التربيةِ ، وأنفعِها ، وأهدَاها سبيلًا ، وأشدِّها عونًا علىٰ الوصول إلىٰ الغاياتِ النبيلةِ .

إنَّ القارئَ المُتَمَعِّنَ سيخرجُ من هٰذا الكتابِ بخيرٍ كثيرٍ ، ومنافعَ جَمَّةٍ ، بإذن اللهِ تعالىٰ وفَضْلِه .

وسيراه غنيًّا فى بابه ومادَّته ، يأنس إليه العالمُ ، والواعظ ، والمحدِّث ، والمعلِّم ، ويعظم نفعه لطالب العلم ، ومحب الأدب ، ودارس اللغة والبلاغة . وهو مقدم للمسلم ولغير المسلم ففيه تنوير وتبصير وبرهان .

والعِبْرةُ بالعِلْمِ والعَمَلِ .

إيداع رقم ٩٤/٣٤١٣ دولى رقم ٤ - ١٦٦ - ٢٦٠ - ٩٧٧

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
جمهورية مصر العربية - تليفون ٩٠٤٣٤٢